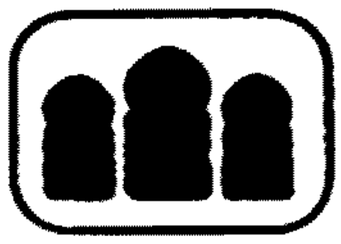

جامعة المولى إسماعيل

مكناسة

مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية
مكناس

عدد 13
1999

جامعة المولى إسماعيل
كلية الآداب و العلوم الإنسانية
مكناس

مكناسة
مجلة سنوية

المدير:
الدكتور مصطفى بن الشيخ

نائب المدير:
الدكتور محمد إنفي

هيئة التحرير:
عمار اديل - عبد الناصر لقاح - عبد الفاضل الصافي - أحمد الاسماعيلي
- أحمد الزيتوني - فريد الانصاري - عبد العالي حبيب - نعيمة قارا

طبع وتصفيف :
م. هاشم بكري
حسناء الغيداني

رقم الايداع القانوني: 1992/312
ت.د.م.د :0851-2086

العنوان : كلية الآداب والعلوم الانسانية ، بني امحمد ص. ب 4009، مكناس ، المغرب .
الهاتف 68-69-53 / 12-70-53

ميثاق المجلة

- الهدف من مجلة "مكناسة" تمكين الباحثين من وسائل العمل العلمية اللازمة في مجال المعرفة.
- "مكناسة" المتنوعة التخصصات واللغات، تسجل تساؤلاتها في إطار البحث العلمي والاستفادة من المحيط الاجتماعي والاقتصادي للاسهام في الإشعاع الثقافي.
- تطمح المجلة إلى الإحاطة بالرصيد الثقافي في مختلف أشكال التعبير للمساهمة في الحوار بين الثقافات في أفق التبادل المعرفي وقبول الرأي والرأي الآخر.

قواعد النشر

1- "مكناسة" مجلة دورية تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمكناس.

2- "مكناسة" تنشر المقالات، الوثائق والتقارير البيبلوغرافية التي لم يسبق نشرها من قبل.

3- تقدم المقالات مطبوعة في سطر مزدوج على قرص من برنامج نظام word windows ولا يمكن أن تتجاوز 15 صفحة من حجم (29/21) . وينبغي أن تكون كل مقالة مرفقة بملخص لا يتعدى خمسة أسطر.

4- تثبت الهوامش والمراجع في آخر المقالات.

5- ترتيب المقالات يخضع لعملية تقنية محضة .

6- تعبر المقالات عن أراء أصحابها .

8- كل مشارك في عدد من مجلة "مكناسة" يتوصل بنسختين من العدد وعشر (10) نسخ من المقالة.

9- توجه المراسلات إلى السيد قيدوم كلية الآداب مدير مجلة "مكناسة" ص.ب 4009 ابني امحمد مكناس.

فاكس : 05537252

البريد الإلكتروني : flmek@yahoo.com

المحتويات

ادب 7

تهافت الأندلسيين على كتابة التراجم : عنوان، أصالة، وإبداع

ذ. عبد اللطيف مومن 9

الخصائص الفنية للنثر الأدبي في المغرب في القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني (1)

ذ. عـلال معـگـــول 21

أبو القاسم السهيلي مكانته العلمية وآثاره

ذ محـمد الســبـاعـي 37

قضايا مصطلحية

ذ. عبد الحميد العبدوني 45

الشعر المكسيكي على الطريقة اليابانية (هايي كايي)

ذة .مهوش أسدى 61

لسانيات 63

تأملات في المعجم العربي

ذ.عبد العزيز العماري 67

نظرية «گرايس» والبلاغة العربية

ذ. بنعيسى أزابيط 73

تـاريـخ 91

وصف بعثة سلطانية إلى الصحراء المغربيـة في القـرن الثامن عشـر «للأنجليـزي توماس بيلو T. Pellow »

ذ. ادريس أبو ادريس 93

تجربة مصر الاقتصادية على عهد محمد علي باشا مسألة الاستفادة التقنية من الخارج
ذ. عبد الفاضل الصافي 103
وثيقة انجليزية في وصف المغرب خلال النصف الأول من القرن السابع عشر
زهراء إخوان 121
قراءة تعريفية حول كتاب مكناس : المدينة الجديدة التأسيس -البنيات الإدارية - التناقضات 1911-1939
ذ . بوزياني قدور 147
موقف فقهاء فاس من مشروع انشاء المدارس المرينية
ذ. لمليح السعيد 161

الدراسات الاسلامية 173
علم غريب الحديث نشأته وتطور التأليف فيه حتى نهاية القرن الرابع الهجري
ذ. خالد المقالي 175
تاريخ علم مختلف الحديث، وأهم رواده
ذ . فؤاد بوقجيج 189
مفهوم الظاهر عند الأصوليين
محمد علوي بنصر 201

أدب

تهافت الأندلسيين على كتابة التراجم: عنوان، أصالة، وإبداع

عبد اللطيف مومن
كلية الآداب - مكناس

لم يكن بدعا أن يعكس الأندلسيون ملامح شخصيتهم الأصيلة، وجوانب عبقريتهم الفذة، عبر مظاهر فنية وفكرية وعلمية وأدبية ومعمارية، ذلك أنهم أوتوا من صفاء الذهن، ورقة الإحساس، ووضوح الفكر، وصدق البيان ما جعلهم يغنون الفكر والحضارة العربيين والغربيين بتراث عريق أخذت سماته ومزاياه تتكشف حينا بعد حين، وكان التهافت على كتابة التراجم والسير أحد مظاهره.

بيد أن هذا الفن من الكتابة النثرية سيشهد رقيا ولمعانا خلال القرن الخامس الهجري وما بعده، لكون الأندلسيين أرادوا أن يثبتوا للمشارقة الذين كانوا ينظرون إليهم باستعلاء - أنهم أهل دراية وإبداع وليسوا أصحاب رواية واتباع.

ولعل ابن شهيد (ت 426 هـ) وابن حزم (ت 456 هـ) وابن عبد البر القرطبي (ت 463 هـ) وابن حيان (ت 469 هـ) خير من مثل زعماء هذا الفن النثري، حيث حاولوا أن يعلوا من شأن الشخصية الأندلسية ويدافعوا عنها، كما استطاعوا أن يوائموا بين مقتضيات الكتابة الفنية والحقائق العلمية التاريخية بدون تقصير ولا مغالاة، كل ذلك وفق منهج تاريخي أدبي متوازن لم يعهد له مثيل في المشرق .

وبذلك عملوا على تخليد صفحات من فكرهم وإبداعهم وأدبهم حتى لا يضيع في زحمة الحدثان هباء منثورا .

لقد تعددت مجالات إبداع الأندلسيين في الدراسات الإسلامية والفكرية والأدبية والعلمية البحت، وهم وإن أسسوا قواعد ثقافتهم وأدبهم على المشارقة أول الأمر، فإن هذا

لم يمنعهم من أن يستشعروا هويتهم الأندلسية بدءا من القرن فإن الخامس الهجري، فما بعده، ومعنى هذا أن أغلب عطائهم الأدبي، منذ هذا العصر، قد أخذ يصدر عن إبداع أكثر من صدوره عن اتباع، فصارت المعاني مصطبغة بالروح والطابع الأندلسيين، وانعكست على اللغة خصائص شتى لهذا الابداع .

ولعل كتابة التراجم من أبرز الفنون النثرية التي لمع فيها نجمهم وفاقوا فيها إخوانهم المشارقة حتى صار مرآة تعكس ميزات حضارتهم ومميزات شخصيتهم وأصالتهم، وعنوانا على عبقريتهم وإبداعهم.

وكتابة التراجم فن نثري تقليدي لأنها تمزج بين التاريخ والأدب. وهي أشد التصاقا بالأدب منها بالتاريخ لأن المؤرخ قد يلتزم بمبدأ التجرد الموضوعي ويجعل معرفة الحقيقة رائده فتصبح عبارته جافة عارية من الطلاوة، أما كاتب الترجمة الذاتية أو الغيرية فانه يسعى إلى تلوين كتابته بمحسنات وصور بيانية تجعلها أقوى تأثيرا في نفسية المتلقين، خاصة وأنها تكون -عادة- صادرة عن مشاعر معينة نحو من تكتب عنه ولذلك وجد «من الناس من يدرج السير والتراجم في باب الأدب وإن كنا لا ننكر علاقة الأدب بالتاريخ فاننا لا ننكر أيضا علاقة التاريخ بالسير والتراجم...» (1) «وما زالت السير تمثل مكانا مرموقا تبوأته منذ القدم في رحاب التاريخ فهي أشهى كتب التاريخ إلى نفس الإنسان، ذلك أن الإنسان ينشد دائما معرفة ذاته أو أنه يسعى إلى معرفة الكمال والنقص في غيره مقرونا إلى ذاته...« (2)

وقد عرف الأدب العربي هذا الفن منذ العصر العباسي، ويظهر أن الذي وجه عناية العرب ليكتبوا في هذا المضمار هو الاهتمام بالسيرة النبوية علي يدي ابن إسحاق والطبري خاصة «ولعل الجاحظ المتوفى سنة 255 هـ أكثر من عني في عصره بتصوير نفسه في كتاباته بحيث نستطيع أن نستخرج من كتبه ورسائله أكثر الخيوط التي ألفت نسيج حياته من الوجهتين الثقافية والمعاشية...» (3) ومن أشهر من كتبوا سيرا ذاتية : الغزالي (ت 505 هـ) في كتابه : المنقذ من الضلال وأسامة بن منقد في كتابه «الاعتبار» (ت 584 هـ) وابن خلدون (ت 808 هـ) في التعريف بابن خلدون"

أما التراجم التي كتبت حول الآخرين فكثيرة لا تحصى إذ أن هناك "تراجم للشعراء والمحدثين واللغويين وأخرى للأطباء وعلماء الطبيعة وغيرها كثير (4)."

وإذا انتقلنا إلى الأندلس وجدنا أن الأندلسيين لم يعنوا خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين بهذا الفن لكون مقومات شخصيتهم لم تكن قد استيقظت بعد إذ كانوا يهوون بأفئدتهم نحو المشرق، ولا يستطيعون الانفصال عنه : بيد أنه بمجيء عهد الخلافة بدأوا يستشعرون مميزات ذواتهم ومزايا أعلامهم : أدباء كانوا أو شعراء أو علماء أومفكرين فصاروا بترجمون لهم، وكأني بهم أرادو أن يثبتوا للمشارقة مدى إبداعهم وعبقريتهم إلا أننا نصطدم بالحقيقة المؤسفة وهي أن مصادر هذه التراجم غير متوافرة بصورة كافية، ويبقى التساؤل مطروحا دائما حول سبب عدم وصولها إلينا، ومن هذه الكتب التي نسمع عنها في المصادر ولا نجدها مثلا : أخبار الشعراء بالأندلس لمحمد بن هشام بن عبد العزيز بن سعيد ابن الأمير الحكم بن هشام (5) (ت 340 هـ) وأخبار شعراء الأندلس لعبادة بن ماء السماء (6) (كان حيا سنة 421 هـ) أما كتب التراجم التي وصلتنا من هذه المرحلة فلا نعلم منها إلا "قضاة قرطبة وعلماء افريقية (7) لأبي عبد الله الخشني (ت 361 هـ) (8) و "تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس" لأبي الوليد بن الفرضي (9) (ت 403 هـ) إلا أن فن التراجم والسير سيشهد طفرة هائلة بدءا من أواخر القرن الخامس الهجري وانتهاء بخروج العرب من الأندلس سواء تعلق الأمر بكتابة الترجمة الذاتية ك "مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين الموسومة (10) ب "كتاب التبيان (11) أو بكتابة تراجم للآخرين ككتاب "جذوة المقتبس (12) لأبي عبد الله الحميدي، و "كتاب الصلة" لابن بشكوال (13) و"التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (14) (ت 658 هـ) وغيرها كثير.

ولعل من أبرز ما كتب من التراجم أوائل القرن الخامس الهجري يتجلى في تلك الفقرات الواردة في رسالة "طوق الحمامة" لابن حزم والتي يترجم فيها لمرحلة معينة من حياته، أو في مؤلفه "رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها" والتي يترجم فيها لأشهر أعلام الأندلس: وكذا ما جاء في "حانوت عطار" (15) لابن شهيد الذي يترجم فيه لبعض أدباء الأندلس وشعرائها، إلا أنه كتاب في حكم الضائع (16). وهكذا في رسالة "طوق الحمامة لابن حزم نراه يتحدث عن مرحلة عسيرة من مراحل حياته تلك التي قضاها أيام الفتنة القرطبية المشؤومة (17)، فقد اضطرت أحداثها المذهلة أسرته أن تغادر الجانب الشرقي من قرطبة، وهو مركز الأحياء الفخمة حيث الحكام و الوزراء والوجهاء والأعيان - إلى جانبها الغربي، وكانت تسكنة غالبية من العامة، إلا أن أحوال هذه الأسرة لم تستقر

حيث تعرضت للحبس والتغريم والاعتداء حتى إذا دخل البربر المدينة سنة 403 هـ (18) أرغم صاحبنا على مغادرتها تحت طائلة التهديد ولم يعد إليها إلا في سنة 409 هـ وفي ذلك يقول : «.... ثم انتقل إبى رحمه الله من دورنا المحدثة بالجانب الشرقي من قرطبة في ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة، في الجانب الغربي من قرطبة ببلاط مغيث في اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار، وأُرْزَمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصَّتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ونحن في هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذي القعدة عام اثنين وأربعمائة، واتصلت بنا تلك الحال بعده...» إلى أن يقول : «ثم ضرب الدهر ضرباته وأجْلينا عن منازلنا، وتغلب علينا جند البربر فخرجت عن قرطبة أول محرم سنة أربع وأربعمائة..» (19) وفي مؤلفه "رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها "نراه يرجم لأشهر أعلام بلده -أي الأندلس- في ميادين العلوم الدينية واللغوية والطبيعية والفلسفية ومن المعروف أنه كتبها ردا على رسالة أبي علي بن الربيب القروي (20) الذي كان قد بعث برسالة إلى أبي المغيرة بن حزم (ت 438 هـ) ينعى فيها على أهل الأندلس تقصيرهم في التعريف بمفاخرهم وأعلامهم عن طريق مؤلفات بعينها فرد عليه أبو المغيرة، ثم وقعت رسالة ابن الربيب في يدي صاحبنا أبي محمد بن حزم بعد زمن فآلمه كون ابن عمه لم يحسن الرد فكتب هذه الرسالة، ومن خلال رده، أو رسالته هاته - تشعر بأن الرجل متعصب لقطره الأندلس لا يرضى بديلا عنه، بل ويجعله مفضلا على باقي الأمصار الاسلامية، وقد استعمل أسلوب المفاخرة أي مفاخرة ابن الربيب الذي هو من القيروان - المعتمد على قاعدة التناظر والمقابلة والمقارنة حتى إننا لنشعر بشيء من الحدة في هذا الرد ومن نماذج هذه التراجم قوله عن ابن عبد البر (22) (ت 463 هـ) : « ومنها (أي من مؤلفات الأندلسيين) كتاب "التمهيد" لصاحبنا أبي عمر يوسف بن عبد البر، وهو الآن بعد في الحياة لم يبلغ سن السيخوخة (23) وهو كتاب لا أعلم في الكلام على فقه الحديث مثله أصلا، فكيف أحسن منه، ومنها (أي من مولفات الأندلسيين) كتاب "الاستذكار" وهو اختصار "التمهيد" المذكور، ولصاحبنا أبي عمر بن عبد البر المذكور كتب لا مِثل لها، ومنها كتابه المسمى "الكافي في الفقه على مذهب مالك وأصحابه خمسة عشر كتابا اقتصر فيه على ما بالمفتي الحاجة إليه، وبوّبه وقربه فصار مغنيا عن التصنيفات الطوال في معناه، ومنها كتابه في الصحابة سماه كتاب "الاستيعاب في أسماء المذكورين في الروايات والسير والمصنفات من الصحابة رضي الله عنهم والتعريف بهم وتلخيص

أحوالهم ومنازلهم وعيون أخبارهم على حروف المعجم اثنا عشر جزءا ليس لأحد من المتقدمين مثله، على كثرة ما صنفوا في ذلك، ومنها كتاب "الاكتفاء في قراءة نافع وأبي عمر بن العلاء والحجة لكل منهما " ومنها كتاب " بهجة المجالس وأنس المجالس مما يجري في المذاكرات من غرر الأبيات ونوادر الحكايات، ومنها كتاب "جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته" ... ومنها كتاب " التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس وملوكها "تأليف أبي مروان بن حيان (ت 469 هـ) (24) نحو عشرة أسفار من أجل كتاب ألف في هذا المعنى، وهو في الحياة بعد لم يتجاوز الاكتهال...» ويقول عن ابن شهيد (ت 426 هـ) (25) ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا وهو حي بعد، لم يبلغ سن الاكتهال، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل» (26).

وهكذا نستنتج أن ابن حزم أدرك المغزى من وضع تراجم لأعلام الأندلس حتى لا تضيع آثارهم وأعمالهم مع مرور الزمن، ذلك أن فن الترجمة- لكونه يعتمد على الطابع الأدبي- يظل من أحب فنون التاريخ لدى القارئ لما يتضمنه من متعة فنية وتشويق وإثارة ومن الملاحظات أن أسلوب ابن حزم في هذه الرسالة اتسم بالتحرر من قيود السجع والجناس، ووضوح العبارة واشراقها، ولكن الألفاظ تبقى متماسكة، ولا ننسى أن عنصر الزمن كان حاضرا في ذهن ابن حزم، وكذلك دأب المؤرخ في كل عصر. ومما يدل على هذا قوله : « وهو الآن بعد في الحياة لم يبلغ سن الشيخوخة، وهو في الحياة بعد لم يتجاوز الاكتهال (28) » « وأما صقلية فإنها فتحت صدر أيام الاغالبة سنة 272 هـ (29) إلا أن عاطفته تشتد وتصير أكثرحرارة حين حديثه عن نفسه، وليس معنى هذا أن أحاديثه عن الآخرين تفتقر إلى الصدق العاطفي المنشود.

ولعل أبا عمر يوسف بن عبد البر من كتاب التراجم المشهورين في هذا العصر، وقد عُمر طويلا فامتدت به الحياة حتى سنة 463 هـ، وفي مؤلفه المشهور بالاستيعاب نراه يترجم للصحابة رضوان الله عليهم مستخلصا أخبارهم من أغلب المصنفات المختصة في هذا الميدان قبله، وعلى رأسها السيرة لابن إسحاق، وقد اتبع في ذلك الترتيب المعجمي الأندلسي المألوف في عصره، ولكن مع تقديم الحديث عن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم التحدث عن إبراهم ابنه، أما الجزء الرابع فيخصصه للحديث عن أصحاب الكنى، ومما

يقوله في ترجمة أبان بن سعيد بن العاص مثلا «أبان بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي (31) قال الزبير، تأخر إسلامه بعد إسلام أخويه خالد وعمرو (أي عمرو بن العاص) فقال لهما : (بيتان من الطويل)

ألا ليت ميتا بالصريمة شاهد لما يفتري في الدين عمرو وخالد
أطاعا معا أمر النساء فأصبحا يعينان من أعدائنا من يكابد

ثم أسلم أبان وحسن إسلامه وهو الذي أجاز عثمان بن عفان حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قريش عام الحديبية وحمله على فرسه حتى دخل مكة...» (32)

ومما يقوله في ترجمة بجير بن زهير بن أبي سلمى «... أسلم قبل أخيه كعب بن زهير، وكان شاعرا محسنا هو وأخوه كعب، وأما أبوهما فأحد المبرزين الفحول في الشعراء، وكعب بن زهير يتلوه في ذلك، وكان كعب وبجير قد خرجا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما بلغا أبرق العراق قال كعب لبجير : الق هذا الرجل وأنا مقيم لك هنا، فقدم بجير على رسول الله صلى عليه وسلم وسمع منه وأسلم، وبلغ ذلك كعبا فقال في ذلك أبياتا ذكرنا بعضها في باب كعب، ثم لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة منصرفه من الطائف كتب بجبر إلى كعب: إن كانت لك في نفسك حاجة فاقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه لا يقتل أحدا جاءه تائبا وذلك أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدر دمه لقول بلغه عنه... (33)».

ومن خلال هذين النصين - وغيرهما- يبدو واضحا أن ابن عبد البر ينحو منحى المحدثين في رفع السند وتوثيقه، ومنحى منهج الفقهاء في الاحتجاج بالقرآن أولا وبالأحاديث النبوية ثانيا، كما تظهر سعة معرفته في الروايات التي يرويها حول المترجم له، وفي المصادر الدينية أو التاريخية التي يستند إليها، ثم إن منهجه يتطلب منه التثبت والتحري فيما يرويه من أخبار، كما أن عنصري الزمان والمكان حاضران في ذهنه أبدا من مثل استعماله عبارات : قبل إسلامه - قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد هجرته، بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، الخ، هذا إلى تركيزه الحديث على الجانب المضيء من حياة الصحابي المترجم له، على أن أسلوب ابن عبد البر يبقى بعد ذلك أسلوبا تقريريا إخباريا يفتقد إلى جمال التصوير، أو روعة العبارات المشرقة، إلا أنه لا يعتمد على تلك الألفاظ الخشنة، أو المصطلحات الفقهية المعقدة، أو يسف في عبارته إسفافا، وهذا شيء طبيعي ما دام همه في هذا الكتاب الكشف عن الجوانب المهمة في سِيَر

الصحابة رضوان الله عليهم .

وإذا كان ابن حيان يعد رائد الكتابة التاريخية في الأندلس فانه قد ساهم هو الآخر في كتابة التراجم، وإن لم يترك كتابا مختصا بهذا المعنى، إلا أن المصادر التاريخية والأدبية التي تنقل عنه تورد تراجم له خص بها بعض الشعراء أو الكتاب أو العلماء، إضافة إلى ما أنشأه في الحديث عن أحوال الحكام والساسة، ولعل أكثر تلك المصادر نقلا عنه كتاب " الذخيرة لابن بسام، ومن نماذج ذلك قوله متشفيا بموت زاوي بن زيري بن مناد الصنهاجي (34) متحدثا عن مرحلة من حياته «ونعي إلينا عدو نفسه، زاوي بن زيزي موقد الفتنة بعد الدولة العامرية، وورد النبأ بمهلكه في القيروان وطنه بعد منصرفه إليها خاملا مغمورا بين أعاظم قومه لم يرتفع له ذكر بينهم، مهلكه كان، زعموا من طاعونة أصابته فالحمد لله المنفرد بإهلاكه، الكفيل بقصاصة ، فلقد كان في الظلم والجور، والاستحلال للمحارم والقسوة آية من آيات الله أهان الله مثواه ولا قدس صداه، » (35) واضح من هذا التشفي أن ابن حيان يتعصب لأندلسيته ضد العنصر البربري الذي كان كثير من الأندلسيين يعتبرونه دخيلا ولذلك يستبشر خيرا، بموت زيري بن مناد هذا، وحينما يستعمل عبارة "بعد منصرفه إليها خاملا مغمورا بين أعاظم قومه لم يرتفع له ذكر بينهم فإنما لينبه الأندلسيين إلى ضرورة اجتماع كلمتهم حتى لا يؤمر عليهم حكام تافهون حقيرون كهذا (الزعيم البربري!) أما النموذج الثاني الذي نورده في هذا السياق فهو الترجمة التي كتبها حول ابن دراج القسطلي وفيها يقول : «وأبو عمر القسطلي سباق حلبة الشعراء العامريين، وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين، وكان ممن طوحت به تلك الفتنة الشنعاء (يقصد الفتنة القرطبية التي اندلعت سنة 339 هـ) واضطرته إلى النجعة، فاستقرى ملوكها أجمعين، ما بين الجزيرة الخضراء فسرقسطة من الثغر الأعلى، يهز كلا بمديحه ويستعينهم على نكبته... فيُصمُّون عنه إلى أن مر بعفوة مندر بن يحيى أمير سرقسطة فألقى« عصا سيره عند من بَوَّأهُ، ورحب به وأوسع قراه، فلم يزل عنده، وعند ابنه بعده، ما دحا لهما، مثنيا عليهما، رافعا من ذكرهما، غير باغ بدلا بجوار هما، إلى أن مضى بسبيله بعد أن جرت له رحمه الله على إحسانه الباهر في فتنة البرابر مع أملاك الجزيرة، في طول الاغتراب والنجعة، أخبار شاقة، فيها لذي اللب موعظة بالغة» (36) .

وإن مما يلفت النظر في هذا النص الثاني هو أسلوب ابن حيان الأدبي الفني ذو الألفاظ المتينة المتماسكة، والعبارات المنتقاة، والصور البيانية المشرقة، خاصة ما يتعلق باستعمال المجازات والكنايات، هذا إلى اتكاء على السجع حتى ليبدو الأمر متصنعا، ثم

إنه لا يغفل الحديث عن عنصري الزمان والمكان اللذين يشترط حضورهما في كل ترجمة، ذكر زمن الفتنة ومكانها بلاط بني تجيب في سرقسطة- أمراء عهد الفتنة المنتزين (أي الثائرين) كما أن تأثير الفتنة المشؤومة في نفسية ابن حيان وفي نظرته إلى الحياة، بادٍ بجلاء في هذين الأثرين حيث يعتبرها سببا في اضطراب أمور الأندلسيين وقلب الموازين والقيم، فزيري بن مناد يؤوب إلى موطنه الأصلي، -القيروان- ذليلا نكرة كباقي النكرات والمغمورين وابن دراج الشاعر المبدع اللامع صيته أيام بني عامر تهوي به الفتنة القرطبية إلى الحضيض الأسفل، وذلك ما جعل ابن حيان يعجب من هذه الدنيا ويعتبر بها اعتبارا، ولعل صاحبنا بهذا الصنيع أراد أن يقيم مقارنة بين الماضي المشرق وبين الحاضر المظلم، أو كأني به شعر بوعيه الظاهر أو بوعيه الخفي، بضرورة تسجيل تلك الصفحات المضيئة من تاريخ الأندلس قبل فتنتها المبيرة حتى تكون زادا صالحا للتأمل والتبصر أمام من سيأتي بعده، وهو في هذا الشعور يلتقي مع ابن حزم الذي التزم القيام بهذا العمل من خلال رسالتيه "طوق الحمامة" و "رسالة في فضل الأندلس وإذا كانت النصوص لا تسعفنا بإعطاء صور واستخلاص حقائق أكثر نصاعة فليس معنى هذا أن فن التراجم كان صوته خافتا بل - وكما يقول الدكتور إحسان عباس- : «وربما لم يكن من البعيد عن الصواب أن نجعل زوال مجد قرطبة في هذه الفتنة مسؤولا عن نمو ظاهرتين أدبيتين : الأولى : الميل إلى التراجم الذاتية، فإن هذه التراجم إنما انبثقت من ألشعور بجمال الماضي، وتغير الحاضر، وتقلب الأحوال في قرطبة، ويمثل هذه الناحية كتاب "طوق الحمامة لابن حزم... » (37)

الهوامش والإحالات مع وصف المصادر والمراجع المعتمدة :

1 - التاريخ والسير : للدكتور حسين فوزي التجاري، ص 55 - سلسلة المكتبة الثقافية - العدد 121 - نونبر 1964 القاهرة

2 - نفسه : ص 36

3 -انظر كتاب "الترجمة الشخصية للدكتور شوقي ضيف ص 35 سلسلة فنون الأدب العربي - طبع دار المعارف بمصر

4 -وكمثال على ذلك : "طبقات الشعراء" لابن سلام الجمحي، و "طبقات ابن سعد، و"طبقات النحويين واللغويين" للزبيدي و"طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة

5 - انظر "جذوة المقتبس للحميدي ص 95-96 رقم 156 نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة - سنة 1966 سلسلة المكتبة الأندلسية - ع 3

6 - نفسه : ص 293 رقم 662

7 - من أفضل نشراته : نشرة : " سلسلة تراث الأندلس" بتحقيق وتصحيح السيد عزت العطار الحسيني - مكتبة الخانجي بمصر، سنة 1372هـ

8 - ترتيب المدارك : للقاضي عياض 267/6 ضبط ونشر محمد بنتاويت الطنجي - منشورات وزارة الأوقاف - السلسلة التاريخية - الرباط

9 - جذوة المقتبس رقم 573 - ص 254-256 ثم الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني - تحقيق الدكتور إحسان عباس - نشر : دار الثقافة -بيروت- ط 2 - سنة 1979.

10 - مات في المغرب بعد أن قضى يوسف بن تاشفين على دولته بغرناطة (انظر : أعمال الأعلام : القسم الأندلسي المنشور تحت اسم : تاريخ إسبانيا الإسلامية ص 268 لابن الخطيب تحقيق وتعليق ليفي بروفسال نشر دار المكشوف - بيروت- ط 2 - سنة 1965 .

11 - حققه ونشره ليفي بروفنسال بالقاهرة سنة 1955 - كما حققه الدكتور أمين توفيق الطيبي ونشرته دار عكاظ بالرباط ضمن "سلسلة المعتمدين عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره .

12 - توفي سنة 488 هـ انظر عنه " المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد المغربي 467/2 تحقيق الدكتور شوقي ضيف - طبع دار المعارف بمصر ط 3.

13 - تُراجَعْ مقدمة "كتاب الصلة " لابن بشكوال(ت 578 هـ) نشر ضمن مجموعة تراثنا" المكتبة الأندلسية - الدار المصرية للتأليف والترجمة - مطابع سجل العرب - سنة 1966

14 - للتعرف عليه أكثر تُراجع المقدمة التي وضعها الدكتور عبد السلام الهراس

لديوان ابن الآبار حين تحقيقه إياه - نشر الدار التونسية- سنة 1985 ثم مقدمة الدكتور صالح الاشتر لكتاب "إعتاب الكُتاب " الذي حققه - نشر مجمع اللغة العربية بدمشق سنة 1961

15- انظر "جذوة المقتبس" ص 133

16- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس" للدكتور محمد رضوان الداية : ص 296 نشر دار الأنوار - بيروت - ط 1 سنة 1968

17- اشتعلت سنة 399 هـ وأتت على الأخضر واليابس بقرطبة وكان من نتائجها الخطيرة انفصام عروة وحدة الأندلس السياسية وتمزقها إلى ما اصطلح على تسميته ب دويلات ملوك الطوائف" انظر "البيان المغرب " لابن عذارى المراكشي 3/74-61 تحقيق ومراجعة س كولان وليفي بروفنسال نشر وطبع دار الثقافة بيروت - ط 3 سنة 1983 ثم "أعمال الأعلام " لابن الخطيب ص 111 المشار إليه آنفا .

18- انظر نفسي المصدرين السابقين مباشرة 3/114-113 والثاني ص 118-120 ثم انظر "المعجب في أخبار الأندلس والمغرب لعبد الواحد المراكشي ص 67 تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي دار الكتاب - الدار البيضاء ط 7-1978 .

19- انظر : "رسائل ابن حزم : 1/252-251 تحقيق الدكتور إحسان عباس -نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت - ط 1 سنة 1980 .

20- انظر "الذخيرة " لابن بسام : ق 1 ص 133 مع هامشها ثم "رسائل ابن حزم : 2/36-35

21- هو ابن عم أبي محمد علي بن حزم، انظر "الذخيرة" ق 1 م 1 ص 132 ثم "المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد المغربي : 1/357

22- انظر "جذوة المقتبس "للحميدي ص 367-369 رقم 874 ثم المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي 2/408-407

23- كتب ابن حزم هذه الرسالة ما بين سنتي 421هـ 434 هـ انظر مقدمة الجزء الثاني من رسائل ابن حزم بتحقيق إحسان عباس ص 37.

24- انظر حوله "جذوة المقتبس رقم 397 ثم الذخيرة ق 1 م 2 ص 574 ثم تاريخ الفكر الأندلسي لآنخل بالثنيا ص 208-211 ترجمة الدكتور حسين مؤنس - نشر وطبع مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ط 1 سنة 1955 ثم عددا خاصا عن ابن حيان من مجلة المناهل المغربية الصادرة عن وزارة الثقافة العدد 29

25- انظر حوله "جذوة المقتبس" ص 135-355 ، ثم "الذخيرة" ق 1 م 1/329 ومصادر ومراجع أخرى عديدة لا تخفى على القارئ المهتم.

26- يقصد : الجاحظ وسهل بن هارون انظر رسائل ابن حزم 1/188

27- انظر رسائل ابن حزم 179/2
28- نفسه 184/2
29- نفسه 174/2
30-انظر عنه "جذوة المقتبس" ص 367-369 رقم 874 ثم "المغرب" 407-408/2
31- هو أخو عمرو بن العاص توفي سنة 59 هـ انظر عنه كتاب الوفيات للقسنطيني تحقيق عادل نويهض ص 70 منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت ط 1-سنة 1571
32-الاستيعاب "المنشورعلى هامش " الإصابة لابن حجر 46/1 نشر دار الكاتب العربي - بيروت ط 2 سنة 1973
33-نفسه 374/1، وابن عبر البر يشير هنا إلى هجاء كعب الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يفتتحه بقوله : ألا أبلغا عني بجيرا رسالة ... الأبيات انظر الاستيعاب ص 226
34- كان زعيما للبربر بإلبيرة أيام الفتنة البربرية القرطبية سنة 399 هـ فلما رأى أن الأوضاع اضطربت ثار بهذه المدينة وبغرناطة وعظم قدره، ولما خشي على نفسه من اجتماع كلمة الأندلسيين غادرها إلى القيروان محملا بالنفائس تاركا بغرناطة ابن أخيه حَبُّوس ابن مَكْسَن الذي أسس بها دولة بني زيري ، انظر عنه "المغرب في حلى المغرب 106/2 و أعمال الأعلام (القسم الأندلسي) لابن الخطيب ص 262 و "البيان المغرب" لابن غداري المراكشي 264/3 تحقيق ج س كولان وليفي بروفنسال - نشر وطبع دار الثقافة بيروت - ط 3 سنة 1983
35- الذخيرة ق 1 م 2 ص 588
36- نفسه ق 1 م 1 ص 60-61
37- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ص 140-141 نشر وطبع دار الثقافة بيروت ط 5 سنة 1978.

الخصائص الفنية للنثر الأدبي في المغرب في القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني (1)

د. علال معگول
كلية الآداب -مكناس

(تابع لما نشر في مجلة مكناسة العدد العاشر (10) ص 25 - 44)

ملخص :

تبين لنا من الدراسة المضمونية للنثر الأدبي في المغرب خلال القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني أنه نثر متنوع تبعا لتنوع الأفكار والموضوعات التي عالجها ومستوى الجهات الصادر منها والمتجه إليها، والبيئة التي لونته بأحداثها وبنمط الحياة فيها من خلال التعبير عن الحالات الخاصة والعامة، وما يطبعها من تأثر وتأثير.

وللإشارة فإن بعض الدراسات -على قلتها- تناولت جوانب من هذا النثر، وتركزت على النثر الديواني خاصة وحكمت عليه بالضعف ورأت أنه لم يتخلص منه إلا مع مطلع القرن الثالث عشر للهجرة.

ومحتوى هذا البحث سيحاول دراسة هذه الجوانب، ووضع الأحكام المشار إليها في المعيار النقدي وإن كانت الرسائل التي تقدمت الإشارة إليها تؤكد مبدئيا خلاف ذلك، وتبين مستواها الجمالي والفني، وما استقته من عناصر الإبداع في النثر العربي عموما، والنثر الأندلسي خصوصا،

ومن خلال تناولنا لرسائل الملوك والأمراء والولاة، والظهائر والبيعات وغيرها مما يدخل ضمن النثر الديواني، اتضحت لنا مستويات التعبير فيها تبعا للجهة التي صدرت منها واتجهت إليها... وهذا النثر اتسم بالقوة والنضج خاصة في بداية القرن الحادي عشر،

مع كتاب (2) بلاط أحمد المنصور الذهبي، وفي مقدمتهم عبد العزيز الفشتالي، الذي قال عنه السلطان المذكور: «إن الفشتالي نفتخر به على ملوك الأرض ونباري به لسان الدين بن الخطيب» (3) ، وقد امتد العمر ببعض هؤلاء الكتاب إلى الثلث الأول من القرن المذكور، الشيء الذي جعل الكتابة الديوانية تستمر في مستواها مع كتاب الزاوية الدلائية وأدبائها لتنضاف إليها سعة معرفتهم العلمية والأدبية...

فمن أين أتى الضعف الذي وجدناه في بعض الرسائل الديوانية ؟ والذي أبى محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي (4) إلا أن يعممه على النثر الديواني في القرنين الهجريين الحادي عشر والثاني: كما هو واضح من قوله : «ولكنا نرى أن الأسلوب الكتابي المخزني ينتفع من ذلك الأدب الدلائي، فإنا نجد أكثر الظهائر الصادرة في أيام مولانا إسماعيل قدس الله روحه... ركيكة التراكيب، ليست فيها تلك البراعة والبلاغة التي كانت عند السعديين ومن قبلهم، بل هي قريبة من الدارجة حتى في أيام مولاي عبد الله ثم مولاي سليمان، أما سيدي محمد بن عبد الله فقد ترقت صناعة الكتابة في أيامه، وارتفعت عن مستوى العامية، ولكنها لم تسترجع مكانتها الأولى كما تدل لذلك ظهائره ... حتى انتظم في سلك كتابة أدباء كالسيد محمد سكيرج الفاسي والغزال وابن عثمان المكناسي، ولقد كان هذا يميل كل الميل للأسلوب الأندلسي الذي كان على عهد ابن الخطيب وما قرب من زمانه كما تدل لذلك رحلته..» (5)

وقد عقد مقارنة بين هذه الدولة وبين الدول التي تعاقبت على حكم المغرب من مرابطين وموحدين ومرينيين اللذين استعانوا بالكتاب والادباء الأندلسيين وغيرهم «فأدركت دولهم شأنا لم يبلغه من بعدهم عظمة واتساعا ونفوذا...(6)

وإذا كان قد تم ابعاد الأدباء الدلائيين ومن تتلمذ عليهم من ديوان الإنشاء في عهد السلطان المولى إسماعيل لأسباب سياسية كما جاء في كلام الأستاذ محمد بن الحسن الحجوي في سياق النص السابق، فهل كان لا يصلح للكتابة في المغرب غير هؤلاء؟! ولماذا ظل الضعف موجودا في بعض الرسائل من هذا النوع مع وجود كتاب كبار؟ مثل الوزير الأديب أبي العباس اليحمدي (7) وسليمان بن عبد القادر الزرهوني (8) ومحمد بن العياشي (9) ومحمد الطيب بن مسعود المريني وغيرهم (10)..؟!

وقد استغرب الأستاذ الحجوي نفسه من ذلك، ولكن وقف عند حدود الاستغراب!! ولم يتجاوزه إلى تعليل تلك الظاهرة والبحث عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ذلك الضعف حيث قال : «فأما اليحمدي فلا ريب انه كان في الدرجة القصوى أدبا وبلاغة، وإني لأعجب جد العجب من صدور ظهائر منحطة الأسلوب للخارج في دولة هو وزيرها...» (11) ولا شيء بعد هذا الاستغراب والتساؤل!!

ولكن هذه الظاهرة الأدبية، كأية ظاهرة لا يوقف عندها بمثل ذلك، بل هذا الاستغراب وحده كاف للدفع بالبحث إلى أقصاه لمحاولة الوقوف على الأسباب، ولو على الافتراض إن انعدم الدليل المقنع، لأن ضعف الكتابة الديوانية مع وجود كتاب وأدباء كبار لا يثير الاستغراب فقط، بل يقلق النفس ويحيرها، ولا يهدأ بال الباحث المتتبع إلا إذا وجد ما يطمئن إليه في هذا المجال....

وباستقراء النصوص والأخبار نضع أيدينا على بعض من تلك الأسباب إن لم تكن كلها ومنها :

1 - اسناد الكتابة لكتاب ضعاف لأسباب سياسية تتجلى في عدم الثقة في غيرهم، كما هو واضح من انتقاد احمد المنصور الذهبي لبعض رسائل ابنه محمد الشيخ الذي ثار عليه فيما بعد، فقال :«... وحتى الكاتب اللاتق بأمثالكم ورسائلكم لم يكن عندكم؛ لأن كتبكم تارة تأتي بخط سالم، وهو غير عارف بالإنشاء، وتارة تأتي بخط الكرني وهو جاهل مع أنك لما كنت خليفتنا وولي عهدنا فأنت بصدد من يكتب لك كل أحد، لا صاحب الجزائر ولا صاحب تونس وحتى صاحب الترك، وصاحب النصارى، وكل من يكتب لنا من ملوك الأرض بصدد أن يكتب لك، فتحتاج حينئذ إلى من يحسن الجواب عنه...» (12)

والسلطان اسماعيل كذلك كثيرا ما كان ينتقد رسائل ولده المامون لصدورها عن كتاب جاهلين بالأدب واللغة فضلا عن فن الكتابة ووسائلها وأدواتها، وكان هذا الأمير واليا على سجلماسة ودرعة وما والاهما من قبائل الصحراء إلى بلاد السودان.

فما السبب في عدم توفر المامون على كتاب اكفاء؟ مع العلم أن وضعه ليس مثل وضع محمد الشيخ السعدي مع أبيه؟ لأنه كان ثائرا عليه ولهذا السبب من المحتمل الا

يرغب الأدباء في الخدمة معه خوفا على أنفسهم من تقلبات الأحوال السياسية وانقلاب الأمر على مخدومهم فتجرفهم الأحداث معه، كما هو واضح بالنسبة لأبناء السلطان اسماعيل بعد وفاته..

فالرسائل الواردة من الأمير المامون إلى أبيه لم تكن في المستوى المرغوب فيه مضمونا وأسلوبا فتزيد الغضب اشتعالا في نفس أبيه، كما جاء في قوله: «... وأما (براءتك) (13) فهي (براءة) عامي لا يعرف شيئا ولا (يفقهه) (14) ولا يكتبها رئيس ولاذو ولاية، أو ما علمت أن (براءة) الرجل هي عنوان عقله ومنها يختبر؟ فمن (براءتك) هذه يستدل على قلة اعتنائك وعدم تفرسك في (الرياسة) (15) واشتشرافك للأمور الكبيرة... (16) والأجوبة نفسها تؤكد هذا الضعف بالإضافة إلى ما اشتملت عليه من كلمات عامية تدعو إلى التساؤل عمن كتبها، والغاية من إسناد كتابتها إلى من لا يحسن الكتابة الأدبية ؟!

2 - وتتبع البحث في هذه الظاهرة أفضى إلى كون بعض الإماء كن كاتبات في البلاط الإسماعيلي، كما أشار إلى ذلك الأستاذ المؤرخ محمد المختار السوسي، أثناء حديثه عن بعض الظهائر فقال : «واعلم أن هذه الظهائر التي أودعناها في هذه التراجم كنت كلفت طالبا أن ينسخها لي، ولكن لم يقابلها إلا مقابلة ما، وحين وجدتها مملوءة بالتصحيف كنت أصحح ما لا بد من تصحيحه، وأبقي الباقي ظنا مني أن التصحيف من الناسخ، وإن كنت حين قرأتها بنفسي من أصولها، رأيتها طافحة بالتصحيف على عهد كتاب المولى اسماعيل، كما يعرف ذلك من مارس كثيرا من الظهائر الإسماعيلية، ويقال إن بعض إمائه هن الكاتبات، ثم لم تصلح الظهائر خطا وعبارة إلا من عهد سيدي محمد بن عبد الله... » (17).

ولم يقف صاحب المعسول على إيراد هذا الخبر، ووصف مستوى الكتابة الديوانية في هذه الظهائر وفي غيرها، بل تعجب كثيرا، واستغرب هذا النوع من الكتابة مع وجود كتاب كبار في البلاط الإسماعيلي خاصة، وفي حواضر المغرب كله عامة فقال: «واني لأتعجب من السلطان المولى إسماعيل كيف يرضى لنفسه هذه الكتابة لمكتب رسائله مع ما اوتيه من طول وبسط يد ومن كثرة الخطاط والمترسلين في الحواضر وغيرها إذ ذاك... » (18)

ويظهر أن الرغبة في السر والكتمان كانت وراء إسناد كتابة الرسائل والظهائر الإسماعيلية إلى الإماء نظرا لما كانت عليه البلاد آنذاك من اضطراب وفتن وحروب طاحنة بين السلطة المركزية وبين القبائل المغربية التي لم تدخل تحت نفوذها من جانب، وبينها وبين أعدائها في الخارج من جانب آخر...

وتجدر الإشارة إلى أن شخصية كبيرة كانت في البلاط الإسماعيلي، اشتهرت بالباع الطويل في الأدب وكتابة الإنشاء هو محمد (حمو) بن عبد الوهاب الوزير الغساني الذي «كان الخليفة يملي عليه الأمر برسائل عديدة لعمال وغيرهم متفرقين في البلدان، فيذهب لمنزله ويستوفي جميع ما أمره بكتبه، ويعطي كل ذي حق حقه من غير زيادة ولا نقصان، ثم يأتي بجميع الرسائل ويمليها على السلطان فيتعجب من سرعة الكتابة وحسن العبارة... » (19)

وبالرغم من أنه «انتهت إليه صنعة الترسيل» كما أشار إلى ذلك القادري في (النشر) ضمن ترجمته، فإنه كثيرا ما كان يستعمل «عبارات عامية دارجة مثل : الدشرة والمخزن والبراوات... ليفهم القراء مراده دون التباس، لا عن عجز وضعف في الاسلوب... » (20)

فهل هو صاحب تلك الرسائل التي رأينا أسلوبها نازلا عن المستوى الأدبي المطلوب؟ أم الإماء الكاتبات اللواتي أشرنا إليهن؟ أم هما معا؟ «ليفهم القراء المراد دون التباس» مراعاة لمستوى الولاة وقواد الجيش والحكام الذين كان أغلبهم أميا لا يعرف القراءة والكتابة وهم في الأعم الأغلب من أعيان القبائل وشيوخها الذين استمر الاعتماد على أمثالهم في تسيير البلاد إلى عهد قريب (21)

وإذا قارنا أسلوب هذه الظهائر والرسائل المشار إليها بأسلوب بعض الوصايا الصادرة عن هذا السلطان أو رسائله الموجهة إلى العلماء فان القارئ يدرك الاختلاف البين في التعبير عن المراد بعبارات أوضح وأدق، وإن كانت صادرة عن الجهة نفسها التي صدرت عنها تلك الرسائل والظهائر، مما يرجح ما ذهب إليه الأستاذ محمد المختار السوسي من أن إماء هذا السلطان هن اللواتي كن يكتبن له ما يريد أن يحاط بالسر والكتمان... في حين نجد وصيته لأبنائه جميعا عندما اشتد به المرض عام ثمانية وعشرين ومائة وألف (هـ / 1715 م) واضحة في أفكارها وسليمة في صياغتها ومنها قوله حين مثلوا بين يديه:

«أنتم أقرب الناس إلي، وأرغب الناس فيما لدي، وقد علمتم ما وقع على هذا وما لا قينا من الشدائد والضر، حتى اطمأن واستقر، ولم يبق منازع ولا معارض من غيركم، وأعلم أني إذا مت لا بد من الخلاف والتنازع بينكم فتهلكون ويهلك المسلمون بسببكم، وربما تغلب العدو الكافر على الإسلام بسبب ما يقع بينكم من الاختلاف وعدم الالتئام... وهذه وصيتي إليكم وإلى خليفتي فيكم... اعينوا الضعيف وارعوا حق المظلوم واجتنبوا الجور وأهله، وحسنوا الظن، وقوموا بالحق في الرعية، وتفقدوا أحوالهم، ولا تولوا عليهم من يسيء السيرة فيهم... وازيدكم بأن من ولاه الله يجعل الشيخ والدا ، والمصاحب أخا، والصغير ولدا، ولا يجالس حاسدا، ولا يقربن فاجرا... ولا يغمضن عينيه عن ظلم ظالم ولو كان من أقرب الناس إليه، واخص أولاده وأصدقائه...» (22)

انه أسلوب قوي متين في معناه ومبناه يعتمد على الأمر والتوكيد والتنبيه إلى عواقب الأمور، الناجمة عن دواعي الاختلاف الكثيرة، التي استشعر بها وتصور وقوعها من بعده، والمغرب محاط بالأعداء من الجهات كلها برا وبحرا!!

ولكي تكون الرؤية واضحة في تدبير الشؤون العامة دعا السلطان المذكور من يتولى الأمر من بعده إلى تقريب العلماء، واستشارتهم والعمل بما يشيرون به من احكام وآراء في أمور الدين والدنيا فقال : «... وليكثر من مشاورة العلماء ومجالستهم، ومزاحمتهم فهم أهل الله الدالون عليه... ولا يدخل في مشورته أهل الدنيا فإنهم ذئاب في ثياب، يغرونه بحلاوة ألسنتهم وهم انما يجلبون النفع لأنفسهم، وعليه بالتأني في الأمور، وإياه والاسراع فإن عاقبته غير محمودة، وأن السبل لا تؤمن إلا بالعدل في الرعية... ويتخذ أمين صدق يخبره بأمر عماله، فإنه المؤاخذ بأفعالهم...» (23)

وتمضي رسالته إلى علماء فاس على هذا من الإبانة والوضوح، وسلامة العبارة واستقامتها، وكثرة التضمينات والإشارات التي اشتملت عليها، وانسجامها مع موضوع الخطاب الداعي إلى تعلم العلم ونشره بين الناس مع ما يقتضيه ذلك من بسط الأدلة والبراهين على أهمية في الحياة دينا ودنيا.

فمن كتب هذه الرسالة التي اختلفت عما وجهه إلى القواد والولاة في الصياغة والأسلوب مع أن المصدر واحد؟! ولم تكن قطعا من إنشاء محمد (حمو) بن عبد الوهاب الوزير الغساني الكاتب المشار إليه لأنها كتبت بعد وفاته بست سنوات، ومنها :

« ... وبعد فأنتم عالمون ما ورد في فضل العلم والتعليم، وما هدى الله به الأمة إلى الصراط المستقيم، وقد جعلكم الله نظاما لهذا الدين القويم... وجعل ما أنعم به عليكم غير قاصر على أنفسكم، فأجرى النفع لعامة المسلمين وخاصتهم كَبيرهم وصغيرهم ، شريفهم ومشروفهم، وصار بكم ليل الجهل نهارا، وصرتم شموسا يستضاء بها وأقمارا... من ظهر منه الجد في المطلوب والمراد، أخصصه بصلات وزيادة رفع القدر، وينال مرغوبه في كل أمر... صدر بذلك أمرنا في خامس عشر جمادى الثانية، عام خمسة وعشرين واحدى عشرة مائة (13 هـ / 17 م)... » (24)

فالركاكة الواردة في رسائل هذا السلطان إلى ولده المامون لم تكن عامة في النثر الديواني كما ذهب إلى ذلك الأستاذ محمد بن الحسن الحجوي، فأسلوب الوصية السابقة والرسالة الموجهة لعلماء فاس، يؤكد خلاف ما ذهب إليه ذلك الباحث، ويتأكد أيضا مما قاله على مصباح الزرويلي عن الوزارة ودورها في تسيير الشؤون العامة، وذلك في سياق حديثه عما مدح به صاحبه الوزير اليحمدي فجاء أسلوبه في ذلك الحديث قويا واضحا بعيدا عن الصنعة الأدبية مع امتلاكه لناصيتها، ولكنه راعى ما يناسب الموضوع في معناه ومبناه فقال: « ... واعلم أن الملوك والخلفاء قديما وحديثا مفتقرون أبدا إلى اتخاذ الوزراء والكتاب ليصلحوا بهم شؤونهم، ويدبروا بهم أمورهم، ويقيموا بهم أركان الملك، ويعلموهم طرق السياسة الموصلة إلى دوام ملكهم، ويرشدوهم إلى ما خفي عليهم من مسائل العلم؛ لأن الملوك غالبا لا يكون عندهم ما يكفيهم من العلوم، لاشتغالهم عنها بأمور الرعية والجهاد وتجهيز الجيوش، والقيام بأعباء الخلافة التي بها صلاح الأمة، واستقامة الدين والدنيا... »

وانتقل بعد ذلك للحديث عن وزراء السلطان اسماعيل وكتابه الذين تألقوا في سماء الأدب والشعر، وحازوا من الثقافة أوفر نصيب، فقال: «فقد اختار لوزارته والقيام على بساطه وزراء كراما وجهابة أعلاما، أثاروا عزه وكفوه ما عزه، ونصحوا له وشكروا، وحجوا بيت نصرته واعتمروا ... فأصبحت الدنيا زهرا لا تخشى ذبولا .. » (25)

فهل مع هؤلاء أتت تلك الركاكة التي لاحظناها في الرسائل والظهائرالإسماعيلية؟ وهم فوق هذا وذاك- كما لاحظ الأستاذ الحجوي نفسه، كانوا محط عناية الوزير اليحمدي، يعلمهم طرق الكتابة، ويتعهدهم بالنصح والتوجيه، ليعيد بهم مستوى الكتابة إلى عهدها الزاهر في الأندلس، «وقد طالت مدة وزارته الأولى والثانية نحو عشرين سنة، تمكن فيها من نفخ روح جديدة في الأدب والكتابة، ونقيع، الأسلوب الكتابي أحسن تنقيخ ودرب الكتاب على خطته الحسنة، التي أحيى فيها الأسلوب العربي الفصيح، المقتبس من الأسلوب الأندلسي ومن الأساليب التي كانت للمتونة والموحدين وبني مرين والسعديين... ثم نقح مهيعه من التطويل الممل، ومن أثقال المحافظة على المحسنات البديعية، وتنويع المعنى الواحد في تراكيب شتى... وتجنب اللغات الغريبة والتراكيب الركيكة، والأسجاع المتكلفة إلا ما أتى طبيعيا من غير كلفة...» (26)

وهذا الاعتناء بتطوير النثر الأدبي عموما، والكتابة الديوانية خصوصا، لم يظهر أثره في الرسائل والظهائر الإسماعيلية، مما ساعد على إصدار أحكام عامة مطلقة، جعلت المغرب عند بعض الدارسين ضمن الدول العربية التي ضعفت فيها الأساليب الإنشائية الديوانية، فغلبت عليها الركاكة، ونزلت إلى المستوى العامي من الإسفاف والضعف، بسبب هيمنة الأتراك على هذه البلدان، واهتمامهم بلغتهم التركية دون سواها، وشيوع الجهل بين ولاة الأمور في هذه البلدان !!

وإذا كان الأمر كذلك في تلك الأقطار، فلماذا اقحم المغرب بينها وهو لم يعرف تسلط الأتراك عليه؟! نعم كانت بين ملوكه مراسلات (27) مع أتراك الجزائر دون أن تنزل إلى المستوى العامي، وإن نزلت فهي تراعي مقام أولئك، ومع هذا وذاك فهل تسمح رسالة واحدة بإصدار حكم عام، يدخل المغرب ضمن تلك الدول في ضعف الأسلوب الإنشائي الديواني خاصة؟!

فلنستمع إلى الأستاذ أنيس المقدسي الذي يقول: «... ولم تنحصر هذه الركاكة في مصر وسوريا وما إليهما من الأقطار العربية التي كانت تحت تأثير تركيا المباشر بل تعدتهما حتى إلى الأقطار النائية كما تشهد بذلك مراسلات سلطان مراكش، وإمام عمان وشريف مكة، وإليك أمثلة منها: كتاب سلطان مراكش إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر» (28)

ومن يكون سلطان مـراكش هذا؟ وفي أي زمـان هو؟ فلو لم تتم الإشـارة إلى الملك الفـرنسي المذكـور ولم يورد المؤلف الرسالة الوحيـدة التي ينى عليـها ذلك الحكم، لاختلط الأمر على الدارسين في تحديد (سلطان مراكش) هذا وتعيينه بالاسم ؟!

ومما جـاء في تلك الرسـالة :« صـدر هذا المكتـوب العلي الامـامي الكريم المرواني الخليفي الهاشمي الفاطمي الحسني، عن الأمر ألنبوي الشريف العلوي الذي دانت لطاعته الكريمة ممالكه الإسلاميـة، وانقـادت لدعوته الشريفـة الأقطار المغربيـة، وخضعت لأوامره جبابرة الملوك السودانية وأقطارها القاصيـة والدانيـة... هذا وموجبه إليكم التعريف انه لما ورد خديمكم... وأسلم كتابكم المصحوب معه لخدامنا الذين بالثغر -آسفي- بادروا بوصوله الينا في الفور، فوقفنا منه على جميع ما أودعتم فيه من تقرير المحبة وتأسيس الهدنة بين الجانبين، إلى مـا أشرتم إليـه من شأن الأسارى الفرنسـيين الذين رغبت من مـقامنا العلي تسـريحـهم فـأخـذنا في ذلك أتم الأخـذ وأكـمله، إلى أن اسـتـوفى ذلك على أحـسن وجـه وأجمله... » (28)

ولم يشر الدارس أو صـاحب المصدر (30) الذي تم منه النقل إلى تاريخ هذه الرسـالة التي تنتـهي بما ياتي : «وبه وجب الكتب إليكم (31) في سادس وعشرين من ربيع النبوي سنة أربعين وألف هجرية (1630م) هـ بلفظه» (32)

وصاحبها هو الوليد (33) بن أحـمـد المنصـور الذهبي السـعـدي، فكيف جـاز للدارس المذكور أن يصف النثر الديواني في المغرب بالركاكة والضعف وبناء على نص واحد دون أن يعرف صاحبه، ويحدد الزمن الذي عاش فيه، والسياق الفكري والسياسي الذي أحاط به؟!

ونقول له وللتاريخ إن هذه الفترة كان دوي القلم فيها يتردد مع صدى قعقعة السلاح وصليل السيوف، في معارك كلامية دارت رحاها في وقت واحد مع المعارك الحربية التي خاضهـا الأمراء السعديون الأواخر مع الدلائيين، وهولاء مع أبي حسون السملالي بإيليغ وأمراء سجلماسة (34).

والرسـالة التي اعتمدها الأستاذ أنيـس المقدسـي لم تكن من المستوى الذي ينزلها إلى الركاكة والضعف، ويحسن بنا أن نلفت انتبـاهه وانتـبـاه القارئ كذلك إلى نصوص

نثرية (35) من الفترة التي ينتمي إليها النص المذكور، لنقارن ما إذا كانت ركاكة الأسلوب سائدة في الغرب كله مثل بقية الأقطار العربية الأخرى، كما أشار إلى ذلك الدارس المذكور، أم ان فكرة التعميم اقتضت أن يدخل المغرب ضمنها، ولو أدى الأمر إلى التغاضي عن انتاجه الأدبي الذي كان مزدهرا في الدلاء، وفي ايليغ بسوس، وفي الحواضر المغربية الأخرى؟!!

فكان على الدارس أن يتحرى قبل اصدار الأحكام، وأن يقابل نصوص الفترة الواحدة مع بعضها، ويستخلص النتائج منها فإن كانت متشابهة في القوة أو الضعف حكم بما يستلزم ذلك، وإن اختلفت النتائج من جهة إلى أخرى أو في الجهة الواحدة علل سبب ذلك الاختلاف وبرره، واصدر الحكم عليه وحده دون أن يتجاوزه إلى ما يخالفه معنى ومبنى!!

وإذا كان النص الذي اعتمده الأستاذ أنيس المقديسي مؤرخا بسنة أربعين وألف للهجرة، فإننا نقابله هنا بنص من الجهة ذاتها على المستوى الجغرافي مؤرخ بتسع وثلاثين وألف للهجرة، كتبه قاضي تارودانت أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الجزولي التامنارتي(36) إلى أبي حسون السملالي الشهير ب (بودميعة) حينما استرجع تارودانت ودانت بعد مقتل الفقيه أبي زكاريا يحيى بن عبد الله بن سعيد الحاصي (37). ويعود بنا صاحب هذا النص إلى سالف عصور ازدهار الكتابة الأدبية التي اتسمت بالجودة الفنية في التعبير عن الأفكار والمعاني بأدق الألفاظ، وأحسن العبارات، وألطف الإشارات، دون افراط في التنميق حتى لا تشغل من ارسلت إليه عن فحوى الخطاب ومضمونه، وهو المقصود في الرسالة الديوانية خاصة، كما هو واضح من قول قاضي تارودانت المذكور:

«غوث الدهر وجابر كسره، وتحفة المغرب وفاديه من أسره، وجامع أمره وقامع شره وذمره (38)، ومخمد ضمار جمره، الماجد الهمام، وظل الأمن الوارف على الأنام، سيدنا أبو الحسن بن السيد المبرور... أسوتنا ووسيلتنا وشيخ شيوخنا أبو العباس بن موسى... سلام على مكانتكم المكينة، ورحمة الله وبركاته تحفان مقامكم العلي بالوقار والسكينة.. وقد تلقى أهل الحاضرة وسائر من يعتبر من أهل البوادي وهذه الجبال، هذا الفتح الميمون بالبشائر، وأذاعوه في الأهلين والعشائر، وعدوه غبطة لا توازى، ونعمة من الله لا تجازى، واطمأنت نفوسهم وزال عنهم به بؤسهم... » (39)

وتمضي الرسالة هكذا في المحافظة على الازدواج والتوازن بين أجزاء الجمل، مع مراعاة الاتحاد والتماثل في الفواصل التي تنتهي بحرف واحد أو بأحرف عدة، مراعاة للجرس الموسيقي للكلمات والجمل التي تتناغم رناتها مع ما تحمله من معان ودلالات، تجعل النفس تهتز استجابة لايقاعها، ولحنها وجمال صوتها كما هو واضح في: (جابر وفادي وجامع وقامع) وهي أجزاء الفواصل التي تحافظ على الوزن والسجع معا، المتمثل في (كسره وأسره، وأمره وذمره) و(مكانتكم ومقامكم وجنابكم) و (المكينة والسكينة) و (حوزتكم وشيعتكم) و(البشائر والعشائر).. وغيرها من الأجزاء والفواصل التي تحدث ايقاعا في السمع والنفس معا...

والأديب الناثر لا يكون بهذه الصفة إلا إذا حافظ على المقومات الجمالية لذلك النوع من النثر، الذي يجعل المتعة الفنية فيه متنوعة، يسعى الأدباء في تحقيقها والمحافظة على وسائلها وأدواتها على اختلاف الأزمنة والعصور... وصناعة الكلام ككل صناعة لها معاييرها وأربابها، لهذا كان الازدواج والسجع احدى تلك السمات فيه، وهي التي قال عنها أبو هلال العسكري : « لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج... » (40)

والنثر الأدبي في هذه الفترة ظل محافظا على هذه الأسس الجمالية في التعبير عما يجد مع الزمان من أحداث وتقلبات، وتلوينها بما يضفيه الكلام عليها من صور وظلال خاصة، تؤرخ للفن وحركة الإنسان معا، وتعرب عن مستواه وطريقة تفكيره، وتجاوبه مع مشاغله الخاصة والعامة...

وإذا كانت النصوص الإبداعية قد تحدثت بنفسها عن جودتها الأدبية معنى وصياغة، فإن نصوصا نقدية تناولتها، وأشارت إلى المعين الأدبي الذي استقى منه اصحابها مادتها اللغوية، وغنى الحس الأدبي والجمالي فيهم... وعن هذه المستويات اللغوية والفكرية والفنية يقول الأستاذ محمد المختار السوسي، رحمه الله، في سياق تناوله لتلك النصوص النثرية :

«نلاحظ فيما بين أيدينا من عدة مراسلات بين المتنازعين إذ ذاك، ان عقلية من كانوا يتطاولون ببروزهم حينئذ يعتمدون على المراشقة بالأقلام مثل ما يعتمدون على المناضلة بالسهام والمبارزة بالحسام، فهناك المراسلة بين يحيى وبودميعة المارة قريبا والأخرى

بين بودميعة والمولى محمد بن الشريف.... وهناك المراسلة بين زيدان ويحيى، وهناك اخريات بين بودميعة والدلائيين ... إن هذه المراسلات التي يتخذها الرؤساء بينهم محاجة ومقارعة أو مفاخرة -وهي ماهي من الصناعة البيانية إذ ذاك، وقد أفرغ من حررها الجهود- لتدل على عقلية تميل إلى الإقناع والاقتناع، قبل أن يكون اعتمادها على رؤوس الحراب يوم القراع، وقد كنا نعهد مثل هذا في العصر الأموي، ثم العصر العباسي الأول... وذلك أيضا دال على أن صناعة الإنسشاء مزدهرة يتخذها البارزون مفخرة يتحلون بها امام اقرانهم ... » (41)

وإذا كان الوضوح والإقناع هما الصفتان الغالبتان على هذا الأسلوب مع ما يتخلله من اسجاع غير متكلفة، فإنه يصل في رسائل اليوسي إلى درجة عالية من القوة في المعاني والمباني، ويتحرر اسلوبه تبعا لشخصية صاحبه من قيود صنعة الكتابة، فيقل الازدواج والسجع ولا يلاحظ إلا في مطابع، الرسائل أو فيما هو موجه إلى العلماء والشيوخ، (42) وحينما يدخل إلى صميم الموضوع يندفع مع قوة الفكر التي تستدعي ما يناسبها من اللغة فتأتيه متدافعة متزاحمة لا يحتاج معها إلى صنعة أو زخرفة أو سجع يقابل بها هذه الفاصلة أو تلك، وشغله الشاغل في ذلك هو التعبير ببساطة وعفوية عما يعالجه من افكار ومسائل، مراعيا في كل هذا وذاك مستويات القراء فيتعمق في الأفكار والاستدلال عليها، ويختار أجمل الألفاظ وأيسرها للتعبير عنها...

وقد ترك اليوسي أثره في كل من تتلمذ عليه وعلى شيوخ الزاوية الدلائية وأبنائها وقد كان علي مصباح الزرويلي كثيرا ما ينوه باليوسي شيخ شيوخه. وبمحمد بن أحمد المسناوي (43) الذي اعتبره عمدته الأساسية في اكتساب الصناعة الأدبية شعرا ونثرا، وتأثره به في الميل إلى اتجاه الطبع والسلاسة والجزالة والوضوح والعمل على ترجمة ما بداخل النفس من أحاسيس في الفاظ عذبة المذاق سهلة المخارج... وقد استمعنا إلى نماذج من رسائله وخاصة حديثه عن الوزارة واشادته بالوزير اليحمدي ...

(يتبع)

هوامش :

1 - تلخيص لفصول الباب الثالث من أطروحة صاحب البحث المرصود لدراسة الخصائص الفنية للنثر الأدبي في المغرب.

2 - ومنهم أبو عبد الله محمد بين عيسى ومحمد بن عمر الشاوي، ومحمد بن علي الوجدي... وغيرهم انظر (نزهة الحادي لليفرني ص 251 -256 تحقيق الدكتور عبد اللطيف الشادلي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء 1998وروضة الآس لأحمد المقري. وشعر عبد العزيز الفشتالي بنجاة المريني ص 68-74)

3 - نزهة الحادي ص 252 والفشتالي توفي سنة 1032هـ/ 1622م.

4 - أحد رجال العلم والحكم في زمانه، اسندت إليه سفارة المغرب بالجزائر في عهد الحماية، له عدة مؤلفات منها (الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي) (ت : 1376هـ/ 1956) انظر (الأعلام للزركلي 96/6 ط 1984/6

5 - تطور الأسلوب الكتابي في المغرب الأقصى مخطوطة خ.ع بالرباط رقم /195ح ورقة 41

6 - نفسه ورقة 41-42

7 - هو محمد بن الحسن وزير السلطان اسماعيل من قبيلة بني يحمد المجاورة لجبال غمارة وتطوان، كان قيما على الخزانة السلطانية بمكناس، من شيوخه عبد القادر الفاسي وابنه محمد (ت :1132 هـ/ 1719م) انظر مقدمة سنا المهتدي لعلي مصباح الزرويلي (خ) والإتحاف 106/4 والإعلام لابن ابراهيم 2 / 369)

8 -كاتب الدولة الرشيدية والإسماعيلية. كان عالما فقيها أديبا ثقة (ت : 1098هـ/ 1686م) انظر (التقاط الدرر ونشر المثاني لمحمد بن الطيب القادري حوادث السنة المذكورة)

9 - من أهل مكناسة كان له المام كبير بالحساب والتاريخ، وكان مستشار السلطان اسماعيل، قتله احمد الذهبي صلبا سنة 1139هـ1726/ م انظر (الإتحاف 4 / 100)

10 - انظر عن هؤلاء الوزراء والكتاب كذلك (المنزع اللطيف في مفاخر المولى اسماعيل ابن الشريف) لعبد الرحمن بن زيدان ص 233 نشر عبد الهادي التازي مطبعة إديال البيضاء 1993

11 - تطور الأسلوب الكتابي في المغرب الأقصى ورقة 42

12 - داء العطب قديم للسلطان عبد الحفيظ مخط خ.ح رقم 11400 ز، ورقة 36 .

13 -كلمة عامية تعني (رسالتك)

14 - في الرسائل المطبوعة بعناية الأستاذ عبد الوهاب بن منصور (يفقه)

15 - في الرسائل المطبوعة (السياسة والرياضة)
16-إلى ولدي المامون ص 53 المطبعة الملكية 1967 وداء العطب قديم ورقة 213
17 - المعسول 187/18
18 - نفسه 243/20
19-نشر المثاني ضمن ترجمة الكاتب في حوادث 1119 هـ / 1707م وتنظر ترجمة هذا الكاتب كذلك في (الاتحاف 61/4 وتاريخ تطوان 103/3)
20 - الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية للدكتور محمد الأخضرص 157-158 دار الرشاد البيضاء 1977
21-وقد أصبحوا تابعين للحكام الفرنسيين بعد استعمار المغرب بالنسبة لمن لم يعزل منهم ..
22 - المنزع اللطيف للشيخ عبد الرحمن بن زيدان ص 54-55
23 - نفسه ص 55
24 - الدر المنتخب المستحسن في بعض مآثر امير المومنين مولانا الحسن، لأحمد بن الحاج السلمي مخط خ.ح رقم 12184 ز، ج 7 ورقة 297-298 ، والمنزع اللطيف ص 104-106 وينظر بعد هذا الخطاب جواب علماء فاس عنه.
25-سنا المهتدي إلى مفاخر الوزير اليحمدي لعلي مصباح الزرويلي مخط خ.ح 11095 ز، لوحة 145 والمنزع اللطيف ص 234-235.
26 - تطور الأسلوب الكتابي في المغرب الأقصى ورقة 44-45
27 - الاستقصا للشيخ أحمد بن خالد الناصري 22/7-27 دار الكتاب البيضاء 1956
28 - تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي ص 232 دار العلم للملايين بيروت 1979 ط 6
29 - نفسه ص 232-233
30 - هو كتاب (الأنيس المفيد) لدي ساسي ص 413 باريس 1214هـ /1799م المثبت ضمن مصادر المؤلف ومراجعه .
31 - هنا يقف الأستاذ أنيس المقدسي أو المصدر الذي تم منه النقل .
32 - داء العطب قديم ورقة 71-73
33 -لم يتجاوز سلطانه مراكش وأعمالها قتل اخاه اسماعيل، واثانين من أبناء أخيه عبد الملك وسبعة من بني عمه وقتل هو أيضا على أيدي بعض العلوج حين تأخر عن اعطاء رواتبهم... وذلك (سنة 1045هـ/ 1635 م) انظر (نزهة الحادي ص354 والاستقصا 78/6 ، 82-83)
34 - للتوسع في هذا المجال ينظر المبحث الأول من مقدمة أطروحة صاحب هذا البحث (النثر الأدبي في المغرب...)
35 - انظر على سبيل المثال : (إيليغ قديما وحديثا) للأستاذ محمد المختار السوسي ص

70 وما بعدها المطبعة الملكية الرباط 1966

36- عالم سوس وفقيهها وأديبها وشاعرها في زمانه، تولى القضاء والأفتاء بتارودانت، من مؤلفاته الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة) و «ديوان شعر..) (ت : 1060هـ/ 1650 م) انظر مصادر ترجمة في (الأعلام للزركلي 332/3)

37- قتل بتارودانت عام 1035هـ/ 1625 ، له مشاركة عامة في الفقه والحديث والنحو والتصوف، من شيوخه بفاس المنجور وغيره انظر (نزهة الحادي ص 309)

38 - الذمر والذمار بالذال المعجمة : الحرب وكل ما يلزم الإنسان الدفاع عنه (اللسان -ذمر)

39 - ايليغ قديما وحديثا ص 71

40- كتاب الصناعتين ص 285 تحقيق مفيد فميحة دار الكتب العلمية بيروت 1981

41 - ايليغ قديما وحديثا ص 81-82

42 - انظر مطلع رسالته إلى الشيخ أبي العباس أحمد بن ابراهيم العطار في ابطال مبدأ التسلسل غير المتناهي الذي يومن به بعض الفلاسفة، ويدعون فيه إن دورات الأفلاك حوادث لا أول لها. رسائله 486/2 تحقيق د .فاطمة خليل القبلي دار الثقافة البيضاء 1981

43 - عالم فاس ومفتيها في زمانه، كان لا يخرج أمر منها إلا بإذنه، من شيوخه عبد القادر الفاسي والحسن اليوسي وعبد الملك التجموعتي (ت : 1136 هـ/ 1723 م) انظر (نشر المثاني حوادث السنة المذكورة، وسلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني 44/3 - 47ط هجربة 1316هـ/ 1898م).

أبو القاسم السهيلي
مكانته العلمية وآثاره

ذ محمد السباعي
كلية الآداب - مكناس

ملخص :

حاولت في هذا المقال أن أبين المكانة العلمية لشخصية أندلسيةلم تنل حقها من الدراسة والتحليل، ويتعلق الأمر بأبي القاسم السهيلي، وقد وقفت عند نسبه فحققته من خلال المصادر التي عرفت به، كما وقفت على شيوخه وتلاميذه وبعض آثاره ... »

نسبه :

هو عبد الرحمان بن عبد الله (1) بن أحمد بن أبي الحسن بن أصبغ ين حسين (2) بن سعدون بن رضوان بن فتوح الخثعمي السهيلي المالقي الأندلسي يكنى أبا القاسم وأبا زيد وأبا الحسن (3) والكنية الأولى "أبو القاسم " هي التي اشتهر بها وأغلب المصادر التي ترجمت له تذكره بها، وقد جمع الكنى الثلاث ابن الأبار في التكملة ولسان الدين ابن الخطيب في الإحاطة وابن مكتوم في التلخيص (4) .

والخثعمي نسبة إلى خثعم، وخثعم اسم جبل، فمن نزله فهم خثعميون وخثعم اسم قبيلة أيضا، وهو خثعم بن أنمار من اليمن، ويقال هم من معد صاروا باليمن وقيل : خثعم اسم جمل، سمي به خثعم، والخثعمة : تلطخ الجسد بالدم وقيل : به سميت هذه القبيلة لأنهم نحروا بعيرا فتلطخوا وتحالفوا (5).

وتتفق معظم المصادر على أن السهيلي كف بصره وهو ابن سبع عشرة سنة وهذه الإصابة في بصره لم يذكرها تلميذه ابن دحية، ونشأته كانت بمالقة وعنها قال هذا الأخير: "نشأ بمالقة وبها تعرف، وفي أكنافها تصرف حتى بزغت في البلاغة شمسه ونزعت إلى مطامح الهمم نفسه (6) .

وعن مولده يقول أيضا: "وسألته عن مولده فأخبرني أنه ولد سنة ثمان وخمس مئة" (7) وقال ابن الخطيب " عام سبعة أو ثمان وخمسمائة" (8).

وقد أغفلت كثير من المصادر ذكر سنة مولده ووفاته كالقفطي في أنباه الرواة، واكتفى بقوله "وكان قريبا من زماننا، فانه كان حيا بالأندلس سنة تسع وخمسمائة" (9) وتتفق بعض المصادر المتوفرة لدينا على أنه توفي بمراكش فجر ليلة الخامس والعشرين من شعبان سنةإخدى وثمانين وخمسمائة (10).

شيوخه:

أما شيوخه فهم كثيرون، فبمالقة قرأ القرآن العظيم وشيئا من العربية، وبعض كتب القراءات والفقه على أعلام هذا المركز الهام من المراكز العلمية الأندلسية، ومن بينهم محمد بن سليمان المعروف بابن أخت غانم، وخال أبيه أبي الحسن بن عياش وأبي الحسن سليمان ابن الطراوة أبرز شيوخه قرأ عليه النحو، «وأكثر عنه في علوم اللسان» (11) وقال ابن الآبار "سمع منه كثيرا من كتب اللغة والآداب" (12) رحل إلى قرطبة فأخذ عن شيوخها القراءات ثم رحل إلى اشبيلية فلزم جماعة العلماء والنحاة للأخذ عنهم والسماع منهم ومن بينهم : أبو بكر بن العربي الذي أخذ عنه كثيرا من الحديث والأصول والتفسير، وأبو القاسم بن الرماك وأبو القاسم بن الأبرش فلقن عنهما فوائد في النحو، وغيرهم كثير من أعلام اشبيلية (13) وقد تنقل في بلاد الأندلس، ومن المدن التي دخلها ذكر السيوطي نقلا عن ابن الزبير مدينة غرناطة (14) وقال ابن الخطيب: "وكان كثير التأمل والمدح لأبي الحسن بن أضحى قاضيها ورئيسها وله في مدحه أشعار كثيرة" (15) وانتقل إلى العدوة، إلى حضرة مراكش يقول ابن الخطيب :"استدعي آخرا إلى التدريس بمراكش، فانتقل إليها من مالقة، محل إقرائه ومبتدأ إفادته، فأخذ بها الناس عنه، إلى حين وفاته" (16) وعن إقامته بمراكش قان ابن دحية" وكان مقامه بالحضرة نحوا من ثلاثة أعوام كلها أضغات أحلام" (17).

تلاميذه:

وعن تلاميذه قال ابن الآبار" حدث عنه جلة من شيوخنا وغيرهم" (18) وقال السيوطي "وعنه الرندي وابنا حوط الله وأبو الحسن الغافقي وخلق" (19) وذكر ابن الخطيب ما يفوق العشرين علما ومما يدل على كثرتهم قوله في نهاية ذكرهم" إلى جملة لا يحصرها

الحد" (20) ولن ننسى تلميذه أبو الخطاب ابن دحية الذي يصرح في كتاب أنه جالسه وأخذ عنه يقول: " قرأت عليه وسمعت كثيرا من أماليه التي أملاها في معاني الكتاب وأنواره، ودقائق النحو وأسراره وغوامض علم الأصول وأغواره" (21).

آثاره :

إن الجانب اللغوي هو الغالب على أبي القاسم السهيلي وكيف لا وهو من لازم أشهر نحاة الأندلس وأعني ابن الطراوة، الذي ناظر عليه تلميذه في كتاب سيبويه (22) ويشهد له تلميذه ابن دحية بمعرفته الواسعة بعلم اللغة قائلا : "وكان رحمه الله أقام للتصريف وعلل النحو برهانا، وتيم ألبابا وأذهانا، فترشف من ماء العربية أتي مزنه وتوطأ من أكنافها كل سهله وحزنه، وأفاض على الطلبة من سجله، وحلب على النحاة بخيله ورجله، وتلقى الراية باليمين وحوى الغاية بالهزيل والسمين (23) وبالإضافة إلى كونه كان نحويا ذا صيت في الأندلس فانه كان شاعرا بالرغم من أن شعره قليل لا يتعدى بعض القصائد المشهورة التي عليها غرض التوسل (24) وأهمها عينيته التي مطلعها :(على الكامل)

يامن يرى ما في الضمير ويسمع أنت المعد لكل ما يتوقع

وقد أورد منها السيوطي أبياتا وعلق عليها بقوله : "ما قرأ أحد هذه الأبيات ودعا الله تعالى عقبها بشيء إلا استجيب له" (25) وقال ابن دحية بعدما أنشده أستاذه بعض أبيات عينيته "وذكر لي أنه ما سأل الله بها حاجة إلا أعطاه إياها وكذلك من استعمل أنشادها" (26).

وله اشعار في باقي الأغراض كالغزل ومراسلة الأصدقاء والمدح، قال ابن الخطيب إن السهيلي" دخل غرناطة وكان التأميل والمدح لأبي الحسن بن أضحى قاضيها ، وله في مدحه أشعار كثيرة" (27).

وغلبة الجانب اللغوي على السهيلي لا تجعلنا ننسى الجوانب المتعددة والمتشعبة، يقول ابن الأبار ذاكرا تفرع اهتماماته وتفرع اختصاصاته : "كان عالما بالقراءات واللغات والعربية وضروب الآداب، حافظا للسير والأخبار والأنساب، أما في الحفظ والذكر والإدراك مقدما في الفهم والفطنة والذكاء، له حظ وافر من قرض الشعر والتصرف في فنون العلم، يغلب عليه علم العربية والغريب وتصدر للإقراء والتدريس وإسماع الحديث فبعد صيته وجل قدره، وكان من أجل الرواية والدراية" (28).

ولم ينشغل السهيلي عن التأليف، فخلف لنا تصانيف مفيدة أشهرها :

- التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن العزيز من الأسماء والأعلام: طبع سنة 1356-1938 بمطبعة الأنوار مصر. وقال الشيخ أبو القاسم في آخره "كان إملاتي لهذا الكتاب على مسائل سألني عن هذه الأسماء المبهمة في القرآن إملاء ما حفظته قديما وحديثا ومطالعة أو درسا في كتب التفاسير والأخبار، ومسندات الحديث والآثار، فمنه ما حفظت لفظه فأوردته كما حفظته، ومنه ما اختلفت فيه ألفاظ الرواة فلم أتتبع جميعها، ولكن لخصت المعنى متحريا للصواب في تلك الأنحاء وأضربت عن لاسناد لما رويته من ذلك مختصرا إذا كان الكتاب جوابا لسائل، وعجالة لمستفهم، لكني أحلت في أكثره على المواضع التي منها أخذت، والدواوين التي طالعت، وكذا ما أوردت فيه من الأنساب هو موجود أيضا في كتب السير وأنساب العرب المشهورة عند أهل الأدب، فلم أحتج إلى الاستشهاد على ما ذكرته بأكثر مما أوردته وأحلت عليه..." (29) وألفت مجموعة من الاستدراكات على هذا المؤلف نذكر منها "صلة الأعلام" وصنفه الإمام محمد بن علي بن الخضر الغساني المالقي المعروف بابن عسكر المتوفي سنة 636 هـ وألف أحمد بن يوسف المعروف بابن فرتون المتوفى سنة 660 هـ كتابا استدرك فيه على السهيلي وسماه" الاستدراك على التعريف والاعلام للسهيلي" (30).
- الروض الأنف والمشرع الروي في تفسير ما اشتمل عليه حديث سيرة رسول الله (ص) واحتوى (31) وهو من أجل تواليفه دل به على سعة حفظه ومتانة علمه" (32) وقد ابتدأ إملاءه في المحرم سنة تسع وستين وخمسمائة وفرغ منه في جمادى الأولى (33) منها" ويعلل السهيلي سبب تأليف كتابه قائلا : "فإني قد انتحيت في هذا الإملاء بعد استخارة ذي الطول، والاستعانة بمن له القدرة والحول- إلى إيضاح ما وقع في سيرة رسول الله التي سبق إلى تآليفها أبو بكر مجيد بن السحق المطلبي، ولخصها عبد المالك بن هشام المعافري المصري النسابة النحوي، بما بلغني علمه، ويسر لي فهمه، من لفظ غريب أو إعراب مستغلق، أو نسب عويص، أو موضع فقه ينبغي التنبيه عليه، أو خبر ناقص يوجد السبيل إلى تتمته" (34) .

وقد أقيمت مجموعة من المختصرات على هذا المؤلف الهام نذكر من بينها مختصر عز الدين بن أبي بكر المعروف بابن جماعة المتوفى سنة 819 هـ وسماه "نور الروض" وعليه

حاشية لقاضي القضاة يحيى المناوي المتوفى سنة 871 هـ، وذكر في الضوء اللامع في ترجمة محمد بن حمد الدمشقي الشافعي أنه اختصر الروض للسهيلي وسماه" زهر الرياض، كما صنف أحمد بن علوان الشهير بالمصري المتوفى بالاسكندرية سنة 787 هـ مصنفا وسماه "اقتطاف الأكف من الروض الأنف" (35).

وقد ألف السهيلي مجموعة أخرى من المصنفات نذكر من بينها :

- شرح أية الوصية
- مسألة رؤية الله تعلى ورؤية النبي (ص) في المنام
- شرح الجمل : لم يتمه
- أمالي السهيلي تحقيق محمد ابراهيم البنا، الطبعة الأولى 1390 هـ / 1970 م
- مسألة السر في عدر الرجال
- نتائج الفكر وهو مطبوع
- حلية النبيل في معارضة السبيل

وقد فقد الكثير من آثاره مع ما فقد من الثروة العلمية التي تركها سلف هذه الأمة

الهوامش:

1 - عبيد الله : في إنباه الرواة 163/2

2 -حسن : في الإحاطة 477/3

3 - با الحسين : في الإحاطة 477/3

4 - انظر هامش إنباه الرواة ج 2 /ص 163

5 - لسان العرب 166/12 ط دار صادر

6 - المطرب ، ص 230

7 - المرب ص 233

8 - الإحاطة 481/3

9 - الانباه 163/2

10 - الإحاطة 481/3 بغية الإعادة 81/2 ، المطرب ص 233 تلخيص ابن مكتوم ينظر هامش الإنباه 164/2

11 -الإحاطة 481/3

12 -التكملة 570/3

13 - المطرب، ص : 130-132

14 - بغية الوعاة : 81/2

15 - الإحاطة ج 477/3

16 - الإحاطة ج 478/3

17 - المطرب ص 233

18 - التكملة 570/3

19 - بغية الوعاة 81/2

20 - الإحاطة ج 477/3

21 - المطرب 233-234

22 - التكملة : 570/3 وهامش الإنباه 164/2

23 -المطرب ص 232

24 - انظر مقال الدكتور حسن حلاب في مجلة دراسات سميائية أدبية لسانية العدد 2 شتاء 87 ربيع 1988، تحت عنوان" هاجس الذنب في شعر أبي القاسم السهيلي دراسة موضوعية بنائية .

25 -بغية الوعاة 82/2

26 - المطرب ص 234

27 - الإحاطة 480/3

28 - التكملة 570/3

29 - الأعلام للمراكشي 76/8

30 - نفسه

31 - طبع بمطبعة الجمالية بمصر سنة 1331 هـ وطبع بدار الفكر ببيروت سنة 1409 هـ 1989 م بتقديم وتعليق وضبط طه عبد الرؤوف سعد ومعه السيرة لابن هشام المتوفى سنة 213 هـ

32 - التكملة 3/ 570

33 - الإحاطة : 3/480

34 - الروض الأنف 1 / 4-3

35 - الإعلام للمراكشي 8/81

قضايا مصطلحية

ذ.عبد الحميد العبدوني
كلية الآداب - مكناس

انتشرت مقولة "المصطلحات مفاتيح العلوم" وذاعت وصار كل من يتحدث عن المصطلح يستعيرها ليعبر بها عن خطورته ومكانته داخل النظرية والتصور والمنهج، وأصبح الناس على اختلاف ثقافاتهم وتخصصاتهم يدركون أن المصطلح هو الأساس الذي يقوم عليه البنيان، ومن دونه ليس للعلم قيمة تذكر، ومن ثمة صنفوا اللغة صنفين :

1- لغة أدبية ترتبط بالوجدان وترمي فيما ترمي إليه إلى تهذيب الذوق ودغدغة العواطف.
2- لغة علمية قوامها المصطلح، تنشد الدقة والوضوح، وتسعى إلى تبليغ رسالة معينة ترتبط بموضوع معرفي ينحصر داخل حدود معلومة، ومن شاء أن يقرأ هذه الرسالة ويستأثر بمضمونها عليه أولا أن يحصل على "المصطلحات المفاتيح" لأنه "بدونها يظل العلم مسورا بسور منيع لا يتأتى معه الولوج إليه" (1) .

وهناك من يذهب أبعد من هذا إذ يعتبر أن أي علم يخلو من نظام اصطلاحي "يفقد" سوره الجامع وحصنه المانع، فهو له كالسياج العقلي الذي يرسي حرماته راعيا إياه أن يلابس غيره وحاظرا على غيره أن يلتبس به (2) وقد أثبتت دراسة ميدانية أجريت بأروبا أن المجتمع يعجز عن فهم واستيعات كثير من النظريات والمفاهيم العلمية بسبب ضعف ترسانته المصطلحية أو نقصها (3)

حدود المصطلح :

يذهب بعض الباحثين إلى أن لفظة "مصطلح" مأخوذة من المصدر" الاصطلاح"الذي يدل لغة على التصالح " فاصطلاح قوم على ألفاظ بمعنى تصالحوا ... إن جذر اللفظة من الصلح والصلاح ضد الفساد... وقد أخذت اللفظة مجراها في الاشتقاق فاضحت الاصطلاح من "افتعال" وزنا، إذ هي تحمل في معنى وزنها تدخل الإنسان ومهارته العقلية... (4) .

وتطور مدلول الكلمة و أصبح مع مرور الزمن يدل على معنى الاتفاق يقول الشريف الجرجاني في تعريفاته عن الاصطلاح هو (5) «عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينقل عن موضعه الأول" وإخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما .

وقبل الإصطلاح : اتفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء المعنى.

وقبل الاصطلاح : إخراج الشيء من معنى لغوي إلى معنى آخر، لبيان المراد

وقبل الاصطلاح : لفظ معين بين قوم معينين" (5) ومفهوم الإتفاق هنا يعني الإلتزام بمعنى محدد لتفادي المترادفات وكثرة المشابهات ما دام المدلول واحدا لا يتغير .

فالمصطلح ليس كلمة، لأنه لو كان كذلك لاحتمل تأويلات ومعاني متعددة من جهة وضعه داخل الكلام، وموقعه في التركيب ولكن ذلك لا يعني أنه يوجد طلاق وانفصال بينهما وانعدام قرابة...، إذ على العكس نجد أواصر ووشائج الاتصال قائمة لأن المصطلح في الأصل "وحدة معجمية انتقلت من وضع الكلمة إلى وضع المصطلح بخصائص معلومة وانتقلت تبعا لذلك، من المعجم العام إلى المعجم الخاص، فإن البحث الذي يعنى أساسا بتحديد طرق وشروط بناء المصطلحات وتوحيد استعمالها بحث في المعجم (6) ، إن هذا التعريف اللساني، والتعاريف الأخرى التي سبقته ليست جامعة مانعة لأنها تركز على المصطلح باعتباره كلمة واحدة، وقد يحدث أن نصادف مفهوما محمولا في كلمتين أو جملة كاملة لأن الكلمة الواحدة لا تقدر -أحيانا- على حمل المفهوم حملا تاما أو التعبير عنه تعبيرا شاملا..، وقد انتبه إلى هذه المسألة كثير ممن بحث في المصطلح فهذا أحمد بوحسن مثلا يبالغ في التفصيل ويحرص على أن ينتقل من العام إلى الخاص كي لا يختلط الأمر في ذهن القارئ بين اللفظة والمصطلح، ننصت إليه وهو يحدد المفهوم : "يقصد بالمصطلح كلمة أو مجموعة من الكلمات تتجاوز دلالتها اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصورات فكرية وتسميتها في إطار معين، تقوى على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات معينة..

والمصطلح بهذا المعنى هو الذي يستطيع الإمساك بالعناصر الموحدة للمفهوم، والتمكن من انتظامها في قالب لفظي يمتلك قوة تجميعية وتكثيفية لما قد يبدو مشتتا في التصور.

إن التحكم في المصطلح هو في النهاية تحكم في المعرفة المراد ايصالها والقدرة على ضبط أنساق هذه المعرفة، والتمكن من إبراز العلاقة الموجودة بينهما، لا شك أن كل إخلال بهذه القدرات يخل بالقصد المنهجي والمعرفي الذي يرمي إليه مستعمل المصطلح» (7)

إن هذا التعريف لا يحصر المصطلح في كلمة واحدة، كما أنه يركز على مسألة تجاوز الدال للدلالة اللفظية والمعجمية، وتقييد وحفظ تصور معين في حدود مرسومة، والمصطلح لا يقف عند هذا المستوى بل يتجاوز ذلك إلى مستوى ضمان التماسك والانسجام للمفهوم ووقايته من الزيغان والضياع والتشتت وهو ما عبر عنه احمد بو حسن "بالإمساك بالعناصر الموحدة للمفهوم" وأشار التعريف، أيضا، إلى مسألة مهمة صارت من الانشغالات الأساس لدارسي المصطلح، وأقصد تبعية المصطلح وانتظامه داخل النسق المعرفي وهو أمر يراعيه كل مشتغل بالمصطلح.

ونجد تعريفا آخر يشابه ويشاكل تعريف أحمد بوحسن من نواح عدة استقاه محمود فهمي حجازي من مصدر غربي يقول عنه إنه أفضل تعريف وقع الإجماع عليه، وهو يركز أشد التركيز على كون المصطلح كلمة أو عبارة، مفردا أو مركبا «الكلمة الإصطلاحية أو العبارة الاصطلاحية مفهوم مفرد أو عبارة مركبة استقر معناها بالأحرى استخدامها وحدد في وضوح ، وهو تعبير خاص ضيق في دلالته المتخصصة، وواضح إلى أقصى درجة ممكنة وله ما يقابله في اللغات الأخرى ويرد دائما في سياق النظام الخاص بمصطلحات فرع محدد فيحدد بذلك وضوحه الضروري (8) وسواء كان المصطلح مفردا أو مركبا فإن أهم شرط ينبغي أن يتوافر فيه إلى جانب شروط أخرى سأذكرها فيما بعد- هو الإحاطة بالتصور إحاطة كاملة وتسييجه بشكل لا يدع فرصة لامتزاج التصورات وتداخلها، ولعل السر عند الأوربيين في إستعمالهم لكلمة Term للدلالة على المصطلح يكمن في هذا الشرط، إذ أننا إذا تصفحنا جميع المعاجم الأوربية وترصدنا معنى الكلمة " Term " سنجدها تدل على الحدود التي ترسم الزمان والمكان، وقد استقصى محمود حجازي معنى الكلمة في كثير

من اللغات الأوربية ووجدها تصب في نفس المعنى : "يطلق على المصطلح في اللغات الأوربية المختلفة كلمات تكاد تكون متفقة من حيث النطق والإملاء، وهي الكلمات : Term في الإنجليزية والهولندية والنرويجية والسويدية ولغة ويلز، Terminus أو Term في الألمانية و Termino في الإسبانية و Termo في البرتغالية Terminer في الروسية والبلغارية والرومانية والسلوفية والتشيكية والبولندية، Termi في الفنلندية، وهذه الكلمة المشتركة في اللغات الأوربية تجاوزت الإطار اللغوي القومي وعدها بعض الباحثين مثالا طيبا للعالمية في داخل الحضارة الأوربية (19).

ويزيد الدكتور محمود فهمي حجازي، موضحا هذا التعريف ومبينا" أن الكلمة تدل في الإستخدام على الحد الزمني أو المكاني أو على الشرط أو تدل الكلمة في الإستخدام المتخصص على أية كلمة أو تركيب يعبر على مفهوم أو عن فكرة، والمعنى الأساس يتلخص في التحديد من حيث الزمن أو المكان أو الشرط أو الدلالة المتخصصة" (10) .

إن التعبير عن الفكرة أو المفهوم لا يرد إعتباطا إذ لا بد من وجود صلة تكون بمثابة الجسر يربط بين المفهوم العادي المتداول، والمفهوم الجديد المتفق عليه، وبتعبير آخر "لا بد من علاقة مشابهة أو مشاركة بين المعنى الذي وضعت الكلمة للدلالة عليه في الأصل، وبين المعنى الإصطلاحي الذي يراد لهذه الكلمة : السيارة كانت تدل على القافلة أو القوم والسائرين ثم أطلقت على الآلة الحديثة المعروفة، والمشابهة أو المشاركة هي السير والطيار أو الطيارة كانت صفة للفرس الشديد الجري، ثم أطلقت على المركبة التي تسير في الفضاء مسرعة والمشابهة أو المشاركة هي سرعة الجري" (11) .

إن البعد العلمي الذي يتخذه المصطلح يتكئ على المعطى اللغوي إذ منه يستمد كثيرا من قوته الدلالية.

صنف المشتغلون في علم المصطلح المصطلحات أصنافا أربعة :

أ- مصطلحات عامة يتداولها عوام الناس بحسب مجالات أعمالهم كما هو الشأن في مصطلحات الحرفيين والصناع والموظفين والتجار والفلاحين والرياضيين والأطفال وغيرهم.

ب - مصطلحات حضارية يتداولها أفراد الأمة كالخلافة والشورى والعدل والمساواة والحرية والجهاد .

ج- مصطلحات تقنية يتم إستعمالها لتعيين ذوات ذات طابع نفسي موجودة أم مستحدثة كالهاتف والحاسوب والأقمار الإصطناعية وغيرها .

د- مصطلحات علمية ومعرفية يتداولها العلماء والباحثون بحسب مجال اختصاصهم (12).

جودة المصطلح :

لم يحظ المصطلح سابقا بما حظي به في العصر الحديث من العناية والدرس بسبب انتباه العلماء إلى أهميته داخل المنظومة العلمية باعتباره الأس الذي تنهض عليه يقول محمد رشاد الحمزاوي في هذا الصدد : "فلقد أصبح المصطلح" أميرا" ذا جلال وإكرام، فقد حظي بعناية فائقة تدل على الدور الذي يلعبه في ربط الصلة بين الأمم والشعوب، وفي نقل المعرفة والتكنولوجيا، ونشر آثار الحضارة الحديثة، فضلا عن أن من النظريات ما يقر أن التوافق بين المصطلحات أو إنعدامها في ثقافة ما، يعكس انعكاسا نسبيا كبيرا منزلة الثقافة من غيرها من الثقافات، وبالتالي من الحضارة الحديثة أو الرائدة" (13) لذلك تنافس المتنافسون، وأعدوا ما إستطاعوا من عدة لاختيار المصطلحات المناسبة، فأسسوا المعاهد والمختبرات وشجعوا الندوات والمناظرات راصدين لها من المال والجهد ما استطاعوا، لأنهم أدركوا أن جودة المصطلح تعني في النهاية جودة العلم وسموه، وتوصلوا إلى أن المصطلح الجيد ينبغي أن تتوافر فيه الشروط الآتية:

1- على المستوى العلمي والتقني :

ينظر في التسمية المختارة، إذ ينبغي أن تناسب الفكرة، وأن ترفع الإلتباس، وتحيط بالظاهرة المعبر عنها إحاطة شاملة، وتتجنب الإيحاء والغموض، وعدم الدقة .

2- على المستوى اللساني :

يؤخذ مظهران بعين الإعتبار :

- المظهر الأول : النظر في مدى احترام المصطلح للقواعد الصرفية (morphologique) والخطية (Graphique) وَالأسلوبية (Stylistique) -أيضا- للغة المستعمل فيها المصطلح
- المظهر الثاني : النظر في قدرة المصطلح على التعبير عن نفس المفهوم الذي وجد من أجله في بيئة وثقافة أخرى (14) .

إن المصطلح باعتباره يندرج في إطار التخصص ينبغي بالإضافة إلى المظاهر السابقة - أن يتجنب الإيحاء والغموض وعدم الدقة، وأن يدل على نحو مباشر ودقيق، ويبتعد عن اللغز والغموض (15) ، وأن يكون موجزا ولكن في الوقت نفسه قادرا على شحن المفهوم حتى يتيسر التواصل بين "المتخصصين، وحتى يمكننا نقل حقل معرفي معين من لغة لأخرى وحتى لا تختلط المفاهيم وتشوه الخريطة المصطلحية (16) ، لتحقق هذه الشروط لا بد أن تتضافر جهود عدة، وأن لا يعتمد المختص على علم واحد لأن ذلك لا يكفي لصياغة مصطلح علمي من الدقة بمكان، بل عليه أن يلج جميع العلوم ليستفيد منها بالقدر الذي يمكنه من ضبط آلته وشحذها، من هذه المعلوم أذكر على سبيل المثال لا الحصر اللسانيات وعلوم الشريعة والتاريخ والانتروبولوجيا،، والمناهج بمختلف أنواعها وفروعها ، لأن المصطلح نشأ وتربى في كنف منهج معين ويرتبط به أيما ارتباط ثم الفلسفة لأن كثيرا من المصطلحات خرجت من رحم الفلسفة وتربت في أحضانها .

دور السياق في توضيح المصطلح :

من الأمور التي تعترض الباحث الناشئ، بل حتى المتمرس -أحيانا- صعوبة استيعاب المصطلح والعجز عن إدراك محتواه لعيب فيه من جهة البناء أو الاستخدام، فمن ناحية البناء يمكن أن يصاغ صياغة فاسدة، وكنت لمحت إلى ضرورة مراعاة البنية الصرفية للمصطلح لما لها من علاقة بالمفهوم، أو لعدم توظيفه التوظيف المناسب، وأحيانا لعدم قدرة الدارس على تمثله التمثل الصحيح بسبب ضعف تكوينه المعرفي، في هذه الحالة يبقى السياق وحده قادرا على نفس ما علق به من غموض، وإزالة ما فيه من ابهام قد يقول قال: "إذا كانت الكلمة في اللغة تتسم بتعدد الدلالة التي لا تثبت إلا بالسياق فإن للمصطلح دلالاته التي لا يخرج عنها في إطار العلم الذي ينتمي إليه، وإذا كانت الكلمة تفتقر إلى السياق لكي تكتسب معناها فإن معنى المصطلح قائم فيه متصل اتصالا وثيقا بالتصور الذي هو خلاصة النظرة العلمية الواعية العارفة وإذا كانت الكلمة يعرض لها في اللغة العامة أن تكون ملتبسة وغير دقيقة فإن شرط المصطلح أن يكون واضحا ودقيقا ويتحقق له شرط اكتمال هويته بتحقق وضوحه ودقته" (17) .

أقول: نعم إن الإلتباس يتعلق باللغة الأدبية لأن الأثر الأدبي" ينطوي دائما على شيء استشهادي، والالتباس فيه خالص تماما، إن الأثر الأدبي، هو دائما، في وضعية تنبؤية" (18) ورغم كل ذلك فإن للسياق دورا مهما في تحديد المفهوم، ومن دونه أحيانا لا

نصل إلى كنه المصطلح وللتمثيل يمكن أن نعود إلى بعض مصنفاتنا النقدية لنقف على الظاهرة عن قرب وندرك مقدار الصعوبة التي كان يجدها المتلقي في التمييز بين المصطلحات لدلالتها على معاني مختلفة بأسماء متعددة فهذا الزمخشري في كشافه حين يطلق "لفظ" المجاز "لا يعني أنه يدل عليه فقط، بل يدل أيضا على"الاستعارة" أو "التمثيل" في سياق محدد، وإطلاقه "البلاغة" قد يدل على معناها الاصطلاحي المعروف كما يدل على معنى "الفصاحة" أو "صياغة الكلام" و "الإبهام" قد يدل على "إخفاء الكلام" وقد يدل على "ما هو غير واضح"إلى غير ذلك من الألفاظ التي تدل في سياق معين على معنى وتدل في سياق ثان على معنى مخالف للأول" (19)

إن هذا لا يعني أن القدماء لم يكن يعنيهم أمر المصطلح ولم يعوه الوعي الكامل، أو لم يتمثلوه القدر الذي كان ينبغي أن يتمثلوه، لأن العرب كانوا مدركين تماما خطورة المصطلح ولكن ميلهم إلى الطريقة الموسوعية في التعامل مع الظواهر فوت عليهم فرصة الدقة والضبط، وقبل أن أنتقل إلى فقرة أخرى يجدر بي أن أشير إلى أن العصر الحديث - أيضا- لا يخلو من هذه المعضلة-(إذا جاز أن نسميها معضلة) إذ يتدخل السياق في كثير من المناسبات لتوضيح المصطلح.

علم المصطلح :

في البدء أعترف أن الحيرة تنتاب الباحث وهو ينظر في الأسماء المتعددة لهذا العلم رغم أنه وضع أصلا لإمداد القارئ المتخصص والعادي بالمصطلحات الموجودة سلفا، وتوليدها عند الضرورة، ولوقايتها من الشوائب وصيانتها من الفوضى والاضطراب بالعمل على توحيدها وتعميمها بين سائر الناس .

نعم سيجد الباحث نفسه أمام مسميات عديدة لمسمى واحد هو "علم المصطلح" رغم أن أصحاب هذه التسميات موغلون في التخصص ويفترض فيهم أن يجتمعوا على اسم واحد رأفة بهذا العلم ورحمة بالقارئ، ومهما اختلفت ذرائع هؤلاء الباحثين وتباينت حججهم وأسانيدهم، ورغم ما يمكن أن يجدوا لأنفسهم من مبررات وأعذار فإن ذلك لن يقنعنا...، إنها علامة وجود أزمة مصطلحية تسربت إلى داخل الدار، وطالت المنبع نفسه، ينبغي التعجيل في تجاوزها وتصحيح ما يمكن تصحيحه .

في تونس يفرق الدكتور عبد السلام المسدي بين مصطلحي "علم المصطلح" الذي يناظره -عنده- باللفظ الفرنسي " Neologie " والمصطلحية الذي يقابله باللفظ الفرنسي " Terminologie" (20) استعمل باحث جزائري المصطلحاتية (21) ، مرادفا لعلم المصطلح، وفي مقال مترجم نشر بمجلة "اللسان العربي" اختار المترجم لفظة" المصطلحية (23) وفي مصر استعمل محمود فهمي حجازي "علم المصطلح" في أغلب دراساته.

وفي المغرب نجد المشتغلين بالمصطلح يستعملون "علم المصطلح" للدلالة على العلم الذي يسعى إلى البحث في العلاقة بين المفاهيم العلمية والألفاظ اللغوية التي تعبر عنها (23)، وهناك من يستعمل "علم المصطلحات " هكذا بصيغة الجمع (24) .

إن هذا الاختلاف صورة للاختلاف على مستوى وضع المصطلحات في الوطن العربي، الذي يستدعي تضافر الجهود والتحلي بكثير من التواضع العلمي، والإيثار المعرفي خدمة للقارئ العربي أولا وللثقافة العربية ثانيا والثقافة بشكل عام، وأول خطوة -في نظري- ينبغي البدء بها هي الاقتصار على "علم المصطلح" الذي يقابل في اللغة الفرنسية: terminologie

علم المصطلح : الإطار والمفهوم

وردت تعاريف عديدة لهذا العلم، وكلها تتفق على كونه (أي علم المصطلح) يهتم بدراسة العلاقة بين المفاهيم العلمية والمصطلحات، وفيما يأتي من القول سأحاول أن أشير إلى بعض التعاريف قبل أن أتطرق إلى زمن ظهور هذا العلم وسببه والأهداف المتوخاة منه .

هناك من يعرفه "بالدراسة النسقية للمصطلحات أو الكلمات ، أو التراكيب الخاصة من حيث تسميه مجال الشيء والمفهوم ويعنى بالمبادئ العامة والقوانين التي تحكم وضع المصطلحات والوقوف على العلاقات التي تربط المفاهيم في جميع حقول المعرفة، أنواع اللغات والعمل على توحيدها عالميا وإيجاد أرصدة لها تودع في بنوك خاصة (25)، فالدكتور الشاهد البوشيخي يرى بأنه العلم الذي يسعى إلى البحث في العلاقة بين المفاهيم العلمية والألفاظ اللغوية التي يعبر عنها (26) والدكتور محمود فهمي حجازي يعتبره مجالا

يهتم "بتناول الأسس العلمية لوضع المصطلحات لم يعد في ضوء المعايير المعاصرة يتم على أساس البحث المفرد في كل مصطلح على حدة، كما هي الحال في جهود كثيرة، فهناك معايير أساسية تنبع من علم اللغة ومن المنطق ومن نظرية المعلومات ومن التخصصات المعنية، وهذه المعايير تنمو بالتطبيق لتكون الإطار النظري، والأسس التطبيقية لعلم المصطلح (27) وبتفحص هذه التعاريف، نستخلص أنها ترجمة حرفية لتعريفات أجنبية، ورد في تعريف مصطلحي فرنسي مشهور Guyrondeau ما يلي :

علم المصطلح:

1- مجموعة مصطلحات مجال معين كالكيمياء أو تخصص (discipline) كاللسانيات نقول علم مصطلح الكيمياء علم مصطلح اللسانيات و....

2- طرق جمع وترتيب، إبتكار وتوليد، توحيد المصطلحات نشر المصطلحات.

3- علم يهدف إلى تنظيم لساني، ولكنه يقوم أساسا على تعدد الاختصاصات، إذ ينتمي للسانيات والمنطق، والانطلوجيا، وعلم التصنيف والإعلاميات (28) .

نلاحظ أن هذا التعريف يعتبر هذا النوع من الممارسة المعرفية علما كالتعريفات السابقة، ولمن يريد الدقة انبه ان هناك من يعتبره فناكدوبوك (Dubuc) الذي يرفض اعتباره علما لعدم دقة مناهجه (29) وسواء اعتبرناه علما أو فنا فإن ما ينبغي معرفته هو كونه ليس علما حديثا كما يعتقد البعض بل أنه قديم قدم الإنسان نفسه، حيث نجد عند اليونان لغات متخصصة كلغة الفلاسفة أو التجار أو المحاربين... ما هو حديث هذا الزحف الهائل لهذه العلوم منذ التلاثينيات والذي يتقدم بسرعة هائلة ويتصاعد مستمر (30) وقد ساعد على هذا الازدهار، الاقتناع الحاصل بأنه لا تقدم من دون تقدم لساني ولا تقدم لساني من دون علم المصطلح كل شيء هنا يرتبط بالوظائف الأساس للغة واللغات في طبيعة حياتنا الشخصية والجماعية (31)، إن إستراتيجية التقدم يجب أن تكون شاملة، وتحتوي مشروع تهيئة لسانية إذا أرادت اللغات الوطنية باسم الهوية الثقافية عدم الخضوع لسنة التحول الاجتماعي والاقتصادي فإنها ستكون مهددة بالسقوط في الفلكورية، وتصبح لغة ثانية بالنظر إلى اللغات الأوربية (32) .

إن تقدم العلم وازدهار التكنولوجيا والتطور المهول للعلاقات السياسية الدولية (Unesco) (Otan) (ONU) كلها عوامل ساهمت بشكل أو بآخر في التفكير في تطوير

علم المصطلح، وجعله قادرا على استيعاب هذه التحولات السريعة، إضافة إلى توسيع التجارة الدولية وازدهارها في هذا العصر الذي طغى فيه مفهوم العولمة وانمحت فيه الحدود وذابت، وتداخلت المفاهيم وتشابكت وصارت واحدة في جميع بقاع العالم الأمر الذي جعل الدول لا تبقى مكتوفة الأيدي أمام هذا الجديد بل سارعت إلى التدخل بشكل مباشر في مسائل النظام اللساني، إذ أدركت أن التواصل بين المتخصصين في مختلف فروع المعرفة لن يتم إذا لم تتوحد المصطلحات، كما أن تناسل المعارف وتوالدها المستمر، وبروز تخصصات صغيرة داخل تخصصات معروفة استدعى توليد مصطلحات جديدة وتطلب في الوقت نفسه وجود علم يسهر على هذه المصطلحات، علم يميز بين المظهر اللساني للكلمة ومظهرها الفلسفي، مظهرها اللساني يتجلى في كونها أولا وقبل كل شيء وقائع لغوية، ولكل وحدة لغوية خصائصها الخاصة من حيث التركيب ويمكن أن تصل مستوى من التعقيد لا يستطيع فكه غير المتضلعين في اللغة، وللوحدة المعجمية أيضا علاقة بالسيميائيات لأن المصطلحات في الأصل علامات حيث تأثير الدال على المدلول يبقى واضحا، أما المظهر الفلسفي فيتجلى في توسل علم المصطلح بعلم المنطق والانطلوجيا كما أشار على ذلك (Wûster) خاصة (1974-1979) لأن المصطلح يحمل فكرة تقابل جواهر (entités) ملموسة أو مجردة نعتبرها أولا في وجودها ونقوم بعد ذلك بإيجاد شكلها المناسب (33) .

إن الهدف من علم المصطلح قد يختلف من فرد إلى آخر أو من جماعة إلى أخرى، فعند البعض يؤخذ مطية لخدمة الترجمة وضمان نجاحها وعند البعض الآخر هو الحامي والحارس الأمين للغة اليومية من اللغات الأجنبية في وقت صار فيه العالم قرية صغيرة وأصبحنا نجد لغات عديدة تتنافس السيادة في البلد الواحد بفضل وسائل الاتصال العديدة والمختلفة، وعلم المصطلح لا يتخذ وسيلة للذوذ عن الحمى ودفع الخطر المحدق باللغة فقط بل قد يصلح لنشر اللغة القومية في جميع بقاع العالم، ورغم أن المشتغلين بعلم المصطلح يتجاذبهم موقفان متباينان.

"أولهما يعتبر موضوع علم المصطلحات مقتصرا على جمع المعطيات الإصطلاحية ومعالجتها وتوحيدها عند الاقتضاء (الاتجاه الانجيزي الفرنكفوني) وثانيهما يعتبر أن موضوعه يشمل دراسة نسقية المفاهيم إلى جانب معالجة المصطلحات وتقييسها (الاتجاه الروسي)

فإن هذا الإختلاف لا يؤثر على تطور العلم بل على العكس من ذلك يشجع الناس على الإقبال عليه وإنشاء المؤسسات والمعاهد المصطلحية وظهور بنوك المصطلحات خير دليل على حصول هذا العلم على جزء غير يسير من هواجس واهتمامات الإنسان المعاصر، ومن بين البنوك المصطلحية المؤسسة حاليا يمكن أن نذكر :

-بنك المصطلحات في مجال الترجمة أوتاوا (Otawa)

- توماتيرم بباريس Normaterm
- تيرمنيوم Terminium
- بنك المصطلحات التابع لشركة Seimens
- يوريديكاتوم بلوك سومبورغ Enridicotom
- باسم بالمملكة العربية السعودية .
- مكتر الشركة العربية للالكترونيات بالقاهرة
- المعربي بمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب .

"إن مهمة هذه البنوك لا تنحصر في مجرد التخزين أو الاستشارة فحسب بل لها وظيفة تتحدد في استخدام أو معالجة وتدبر معجم أو معاجم ممعلمة .

وقد تأسست هذه البنوك في كثير من البلدان وأغلبها كان يهتم بموضوع المصطلحات منذ أواخر الستينات وبداية السبعينات (35) ثم إن فكرة إنشاء هذه البنوك لم تنشأ من فراغ بل جاءت وليدة مجموعة من اللقاءات والندوات التي عقدتها المؤسسات التابعة لها، ومن بين أهدافها بالإضافة إلى الأهداف المذكورة "نجد" : مساعدة المترجمين في عملهم وذلك من خلال تزويدهم بالمقابلات المطلوبة في لغة الهدف (أو اللغة المترجم إليها) بسرعة ودقة مع جميع المعلومات اللازمة عنها .

2- تنسيق المصطلحات وتقييسها وتوحيدها بما يتطلب ذلك من تجميع للمصطلحات على اختلاف درجة صلاحيتها ودراستها .

توثيق المصطلحات ليتيسر الاطلاع عليها واسترجاعها ونشرها (36) ، وفيما يأتي سأحاول أن أشرح الغرض من التقييس والتوحيد لأنتقل بعد ذلك إلى إبراز دور التوثيق في خدمة المصطلح .

تطور مفهوم التقييس منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حين ازدهرت التجارة مما استوجب التفكير في منهج جديد لتسمية وضبط وتوحيد آلاف الأسماء (37)

وهكذا تأسست المنظمة الدولية لتقييس (إيزو) Iso " يعرف جالنسكي (Galenski) وهو من بين العاملين في اللجنة المذكورة في المركز الدولي للمعلومات (انفروتيم)، التقييس في المجالين اللساني والمصطلحي بأنه (اعتماد قواعد محددة في اختيار المصطلحات ووصفها وترجمتها سواء في لغة الصناعة أو في أي حقل آخر، وإعتماد هذه القواعد المحددة في توحيد مبادئ المصطلحية ومناهجها (38) ويهدف التقييس فيما يهدف إليه إلى تخضيص المفاهيم وضبط مسمياتها وتوحيد أنظمتها والقضاء على الاشتراك اللفظي، والترادف وتوليد مصطلحات جديدة عندما تدعو الضرورة إلى ذلك ويهدف في نظر جان ساجر J) (Sayer إلى الإقتصاد في اللغة وضمان دقة التعبير وملاءمته للفكرة أو المفهوم " (39)

أما فيما يتعلق بالنقطة الثانية والتي تخص توثيق المصطلح فإن دور عالم المصطلح يتجلى في النظر في التسمية للتأكد من عدم مخالفتها للقواعد المعجمية معتمدا المعارف اللسانية، وفي حال عدم وجود التسمية أصلا فإنه (أي عالم المصطلح) يتوسل بطرق التوليد المعروفة التي يراها مناسبة، وفي كل الحالات لابد لعالم المصطلح الذي يرغب في الدقة، ويتفادى الوقوع في الاشتراك والترادف أو الغموض لا بد له أن يستشير المختص لأنه وحده يستطيع تأكيد المراحل المتبعة (40) .

وبالإضافة إلى ذلك ينبغي الاستعانة بالوثائق اللازمة المساعدة والتي ينبغي أن تتوافر فيها الشروط الآتية :

- دراسة المصطلح في شموليته وعدم الاقتصار على جانب واحد من جوانبه لأن من شأن ذلك أن يوقعه في الإبهام والغموض .
- ضرورة إعطاء نموذج لجميع الأشكال اللسانية الموجودة ويلزم أن تكون الوثائق ذات مصداقية وأن يكون المتخصصون المستجوبون على دراية كاملة جميعا بتخصصهم كما أنه ينبغي على عالم المصطلح أن يلتزم الحياد أثناء الدرس وأن لا يعرض ملفا ينسجم مع تصوراته واقتراحاته... إن المصادر التي تعتمدها بنوك المصطلحات كثيرة وكثيرة في الوقت الحاضر تتألف من المعاجم العامة والمعاجم المتخصصة أحادية اللغة كانت أو ثنائيتها - بحسب الحاجة- ومسارد المصطلحات التي توضع في خواتم الكتب العلمية والتقنية وقوائم المصطلحات التي تعدها المجامع اللغوية والمؤسسات اللسانية والجامعات والمعاهد المتخصصة (41).

كنت قد أشرت في بداية هذا المبحث إلى الاختلاف الحاصل في التسمية وقلت إن هناك من يسميه علم المصطلح وهناك من اختار المصطلحية أو المصطلحاتية، وغيرها من الأسماء الكثيرة التي تضر هذا العلم أكثر مما تخدمه، وبقي أن أشير إلى أن المتخصصين في هذا الميدان دأبوا على تقسيمه قسمين كبيرين.

علم المصطلح العام وعلم المصطلح الخاص .

يهتم علم المصطلح العام بطبيعة المفاهيم وخصائصها وعلاقاتها، ونظمها ووضعها ومكوناتها، وعلاماتها ورموزها، وإمكانية توحيدها، وتدوينها، ومعجمات المصطلحات، والمداخل الفكرية، ومداخل الكلمات ، وتتابع المداخل، وتوسيع المداخل ومناهج وإعداد معجمات المصطلحات وكل ما يرتبط بلغة مفردة أو بموضوع بعينه (42). أما علم المصطلح الخاص فيتضمن القواعد الخاصة بالمصطلحات في لغة مفردة مثل اللغة العربية، أو اللغة الفرنسية أو اللغة الالمانية (43)، ويصف أيضا المبادئ التي تحكم وضعها في حقول المعرفة، المتخصصة كالكيمياء والأحياء والطب (44) وللتوضيح أكثر أشير إلى أن علم المصطلح الخاص هو الذي ورد كثيرا بلفظه "المصطلحية" التي تقابل المصطلح الفرنسي (Termirographie) والذي يعني بالضبط التخصص في صناعة القواميس المصطلحية "إنه الجانب التطبيقي المعني بقوائم المصطلحات ومعاجمها المتخصصة، ووحداتها المصطلحية، وضعا، واستقراء، ووصفا وكان علم المصطلح هو الأساس المنظر للمصطلحية، ومؤسس قوانينها ومبادئها (45) وإلى جانب علم المصطلح نجد علما آخر يسير بموازاة معه يجاوره ويمتح منه فهما صنوان لا يقوم الثاني إلا إذا وجد الأول، إنه العلم الذي يهتم بالكلمة قبل أن ينتقل مدلولها إلى المستوى الثاني أي حين تكون عامة منفتحة قابلة للقراءة والتأويل وغير خاضعة لسلطة المفهوم باختصار حين تكون كلمة وقبل أن تصير مصطلحا، إنه علم المعجم .

الهوامش :

1 -سعيد السريحي - علامات (في النقد) سلطان المصطلح - سلطة المعرفة وتكريس اللوغوس- ج 30 م 8، شعبان 1419 - دجنبر 1998 م ص : 133

2 - عبد السلام المسدي ، قاموس اللسانيات - الدار البيضاء للكتاب ص : 11

3- Hans-R- Fluch.Fash prachen نقلا عن محمود فهي حجازي الأسس اللغويةصطلح - مكتبة غريب القاهرة (ب -ت) ص : 37

4 - رفيق العجم : أبعاد المصطلح الفلسفي العربي، الفكر العربي المعاصر يناير فبراير 1988 ص 59-60

5 - الشريف الجرجاني -التعريفات - تحقيق إبراهيم الابياري، دار الكتاب العربي، ص 44-45

6 - عز الدين البوشيخي ، عن المصطلح والمفهوم وأشكال التعالق بينهما، قضية التعريف في الدراسة المصطلحية الحديثة، منشورات كلية الآداب وجدة . سلسلةدراسات ومناظرات ،2 ص 28

7 - أحمد بوحسن، المصطلح ونقد النقد العربي الحديث - الفكر العربي املعاصر يناير فبراير ع 25 1989 ص 84

8- نقله محمود فهمي حجازي عن Th. Le Wendowski; Linguistishes, Woterbuel Heidel-berg 1979.3.799.801

الأسس اللغوية لعلم المصطلح م س 11 - 12

9 - محمود فهمي حجازي الأسس اللغوية لعلم المصطلح ص : 9-10

10 - نفسه ص : 10

11 - شحادة الخوري - دور المصطلح العلمي في الترجمة والتعريب - علامات (في النقد) ج 29 م 8 جمادى الأولى 1419 شتنبر 1992ص 181

12 - عز الدين البوشيخي م،س - ص 27

13 -محمد رشاد الحمزاوي - المنهجية العامة لوضع المصطلحات وتوحيدها وتنميطها دار الغرب الاسلامي، بيروت ط 1 - 1986 ص 12

14- Guy rondeau Introduction a la terninologie p 53

15 - محمود فهمي حجازي ، الأسس اللغوية لعلم المصطلح ص : 14

16 -حلمي هليل، اللسان العربي - ع 28 ص : 82، 1987

17 - سعيد السريحي - م م ص 132

18 -بارت، النقد والحقيقةِ ترجمة إبراهيم الخطيب ط 1 ص 85

19 - رشيد سلاوي - "المصطلح النقدي والبلاغي في تفسير (الكشاف) للزمخشري" المصباحية جامعة محمد بن عبد الله ، العدد 1 ، فاس ص 82

20 - عبد السلام ،المسدي قاموس اللسانيات
21-حلام الحيلالي، التعريف المصطلحاتي، اللسان العربي عر 42 ص : 184
22 - ج - س ، ساحر، المصطلحية والمعجم التقني، اللسان العربي ع 42 ترجمة محمد حسن عبد العزيز .
23-الشاهد البرشيخي، مجلة كلية الآداب فاس، ع 4-198
24-عبد السلام أرخصيص، إشكالات تأسيس علم المصطلحات في الثقافة العربية المعاصرة، اللسان العربي، ع 46 ص 124
25 - حلام الجيلالي، م س - ص 184
26 -الشاهد البوشيخي ، م.س .
27 - محمود فهمي حجازي ، م.س.ص : 19
28- Guy Rondeau Introduction a la termirologie p 18 quebec .E d. Gaet au Morin 1984
29 -نفسه ص 32
30 - نفسه ص 1
31 - Guy Rondeau Introduction à la termirologie p 18 quebec .E d. Gact au Morin 1984
32 - نفسه
33 - نفسه ص 10-11
34 - عبد السلام أرخصيص م، س ص 124
35-عبد الغني أبو العزم ، اللسان العربي ، ع 46 ص 34
36-علي القاسمي نحو تطوير بنوك المصطلحات أداة للبحث المصطلحي والعلمي، اللسان العربي ع 8 ص 78
37 - يرجع مفهوم التقييس في بعض أصوله إلى معنى القياس في اللغة والمنطق (Analogie) فالمصطلح من مادة (ق،ي،س) تقول قاس الشيء يقيسه قياسا قدره على مثاله، والقياس تقدير الشيء بالشيء أورد الشيء إلى نظيره، والمقياس المقدار به، وعند أهل الأصول يعرفه الشريف الجرجاني بأنه ما يمكن أن يذكر فيه ضابطه، عند وجود تلك الضابطة يوجد وهو عند اللغويين منهج وضع القواعد للاعم من وسائل البناء والتعريف والتعبير والنحو.... إلخ من أبواب اللغة، ثم اتباعها فيما لم يسمع أو لم يستعمل، فإذا سمع أمر من هذه الأمور يخالف القاعدة فهو شاذ لا يصح إتباعه إذا أخذ القياس المطلق، من حيث المبدأ قد يكون هذا التفسير مقبولا لغويا أما في البحث المصطلحي فقد تراكمت دلالاته وأصبح مفهوما تقنيا وإجرائيا يمكن اختيار معطياته حاسوبيا وإحصائيا على درجة عالية من الدقة.

اشتق المصدر (Standarization ، تقييس) والفعل (to standarise) من لفظه (Standard) التي تعني :

1 - المعيار أو القاعدة أو النمط ومن هذه الأخيرة اشتقت لفظة (تنميط) المرادفة للتقييس مقابلا للمصطلح الفرنسي (Normalisation)

2 - في حالة كونها صفة معياري (قاعدة وقياسي) تعني اللفظة الشيء أو الموضوع... الخ المتصف بصفات وخصائص نوعية تتسم بالدقة والمقبولية» /ع الرحيم سماعنة، اللسان العربي، ع 46 ص 43

38 - نفسه ص 44

39 - نفسه ص

40- Guy Rondeau Introduction a la termirologie p 100

41 - علي القاسمي، اللسان العربي، ع 28 ص 74

42 -محمود فهمي حجازي ، م.س. ص 19-20

43 - محمود فهمي حجازي ص 20

44 - علي القاسمي ، مقدمة في علم المصطلح ص 20-21 القاهرة مكتبة النهضة المصرية 1987 .

45 - "الحسين گنوان، الدراسة المصطلحية مفهوما ومنهجا» ندوة الدراسة المصطلحية فاس ج 1 ص 39

الشعر المكسيكو علو الطريقة اليابانية
(هايو كايو)

ذة .مهوش أسدى
كلية الآداب -فاس

لقد اقتبس الشعر الرباعي في الاداب العالمية، إثر ترجمة قام بها الشاعر (فيتر جرالد) عن رباعيات الحكيم عمر الخيام بلغته الإنجليزية، والتي قد أشدت بها عند دراستي في رباعيات الحكيم عمر الخيام، نوقشت سنة 1998 م - وجدت أن بعض أساتذتي في جامعة طهران قد قاموا بدراسة أعمق تقارن آداب الشعوب وبالبحث عن نبرات شاعرية عند سائر الملل وميزان التأثير فيها، وقمت بجمع تلك الأبحاث والأشعار التي هي أيضا كقالب الشعر الرباعي صغيرة؛ مختصرة ولكنها قيمة جدا، وفي حكم درر ثمينة ولبيان مساعيهم في تجميع هذا الرصيد العلمي؛ بادرت بترجمة بعض ما يناسب المقال من دراسات الأستاذ الدكتور "ناتل خانلري" ومن دراساته الطريفة ما أدرجت ترجمتها في العدد الثاني عشر من مجلتكم الموقرة وأقدم ترجمة أخرى من در كلامه في عنوان :

إن "هايي كايي" (Hai Kai) هو أحد أنواع الشعر الياباني، ومن مميزات شعر اليابان؛ غاية التلخيص والإيجاز، وقلَّ مَا توجد في شعب آخر، تصل في "هايي كايي" إلى الكمال .

وكما نعرف إن أقصر قطعة في الشعر الفارسي الرباعي أو اد الدوبيت، ويشمل أربع مصاريع، ويحتوي كل مصراعه أحد عشر إلى ثلاثة عشر هجاء (مقطع)

أما "هايي كايي"؛ فهو -حسب مختصات اللغة اليابانية، أقصر من الشعر الرباعي جدا، يعني لكل قطعة فقط ثلاثة مصاريع والتي مجموع مقاطعها ثلاثة عشر. وعلى الشاعر أن يؤدي المعنى المقصود في هذا القالب الضيق، على نحو يؤثر في أذهان السامع أو القارئ تأثيرا عميقا .

ويلزم في هذا الفن أنواع المحسنات اللفظية والمعنوية التي تشبه أحيانا الرقة الأدبية الفارسية، أي نظائر الجناس اللفظية والخطية والإبهام ومراعاة النظير.

إن أهمية "هايي كايي" في مضمونه الذي ينتج إثر المواجهة البسيطة مع الطبيعة أحيانا، وأحيانا إدراك خاص من مشاهدة خاصة وفي مورد خاص أيضا، وأحيانا عبرة عامة؛ من مورد جزئي أو بسيط . والاستنتاج عموما غير صريح هناك الكناية والرمز، وعلى القارئ أن يكون في مستوى الذكاء ودقة النظر لكي يدرك فحواه، وإن الشاعر، وفي بضع كلمات فقط يقول :

- **نهضت ورقة الوردة الساقطة على التربة،**
- **وجلست على أصيص الورد!**
- **آه! هذه كانت فراشة!**

ولا يحتاج قوله إلى الشرج، وهذه تكفي لتنبيه القارئ؛ كي يدرك أن وريقة الورد لن تقوم، وذهب كل ما ذهب؛ العالم فإن، ومن العبث أن تتوقع عودة الوردة، بانعة بعد ذبولها.

أما الباقي في هذه الدنيا، والخالد؛ فهي الحركة، ولا يقف العالم عن الحركة، وقد لخصت كل هذه المعاني في بضع كلمات، وفي تصوير بسيط، ووظيفة الشاعر أن يهز ذهن القارئ، والباقي ليس شأنه، وعلى القارئ أن يأخذ زمام الأمر للوصول إلى النتيجة المطلوبة.

يقترب هذا النوع من الشعر أحيانا من الألغاز، وذلك بالنسبة للذي لم يتذوق هذا الضرب من الشعر، ولكن العارف بهذا النوع، يدرك جماله وعمقه ولذته.

ويتعلق هذا النوع من الشعر، بالعنصر الياباني وباللغة اليابانية، ومن الصعب جدا أن يقدر على خلق معادل في سائر الألسنة، ومع ذلك قد سعى بعض الشعراء من سائر البلدان إلى تقليد هذا الأسلوب، ومنهم الشاعر المكسيكي "خوزي خوان تابلادا" (Jose Juan Tablada) - 1871 إلى 1945 م الذي نظم ديوانين في الطريقة ؛ عنوان أحدهما "يوم" والثاني "المزهرية"

لقد اجتهد "تابلاندا" ليتمثل لطائف "هايي كايي" اليابانية ورقتها في لغته الأم؛ أي الإسبانية ، وهذا نموذج من عمله :

يا صفصافة جميلة!
نصف من ذهب! ونصف عنبر!
ونصف نور!

****

طاووس يا جلوة الجلال!
في حظيرة عالم؛
تمضي مثل عيد...

****

الحديقة المغطاةمن الورق الأصفر
ولم تكن كل هذه الأوراق على الشجر
خضراء! عندما كان الربيع الجديد.

****

أكانت حفنة السجيل
في غسق الطريق
أم وثبة الضفدع؛ وزحفه؟

****

طيران الهدهد؛ هل في الليل
يقلده الخفاش
لكي يطير في النهار؟

تحت هذي السماء الخوف والرعب
أنجمة يرجوها البلبل؟
لأنه في التغني!

****

كان القرد يحدق في!
له كلام معي،
والذي كان في نسيانه

****

كل ما بحثت في رسالته؛
رسالة الوداع،
لم يكن أثر دمعة

تمت الترجمة عن الفارسية في يناير عام 2000 الميلادية ؛ بمدينة فاس .

لَسانِيّة

تأملات في المعجم العربي

عبد العزيز العماري
كلية الآداب - مكناس

0 .ملخص

استضافت شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بمكناس ميشيل باربو (Michel BARBOT) . وقد قدم هذا الأستاذ عرضين تحت عوان: "النظام المعجمي العربي الفصيح" . وقد حاول هذا الباحث أن يبرز للحاضرين الخطوط العريضة لنظرية معجمية تهم اللغة العربية. وتحاول هذه النظرية أن تثبت أن اشتراك كلمتين في مقطع صوتي واحد أو أكثر يدل على قرابة لالية بينهما، وتحاول أيضا أن تبرهن على وجود زوائد معجمية تلعب دورا في خلق قرابة دلالية بين الكلمات. وسأحاول في هذه المقالة أن أعرض عناصر هذه النظرية وأن أناقشها.

1- التقاليب :

تعتبر هذه النظرية تقاليب الفعل الثلاثي الستة، التي يدخلها ابن جني فيما أسماه الاشتقاق الأكبر (1) ، منهجية منتجة للقرابة الدلالية بين الكلمات، فمشيل باربو يرى، كما رأى ابن جني، أن (جذب) و (جبذ) و (بجذ)و (بذج)و (ذبج) و (ذجب)، مثلا، أفعال مرتبطة فيما بيَنها بقرابة دلالية. وقد تغرينا ملاحظة هذه القرابة الدلالية بين الفعلين : (جذب) و (جبذ) بتبني هذه الأطروحة. ويستعمل ميشل باربو تقنية لسانية دقيقة للتعبير عن هذه الفكرة ، ويستنتج أن الأمر يتعلق بتقليب ثلاثة مقاطع صوتية .

وتهتم هذه النظرية أيضا بتقاليب الفعل الرباعي الذي يتكون من مقطعين صوتيين مكررين. وترى أن الأشكال الناجمة عن التقليب تتميز بالقرابة الدلالية. تنطبق هذه الملاحظة، مثلا، على الفعل : (صحصح) حيث يؤدي تبادل المواقع بين المقطعين الصوتيين :

/ص/و /ح/ إلى إنتاج الشكل التالي : (حصحص). وتعتبر هذه الملاحظة مغربية، لأن المعجم العربي يؤكد صحتها (2). ولكن ما نلاحظه بسهولة وهو أن هذه الملاحظة ليست مطردة، فالتقليب في الفعلين: (فعفع) و (عفعف)، مثلا،لايسمح بمعاينة قرابة دلاية بينهما (3). وعلى هذا الأساس فإنه يمكن الحكم بأن منهجية التقليب غير مجدية في هذا المجال. وقد لاحظ السيوطي أن الاشتقاق الأكبر الذي بشر به ابن جني ضرب من الصنعة (4).

2- المقاطع المشتركة المتصلة

يرى م.باربو أن اشتراك فعلين في مقطعين صوتيين متصلين يدل على وجود قرابة دلالية بينهما. وقد شجعه على التحمس لهذه الملاحظة وجود نماذج تستجيب لهذا المعيار، فالفعلان : (فصم) و (فصل)، مثلا يشتركان في المقطعين الصوتيين /ف/و /ص/. وتنطبق هذه الملاحظة أيضا، على الفعلين : (قضم) و (خضم)، حيث يشتركان في المقطعين الصوتيين : /ض/ و /م/. وهذا الجذع المشترك يشهد، في رأيه، على وجود قرابة دلالية بين الفعلين : (فصم) و (فصل) وبين الفعلين : (قضم) و (خضم). وهذه الملاحظة صحيحة إلى حد ما، لأن المعاجم العربية تؤكدها (5) .

ولكن هذه القاعدة ليست مطردة، فنفس المقطعين الصوتيين قد يكونان جذعا مشتركا بين فعلين، ولكن ذلك قد لا ينتج قرابة دلالية بينهما. تنطبق هذه الملاحظة، مثلا، على الفعلين: (فصح) و فصل)، و (سكب) و (سكن). نلاحظ أن المقطعين الصوتيين : /ف/ و /ص/ مشتركان بين : (فصح) و (فصل) و أن المقطعين الصوتيين : (س) و (ك) مشتركان بين : (سكب) و (سكن)، ولكن هذا الاشتراك لا ينتج أي قرابة دلالية طبيعية (6)، بل يمكن لمقطعين صوتيين متصلين أن يكونا مشتركين في فعلين مربوطين بعلاقة تضاد.تنسحب هذه الملاحظة، مثلا، على الفعلين: (وصل) و (فصل). نلاحظ بسهولة أن المقطعين الصوتيين : /ص/ و /ل/ مشتركان بين هذين الفعلين، ولكن لا يمكن أن نرصد بينهما إلا علاقة تضاد واضحة (7) .

إذا صحت ملاحظتنا، فان القاعدة التي عول عليها م.باربو في هذا المجال تعتبر ضعيفة وهشة، ولا تستحق،إذن، الاعتماد عليها في تفسير هذه الظاهرة المعجمية.

ويرى م.باربو أنه يمكن لفعلين أن يشتركا في مقطعين صوتيين منفصلين وأن يفرز هذا

الاشتراك قرابة دلالية بينهما. تنطبق هذه الملاحظة، في رأيه، مثلا، على الفعلين: (مهش) و (محشُ)، فهو يلاحظ أن المقطعين الصوتيين المنفصلين : /م/و/ش/ مشتركان بينهما وشاهدان على وجود قرابة دلالية بينهما. ولكن يجب أن تؤكد المعاجم العربية وجود هذه القرابة، وعندما نرجع إلى القاموس لا نعثر إلا على الفعل : (محش) (8) ورغم ذلك نعثر على أمثلة تناسب ملاحظته، فالفعلان : (قضم) و (قطم) مثلا ، تناسبهما هذه القاعدة، فالمعجم العربي، يسمح برصد قرابة دلالية بين هذين الفعلين (9). ولكن هذه القاعدة ليست مطردة، فأي قرابة دلالية تربط، مثلا، بين الفعلين : (نحت) و (نبت) (10)

3- الكلمة المركبة :

وحاول م باربو جاهدا أن يثبت أن عددا من الكلمات العربية مركبة في الأصل من كلمتين وأن طرفي التركيب هما المسؤلان عن إنتاج الدلالة الملاحظة في الكلمة المركبة، وعلى هذا الأساس فان (فجر) فعل مركب من (فج) و (جرى) و (اضمحل) فعل مركب من : (ضم) و (حل)، وعلى هذا الأساس نفسه فان : (سلسبيل) مركب من (سل) و (سبيل). لا يمكن إثبات صحة هذه الملاحظة، وهي ملاحظة سبقه إليها اللغويون العرب القدماء، فقد اعتبر بعضهم هذا الإجراء ضربا من النحت ولكنهم تنبهوا أيضا إلى أن مثل هذا النحث غير مطرد، و "إنما يقال منه ما قالته العرب" (11). ولا يوجد في المعجم العربي ما يعزز مشروعية وجود ذلك. وقد اعتبر م باربو هذا الإجراء إلصاقا .

4- الزوائد المعجمية :

ولا حظ م باربو كذلك أن عددا من الكلمات العربية تقبل أن تخضع إلى عملية إلصاق من نوع آخر، ويتعلق الأمر، بالصاق ما سماه بالزوائد المعجمية بالكلمات، وتشبه، في رأيه، هذه الزوائد المعجمية الزوائد الصرفية. وعلى هذا الأساس فان الفعل : (سكب) مزيد في أوله المقطع الصوتي /س/ . ويرى أن هذا الإلصاق سمح للمعجم العربي بتضمن فعلين متقاربين دلاليا وهما : (كب) و (سكب) ، ويرى أيضا أن الفعل : (قفعز) مزيد في وسطه صامت هو : /ع/ وأن هذه الزيادة تنتج فعلين متقاربين دلاليا هما : (قفز) و (قعفز). وعندما نتفحص المعجم لا نلاحظ أي قرابة دلالية واضحة بين هذين الفعلين (12). ما نلاحظه أيضا في المعجم هو عدم وجود الفعل (كب) (بفتح الباء)، وبدون وجوده يصعب الادعاء بأن /س/ في : (سكب) زائد معجمي. ما لا يمكن تجاهله هو وجود قرابة

دلالية ما بين : (سكب) و (كبّ) (بتضعيف الياء) (13) .

نلاحظ أن فكرة الزوائد المعجمية مهمة تنظيريا وضعيفة تطبيقيا. ولا يمكن لنا، على هذا الأساس، أن نخولها مكانة الزوائد الصرفية .

5- خاتمة :

يمكن أن نلاحظ أن م.باربو قدم عمله بمنهجية دقيقة. وقد حاول أن يثبت أن وجود مقاطع صوتية مشتركة في عدد من الكلمات العربية يدل على وجود قرابة دلالية بينها، كما حاول أن يثبت وجود زوائد معجمية تلصق ببعض الكلمات ليفرز هذا الالصاق كلمات تتمتع بقرابة دلالية مع الكلمات الأصلية. وقد قدم نماذج كثيرة لتوضيح ذلك. لكن يمكن أن نلاحظ بسهولة أن النتائج التي توصل إليها هي نفس النتائج إلتى توصل إليها اللغويون العرب القدماء. وقد بينا بما فيه الكفاية أنه لا يمكن أن نبني قواعد دقيقة بالاعتماد على ملاحظة حالات غير مطردة .

ويمكن أن نلاحظ كذلك أن الأفكار التي أوردها هذا الباحث لا ترقى إلى مستوى نظرية معجمية، رغم أنه قدمها من خلال منهجية واصفة دقيقة. ما يمكن أن نقوله هو أن الأمر يتعلق برصد طرق إبداع اللغة العربية لمفرداتها، وهي طرق تنتج المفردات المستعملة والمفردات المهملة الممكن استعمالها عند الحاجة والمفردات الممنوع استعمالها لأسباب صوتية على الخصوص. وقد تنبه إلى ذلك اللغويين العرب القدماء (14) أما القرابات الدلالية المرصودة أحيانا بين عدد من المفردات بعد إجراء عملية التقليب أو ملاحظة المقاطع الصوتية المشتركة فليست مطردة وهذا ما أورده السيوطي (15) .

الهوامش :

* يومي 8 و 9 فبراير 1999

1 - الخصائص، ج 2 ص 133-136

2 - في المعجم الوسيط : صحصح الأمر، تبين ، و : حصحص الشيء : ظهروبان .

3 - في المعجم الوسيط : فعفع في أمره : أسرع. وأهمل الفعل : (عفعف)

4 - المزهر، ج 1 ، ص 347

5 - في المعجم الوسيط : فصم الشيء : شقه دون بينونة، وفصل الشيء : قطعه، وفيه كذلك : قضم الشيء بأسنانه : قطعه، و : خضمه : قطعه

6 - في المعجم الوسيط : فصل الشيء : قطعه، و فصحه الصبح : غلبه ضوؤه. وفيه كذلك : سكب الماء : صبه، : سكن المكان وبه : أقام به.

7 - في المعجم : وصل الشيء بالشيء : ضمه به وجمعه ولأمه، وفصل الشيء عن غيره : أبعده عنه.

8 - في المعجم الوسيط : محش الحلد قشره عن اللحم، و : محشت النار جلده : أحرقته. ولم يورد هذا المعجم الفعل : (مهش)، فهو، إذن، مهمل رغم أن السيوطي أشار إلى أن بعض القبائل كانت تبدل الحاء هاء. انظر المزهر ، ج 1 ص 466.

9 - في المعجم الوسيط : قضم الشيء قطعه بأطراف أسنانه و : قطع الشيء : فصله عن بعضه وأبانه.

10 - في المعجم الوسيط : نحت الشيء : قشره وبراه، و : نبت الزرع : نشأ وظهر .

11 - السيوطي، المزهر، ج 1 ، ص 485

12 - في المعجم الوسيط : قفز وقعفز في المشي : قصر خطاه .

13 - في المعجم الوسيط : سكب الماء : صبه، و : كب الإناء قلبه، ولا وجود فيه للفعل : كب (بالفتحة دون شدة).

14 - السيوطي، المزهر، ج 1 ص 240-147.

15 - المزهر، ج 1ص 347.

المصادر :

ابن جني ، أبو الفتح
الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار، دار الهدي للطباعة والنشر، لبنان، الطبعة الثانية.

ابن فارس ، أبو الحسين أحمد
الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تحقيق : عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف ، بيروت لبنان الطبعة الأولى ، 1993.

السيوطي ، عبد الرحمن جلال الدين
المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، شرح وضبط وتعليق محمد جاد المولى والمجموعة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
مجمع اللغة العربية
المعجم الوسيط، إخراج: إبراهيم مصطفى والمجموعة، المكتبة العلمية، طهران

نظرية «گرايس» والبلاغة العربية

ذ. بنعيسى أزاييط
كلية الآداب - مكناس

ملخص العرض :

يروم هذا العرض اختبار نظرية «گرايس Grice » الحوارية، قي مجال تحليل "البيان" العربي، انطلاقا من قواعد التخاطب المعروفة لدى هذه النظرية، لنعرف -بالتالي- مدى نجاعة هذه النظرية، ومقدار اعتبارها نموذجا Paradigme واصفا لظواهر بلاغية عربية قديمة أو حديثة...

مدخل :

تعرف اللسانيات العربية -اليوم- انفتاحا حضاريا واسعا، على النماذج والتحليلات والنظريات التي عرفها العالم العربي منذ عقود. ولعل هذا الوضع الحضاري يفرض -فيما يفرض- على الفكر اللساني العربي أن «يعقد حوارا مثمرا « Fruitful dialogue بين الماضي والحاضر» أي بين ما يزخر به هذا الفكر من طرق تحليل ومفاهيم، وبين ما يعج به الفكر اللساني الحديث من نظريات وبدائل في سبيل "**توافق حضاري**" قد يجمع المؤتلف، أو يفرز المختلف بين الطرحين معا (أزاييط 1999)

وإذا كان هذا اليوم الدراسي *يسعى إلى بلورة هذا الهدف الحضاري، من خلال إشكال "التداولية والتراث العربي" فقد بات من اللازم التعريف بالنظريات اللسانية المعاصرة أولا، ومحاولة مقاربتها بالنظريات اللسانية العربية القديمة، في حقول التراث المختلفة المشارب.

وعلى هذا الأساس سنحاول التعرض لبعض الظواهر العربية القديمة، وقراءتها من منظور «نظرية گرايس Grice الحوارية»، ولنبدأ أولا بهذه الأخيرة :

1 - نظرية گرايس (1975-1978)

1-1 الإطار العام :

تصب نظرية گرايس Grice في "نظرية الاستلزام المعاصرة" التي لا يتعدى ميلادها ثلاثة عقود تقريبا، ويرجع الفضل في بلورتها وتنميتها إلى الفيلسوف اللغوي هـ.ب گرايس (1975) وذلك عندما كان يحاضر في جامعة هارڤارد الأمريكية منذ 1967 في موضوعين مهمين هما :

* نظرية المعنى غير الطبيعي .
* كيف يستعمل الناس اللغة؟

والموضوعان معا يمثلان مسار "**النظرية الاستلزامية التكاملية**" التي يمكن صياغتها، بشكل عام، في المبدإ التالي :

* تقود سير التخاطب والتحاور -في اللغات الطبيعية- مجموعة «من **الافتراضات والتقديرات** Assumptions الكامنة في كفاية المتخاطبين، والناتجة عن **اعتبارات عقلية أساسية** basic rational ، مهمتها أنها توجه الاستعمال اللغوي الحواري الفعال، نحو تحقيق **أهدافه التعاونية** « cooperative ends »

حيث يتضح أن "النظرية اللغوية التخاطبية" في اللغات الطبيعية لم تعد نظرية تحكمها الاعتباطية بل هي نظرية تقوم على معطيات عقلية، واستراتيجيات مضبوطة، جعلت "گرايس" يشتق منها عنصرين أساسيين، هما :

* المبدأ التعاوني الحواري العام.
* القوانين المتفرعة عنه.

فكيف عرض لهما؟

2-1 المبدأ التعاوني :

يقوم هذا المبدأ على الاقتضاء الإضماري التالي :

«أن تكون مساهمتك الحوارية بمقدار ما يطلب منك في مجال يتوسل إليه بهذه المساهمة، تحدوك غاية الحديث المتبادل، أو اتجاهه، أنت ملتزم بأحدهما، في لحظة معينة» (گرايس 1975 : 45-46)

وتتفرع عن هذا المبدإ قوانين فرعية حصرها گرايس في أربعة :

3-1 القوانين الفرعية Maxims

1-3-1 قوانون الكم Maxim of quantity

يحتوي على قاعدتين أساسيتين :

- أن تكون مساهمتك على مقدار من المعلومات المطلوبة منك، وفق أهداف التبادل الحواري الراهن.
- ألا تتوفر مساهمتك على أكثر مما هو مطلوب منك

2-3-1 قانون الكيف Maxim of quality

- حاول أن تكون مساهمتك صادقة

وهناك قاعدتان فرعيتان خصوصيتان :

*لا تقل ما تعتقده خطأ

* لا تقل ما تراه يحتاج إلى دليل

3-3-1 قانون الورود والملاءمة Maxim

* اجعل مساهمتك في الحوار المتبادل واردة

4-3-1 قانون الصيغة Maxim of manner

"كن واضحا"

وبالخصوص :

* ابتعد عن الإبهام

* تجنب الغموض

* كن موجزا

* كن منهجيا (= كن منظما)

هكذا يشكل المبدأ التعاوني وقواعده الفرعية العمود الفقري لنظرية گرايس الاستلزامية (1975-1978)

4.1 - التحليل

1.4.1 - يلاحظ أن "نظرية گرايس" بمبدإها العام وقوانينها الفرعية، تسعى إلى أن تكون نظرية عامة في الخطاب اللغوي الطبيعي تسعى إلى أن تكون نظرية عامة، وفي الخطاب اللغوي الحواري بصفة خاصة، وفي الخطاب الاستلزامي بصفة أخص.

2.4.1- غير أن ما يطبعها من سمات جزئية وكلية، تجعلها نظرية ذات اتساع معين، في حقل التواصل، ذلك أن القوانين الخطابية المعروضة بمجملها في إطار هذه النظرية - تحدد باختصار "ما يجب أن يفعله المساهمون في الحديث اللغوي، بأقصى طريق تعاوني عقلي كاف، عليهم أن يتحدثوا بصدق، وبورودية ووضوح، مقدمين معلومات كافية" (لڤينصون : 1985-102)

3.4.1- وغالبا ما تكون قوانين الحوار ومبدأها العام -في مجال القول- موجهة Oriented ، وإن كان هناك خصوصيات في اللغات الطبيعية موجهة نحو استبطان تلك المبادئ الحوارية، على الأقل "في مستوى عميق deep level " أو في "**المستوى الضمني** impliecite " الذي تحكمه قدرات داخلية مختلفة " (انظر ازاييط 1997 : الفصل 8)

4.4.1 - تستطيع قوانين الخطاب -في هذه النظرية- أن تولد استدلالات generate the inferences كامنة وراء المحتوى الدلالي للعبارات اللغوية، حيث تتلخص هذه الاستدلالات في ما يمكن اشتقاقه أو نحته من مضامين، أو فيما اصطلح عليه گرايس بالاستلزامات الحوارية conversational implicatures ، سواء أكان اقتضاءات منطقي Logical implication أو لزوما دلاليا entailment أو استنتاجا منطقيا logical consequennce أو غيرهما من المصطلحات التي تستخدم بصفة عامة- للإحالة على الاستدلالات المشتقة devided من المحتوى المنطقي أو الدلالي" (ليڤينصون ن.م: 104)

5.4.1 وعلى هذا الأساس نعتبر أن القوانين الحوارية الواردة في نظرية "گرايس" تنقسم إلى قسمين من حيث الإنجاز أو الإشتغال : (انظر ولصون-سيربر 1981)

1- قوانين متبعة ومرصودة : من قبل المتحاورين، وتكون طبيعة الاستدلال والاشتقاق فيها مستقية Straight froward inferences قائمة على افتراض أن المتحاورين يتبعون are folliwing القوانين الخطابية Maxims

2- قوانين غير متبعة وغير مرصودة not observing بل هي مخرومة (أو بتعبير "گرايس" يسخر منها المتكلم he flouts)

وقبل أن نمثل لهذه القوانين بنوعيها من صلب المواضعة اللغوية العربية تجدر الإشارة إلى أن نظرية گرايس وجدت رواجا كبيرا بين اللسانيين والمناطقة وفلاسفة اللغة وعلماء الأدب والنقد وغيرهم منذ ظهورها، فتناولوها بالدرس والتحليل والتعريف بها حينا، وبالتعديل منها ونقدها حينا آخر، ولا يسعنا في هذا الصدد إلا أن نأخذ بها لتحليل جوانب من البلاغة العربية، أو بالأصح نحاول أن نطبقها على ظواهر من علوم البلاغة العربية القديمة، لنعرف بالتالي مدى الأخذ بها، واعتبارها نموذجا واضحا للخطاب اللغوي العربي.

2- تطبيق قوانين نظرية گرايس على الخطاب اللغوي البلاغي العربي القديم.

1.2- ملاحظة :

تجدر الإشارة إلى أننا سنقتصر -في هذا التناول- على أمثلة مأخوذة من علوم البلاغة العربية القديمة، دون أن ندخل في تفاصيل هذه المدونة، وكيف تناولها منظرو البلاغة القدمى، وما هي الأسس التي اعتمدها في التنظير والتحليل، لأن هذا وإن كان مهما فله مقام آخر غير هذا المقام .

2.2- تطبيق القوانين المرصودة وغير المرصودة :

بناء على ما ورد من القوانين الأربعة عند گرايس نحاول فيما يلي التمثيل لها تباعا مما جاء في علوم البلاغة :

1.2.2- قانون الكم :

ينخصر هذا القانون - كما هو معلوم سابقا- في " الإمداد بمعلومات مضبوطة لا زيادة فيها ولا نقصان" ويشكل البديلة النموذجية لما يتطلبه الحوار الاستلزامي "المعيار" فلا إفراط ولا تفريط :

المثال 1 : من الشعر :

«قال بعضهم لبشار بن برد : إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت، قال : وما ذاك؟ قال : بينما تثير النقع وتخلع القلوب بقولك :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية

هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة

ذرا منبر صلى علينا وسلما

نراك تقول :

ربابة ربة البيت

تصب الخل في الزيت

لها عشر دجاجات

وديك حسن الصوت

فقال بشار : لكل وجه وموضع ، فالقول الأول جد والثاني قلته في ربابة جاريتي، وأنا لا آكل البيض من السوق. وربابة لها عشر دجاجات وديك فهي تجمع لي البيض، فهذا القول عندها أحسن من "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" عندك»

(البلاغة الواضحة : 259-260)

- المثال 2 : من النثر :

«واعتبر هذا الأصل بما كان من النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه لما أراد أن يكتب إلى ملك فارس اختار أسهل الألفاظ وأوضحها فقال :

"من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس السلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله، فإني أنا رسول الله إلى الخلق كافة لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين فأسلم تسلم، فإن أبيت فإثم المجوس عليك" .

وحين أراد أن يكتب إلى أكيدر صاحب دومة الجندل، فخم الألفاظ، وأتى بالجزل النادر فقال : "من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام، إن لنا الضاحية من البعل والبور والمعامى وأغفال الأرض والحلقة والسلاح، ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها وتؤدون الزكاة، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه" »

(م.ن : 260-261)

- الضاحية من النخل : النخلة الظاهرة الخارجة عن الأسوار والعمران.
- البعل : النخل الراسخة عروقه في الأرض
- البور : الأرض الخراب التي لم تزرع
- المعامي : جمع معمى وهي الأراضي المجهولة
- أغفال الأرض : الأراضي التي لا أثر للعمارة فيها
- الحلقة : السلاح عاما
- الضامنة من النخل : ما كان داخلا في العمارة وأطاف بها سور المدينة.
- المعين : الماء الجاري
- السارحة : الماشية
- الفاردة : الزائدة على الفريضة

(البلاغة الواضحة : 259-260)

وقد يؤطر المبدأ المعروف في الفكر البلاغي العربي:

*** مطابقة الكلام لمقتضى الحال**

كل ما يتعلق بقانون "الكم" الكرايسي

وينضاف إلى هذا القانون المبدأ الشهير :

*** المساواة**

أن تكون المعاني بقدر الألفاظ، والألفاظ بقدر المعاني، لا يزيد بعضها على بعض (البلاغة الواضحة : 240)

أمثلة :

-قال تعالى (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله)-

وقول طرفة بن العبد :

ستدي لك الأيام ما كنت جاهلا

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

1.2.2 - خرق قانون الكم :

- خرق القاعدة الأولى التي تنص على مقدار المعلومة المطلوبة.

يتم الخرق عندما يعرج المتكلم بكلامه إلى مسائل غير واردة، أو ليست ضمن الحديث، أو لا تمت إلى فحوى الخطاب بأية صلة، أو عندما يلتجئ إلى أسلوب **الإيجاز أو الإطناب**

- أمثلة من البلاغة العربية :

(علم المعاني : الإنجاز -الإطناب)

- الإيجاز : جمع المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل مع الإبانة والإفصاح . وهو نوعان :

- إيجاز قصر : ويكون بتضمين العبارات القصيرة معاني قصيرة من غير حذف

ومثاله قوله تعالى :

(ألاله الخلق والأمر) أي له تعالى

==== > جميع الشؤون والأشياء على وجه الاستقصاء.

ومثاله قوله (صلى الله عليه وسلم)

«الضعيف أمير الركب) إشارة إلى

==== > آداب السفر والعطف على الضعيف

ايجاز حذف : ويكون بحذف كلمة أو جملة أو أكثر من قرينة تعين المحذوف

مثاله : كثير في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وفي كلام العرب.

- علفتها تبنا وماء باردا

وسقيتها : محذوف

- قال تعالى : (وجاء ربك والملك صفا صفا)

وجاء أمر ربك

أما الإطناب : <u>فهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة</u>

ومثاله - قوله تعالى «تنزل الملائكة والروح فيها»

==== > والروح : زائد لأن معناه داخل في عموم اللفظ (الملائكة)

وطرقه معروفة في البلاغة القديمة

-وقوله تعالى : (أمدكم بما تعلمون <u>أمدكم بأنعام وبنين</u>)

توضيح لما أبهم قبل ذلك

- وقال النابغة الجعدي يهجو :

لو أن الباخلين <u>وأنت منهم</u>

رأوك تعلموا منك المِطالاَ

معترضة : ===>

غـيـر أن الملفت - في أسلوب الإيجـاز وأسلوب الإطناب- هو ذلك التـوجـه البـلاغي التـداولي الذي حـاول البـلاغـيـون أن يبـرزوه في تحليـلاتهم، وهذا يغـيب عن كـرايس غـيـابا تامـا، للطبيـعـة المادية الإخبـارية التي تطغى على قـانون الكم عنده إيجابا أو سلبا، ومع ذلك يبقى قـانون الكم بنوعـيـه (حالة احترامه أو حالة خرقـة) بمثابة **أداة إجرائية** للكلام الطبيـعي، يمكن أن نتـوسل بهـا لخلق مقـاربة كـمـيـة للخطاب اللغـوي الطبـيـعي أدبيـا كـان أو عاديا

2.2.2 - قانون الكيف :

وينحصر في مقدار المسـاهمة اللغـوية المطلوبة في الحوار على جهـة النوع وليس على جهة الكم. وعادة ما يكون الأشخاص المساهمون يسـعون في أحاديثهم المتبادلة إلى التركيز على هذا المعطى الحـواري، وكل خـروج عـن هذا القـانون وقـواعـده الفـرعـيـة يعـد ضـربا من "**اللغو**"، أو خروجا إلى أسلوب آخر من أساليب غير مباشرة كما سنرى ذلك فيما سيأتي.

1.2.2.2 - تطبيق قانون الكيف الحرفي على :

الغرض من إلقاء الخبر: (انظر ن.م : 144-147)

1 - فـائدة الخبـر : إفـادة المخـاطب الحكم الذي تضـمنتـه الجـملة، ويسـمى ذلك الحكم فـائدة الخبر.

مـثـال : ولد النبي صلى الله عليـه وسلم عـام الفـيـل، وأوحى إليـه في سن الأربعين، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشرا.

2 - **لازم الفائدة :**

إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم، ويسمى ذلك لازم الفائدة.

3- قد يفي الخبر لأغراض أخرى تفهم من السياق :

- الفخر مثلا: عمر بن ربيعة.

إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا

2.2.2.2. - خرق قواعد الكيف :

خرق القاعدة 1 : لا تقل ما تعتقده خطأ

يتولد من هذا الخرق مجموعة من الصور البلاغية figures يمكن أن نذكر منها :

1- السخرية :

السخرية ≡ التعبير الصريح ----> التعبير الضمني + السياق الملائم

----> يستلزم

أمثلة : ومن قبيل هذا اللون "الرسالة الهزلية" التي كتبها ابن زيدون، التي خاطب بها " ابن جهور" من موضع اعتقاله .

(انظر ديوان ابن زيدون 235-240)

فبعد هذه المقدمة :

«أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه...»

يقول : «... حتى خيلت أن يوسف -عليه السلام- حاسنك، فغضضت منه، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت، وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك.... وسهل بن هارون مدون كلامك، وعمرو بن بحر مستمليك، ومالك بن أنس مستفتيك، وأنك الذي أقام البراهين، ووضع القوانين، وحد الماهية، وبين الكيفية والكمية... وأنك لو شئت خرقت العادات، وخالفت المعهودات، فأحلت البحار عذبة وأعدت السلام رطبة، ونقلت غدا فصار أمسا، وزدت في العناصر فكانت خمسا، وأنك المقول فيه "كل الصيد في جوف الفرا..." ... الخ»

فلو حملت هذه التعابير محمل الجد، لكانت مضامينها مستحيلة الوقوع والحصول، وإنما هي تعابير أوردها ابن زيدون، على وجه الاستهزاء والتهكم بمخاطبة "ابن جهور" الجاهل في نظره.

2- ألوان المجاز : التشبيه

يحمل التشبيه عادة على جهات دلالية وتداولية. فتعين :

- إما معاني مرغوبا فيها (=المدح)
- وإما معاني مرغوبا عنها (= الذم)

فتكتم بذلك تلك العلاقة الإضمارية التي تسود التعبير في نوعه وكيفه، وقد استطاعت البلاغة العربية القديمة في "علم البيان" التوغل في أساليبه ومعانيه، والتصدي لوجهه واستدلالته. أكثر مما ورد عند گرايس وغيره من التداوليين في هذا الباب.

3 - صور الإشارة (الداخلية +الخارجية)

تتم "صور الإشارة" في الخطاب اللغوي العربي العادي والأدبي، فتتقمص بنيات التعبير مضامين تحيل على قضية أو قضايا، لا تنص عليها التعابير، بل "تومئ" وتشير

و "هي في كل نوع من الكلام لمحة دالة، واختصار وتلويح يعرف مجملا، ومعناه بعيد من ظاهر لفظه" (ابن رشيق : 302/1)

ومن صور الإشارة : التلويح، الكناية، التورية، وغيرها.

1- <u>التلويح</u> : خرق قاعة الكيف

النابغة يصف طول الليل

تقاعس حتى قلت : ليس بمنقض

وليس الذي يرعى النجوم بآيب

يشرح صاحب (العمدة 105/1) هذا البيت قائلا :

« " الذي يرعى النجوم" يريد به الصبح، أقامه مقام الرعي الذي يغدو فيذهب بالإبل والماشية، فيكون حينئذ تلويحه هذا عجبا في الجودة... »

2- <u>الكناية</u> : مظهر آخر من مظاهر خرق قانون الكيف

إذ المنطوق به غير المفهوم من التعبير الكنائي:

----> كثير الرماد:

----> مضياف

3- <u>التورية</u> : (من علم البديع)

جاء في كتب البلاغة (المراغي : 383) أن التورية لغة مصدر ورى الخبر إذا ستره فأظهر غيره، واصطلاحا أن يذكر المتكلم لفظا له معنيان أحدهما قريب ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد ودلالة اللفظ عليه خفية، ويريد المعنى البعد ويوري عنه بالمعنى القريب.

مثال :

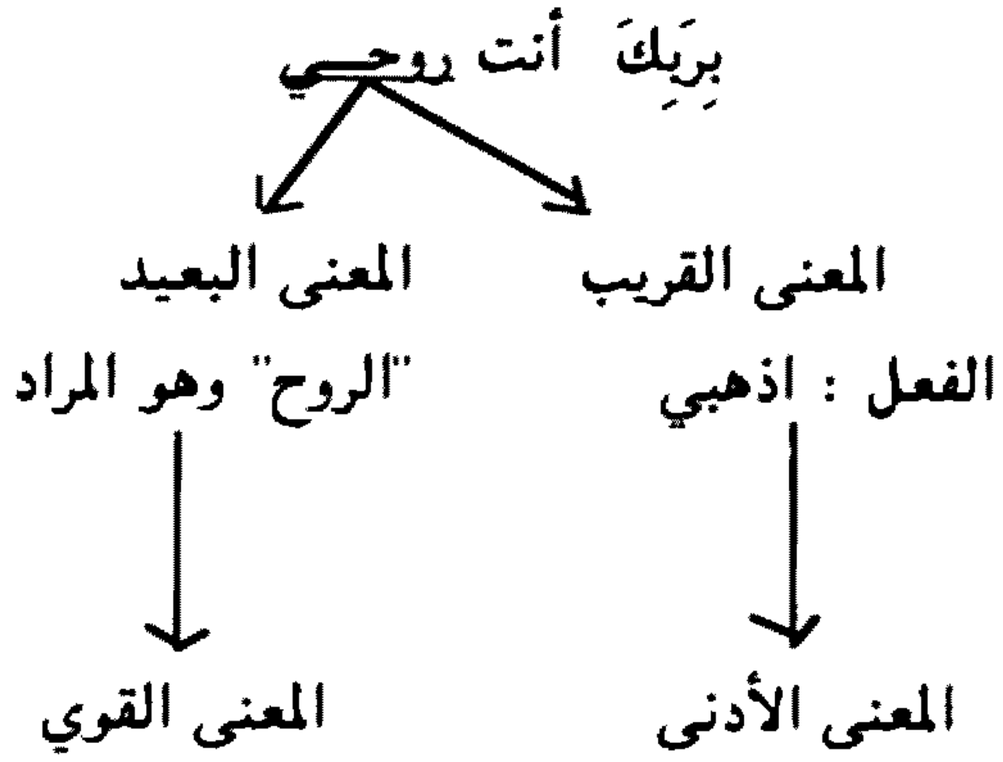

بدليل القول ككل :

فقالت : رح بربك من أمامي

فقلت لها : بربك أنت روحي

وبواسطة التعويضات الدلالية compensations sémantiques نحصل على العلاقة النقصية التالية :

المعنى المراد ≡ المعنى القوي - المعنى الأدنى

انظر ازاييط 1997: المجلد III : 732- 734

وشبيهه قول الشاعر : «واستمطرت لؤلؤا من نرجس...»

إذ المراد : باللولو الدمع لا اللؤلؤ الحقيقي (الحجر الكريم)، والمراد بالنرجس "العين" لا النرجس الحقيقي (النبات). بعلاقة المعنى المجازي، وقرينته الدالة على ذلك، وهي "استمطرت" في إطار السياق الاستعاري وفضائه المقامي الاستلزامي.

لذا فحذف المعاني الحقيقية ضرب من الانتهاك لقاعدة الكيف.

4- الإشارة الخارجية

إن "مبلغ الإشارة أبلغ من مبلغ الصوت، فهذا باب تتقدم الإشارة فيه الصوت، وقيل : حسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان . جاء بذلك الرماني نصا، وقاله الجاحظ من قبل.

ومنه قول الشاعر :

أشارت بطرف العين خيفة أهلها

إشارة مذعور ولم تتكلم

فأيقنت أن الطرف قد قال : مرحبا

وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم

ولما أقام معاوية الخطباء لبيعة يزيد، قام رجل من ذي الكلاع فقال: هذا أمير المؤمنين، وأشار بيده إلى معاوية، فإن مات فهذا، وأشار إلى يزيد، فمن أبى فهذا، وأشار إلى السيف" (العمدة : 9-310)

فالإشارة الحسية بذلك تختزل الكلام اختزالا.

3.2.2 - مبدأ الورود والملاءمة :

1.3.2.2 - الجانب الحرفي : في هذا المبدأ : تترجمه المقولة الشهيرة في الأدبيات البلاغية القديمة :

*** لكل مقال مقام :**

لذا يعد هذا القانون المسؤول عن إنتاج لا نهائي من الأساليب المعروفة في الخطاب البلاغي العربي : من أمر ونهي وتعجب ونداء وقسم ووعد ووعيد وغيرها، ، فهذه الأفعال واردة في مقامها الحاضر.

4.2.2 - كما أن هذا المبدأ مرتبط أشد الارتباط -في حرفيته- بمبدإ "الصيغة" ونقصد به ذلك "البناء المنمذج" construction stériotypique في الأساليب اللغوية البيانية عامة :

*** لكل مقام مقال :**

1.4.2.2 - خرق مبدإ المورود ومبدإ الصيغة :

أ- اسلوب الحكيم:

تلقي المخاطب بغير ما يترقبه، إما بترك سؤاله والإجابة عن سؤال لم يسأله، وإما بحمل كلامه على غير ما كان يقصد..."

(البلاغة الواضحة : 296)

أمثلة -قال تعالى : (يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج)

قيل لتاجر : كم رأس مالك ؟ فقال : إني أمين وثقة الناس لي عظيمة

-انظر إلى المثال الأول تجد أن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم سألوه عن الأهلة، لم تبدو صغيرة ثم تزداد حتى يتكامل نورها، ثم تتضاءل حتى لا ترى، وهذه مسألة من مسائل علم الفلك يحتاج في فهمها إلى دراسة دقيقة طويلة، فصرفهم القرآن الكريم عن هذا، ببيان أن الأهلة وسائل للتوقيت في المعاملات والعبادات، إشارة منه إلى أن الأولى بهم أن يسألوه عن هذا، وإلى أن البحث في العلوم يجب أن يرجأ قليلا حتى تتوطد الدول وتستقر صخرة الإسلام)

(عن البلاغة الواضحة : 295-296)

وفي المثال الثاني : الظاهر أن التاجر لا يريد ذكر رأس ماله لسبب من الأسباب، وإنما وجه الإجابة إلى نوع آخر من المعاني بكونه أمينا وصاحب ثقة.

ب - ومن أمثلة خرق مبدإ الصيغة :

- خرق القاعدة الأولى : يؤدي إلى الإبهام :

- هل تسمع شهادة **الخالق**؟

قال : لا ولا روايته.

(الخالق : الكاذب)

- هل يجوز السجود علي **الخد** إن كان طاهرا؟

(الخد : الطريق)

ويدخل في هذا الصدد " **المشترك** " بكل أنواعه، وكل أبواب التقديم والتأخير لأسباب بلاغية.

- إن مبدأ الصيغة ينصب - في أساسياته - على البناء التدريجي La Syntaxe أو نظم الخطاب اللغوي ، أو ينصب على الجانب الإستدلالي البنيوي في هذا الخطاب (ولصون - سپربر 1979).

3- خاتمة : ملاحظات عامة :

1.3 - لا نريد من هذا العرض إلا إبراز إشكال قراءة التراث البلاغي من منظور أحد النماذج التداولية المعاصرة، ولا نبتغي -من هذه المحاولة- سوى الإشارة إلى اقتحام هذا المجال، الذي لا زال لم يلج إليه اللسانيون العرب بكيفية عميقة، ومن ثمة فهذه المحاولة، -في حقيقتها- دعوة لاستغلال الآليات التي تتيحها التحليلات التداولية المعاصرة، سلبا أو إيجابا.

2.3- نعتبر هذا التجريب -رغم المنطلقات المعرفية التاريخية المختلفة في الطرحين : العربي القديم والتداولي المعاصر -يصب في تلك "المعرفة اللسانية الحضارية" التي نحن مدعوون إلى اقتحامها والتفاعل معها والمساهمة فيها.

3.3 - إن ما قمنا به، في هذه المقاربة -رغم التعسف الملاحظ والإسقاط الملموس- يظل في نظرنا أولى الخطوات التي يجب على الدارسين لهذا الميدان (قراء التراث الفكري العربي تداوليا) القيام بها، في سبيل "**تحديث آليات الوصف القديمة**"، بل وتطويرها والدفع بها قدما.

4.3 - ويبقى من أمر هذه المحاولة إبراز ما يلي :

1.4.3 - اعتبار قوانين الخطاب (عند گرايس) مجرد "**قوالب إجرائية**"، تستمد قوتها الصورية Adéquation formelle من مقومات التعميم والتوهيم. وإن كان التحليل البلاغي العربي يمتاز بأمثلته واستقرائياته الخطابية القوية، دون أن ينحصر أو يقتصر على مدونة لغوية بعينها، كما يمتاز بإدراج سائر المتون المحققة وكيفما كان مصدرها.

2.4.3 - وينبني على هذا اعتبار التحليل البلاغي العربي القديم تحليلا قائما على فهم الخطاب البلاغي العربي وأبعاده التداولية فهما سبق عصره بقرون.

3.4.3 - يتيح التحليل التداولي المعاصر إمكان الاستفادة من تحليل القدماء، سواء تعلق الأمر بالمفاهيم المتداولة عند القدماء، أو بطرق التحليل نفسها عند هؤلاء. ولذا فإن كل "**مشروع مقاربي**" يستدعي الانتباه إلى هذه النتائج.

4.4.3 - يلاحظ أن قـوانين الخطاب Maxims (عند گرايس) لا تثبت على حال، فـهي معرضة للتداخل لا للتكامل، فثمة ظواهر بلاغية لا نستطيع أن ندرسها داخل قانون وحيد، بل تتضافر قوانين الكم والكيفي في قوانين الصيغة أو الورود، الشيء الذي يجعل هذه القوانين تتسم بطابع التداخل فيما بينها، ودون أن تكون مستقلة بعضها عن بعض، وهذا ما يجعل أطروحة گرايس تتعرض لانتقادات كثيرة لا داعي لذكرها الآن لضيق المقام.

5.4.3 - ونتج عن الملاحظة السـابقـة أن هناك مبادئ حوارية تفاعلية لم يلتفت إليـها گرايس، وبالخصوص مبادئ التواصل الإنساني والتعامل الأخلاقي اللغوي، ومن ذلك:

- مبدأ التأدب (انظر روبين -لايكوف 1973)
- مبدأ التواجه .انظر براون -لڤنسون 1978)
- مبدأ التأدب الأقصى واعتبار التقرب (انظر ليتش 1983)
- مبدأ التصديق واعتبار الصدق والإخلاص، وهو مبدأ راسخ في التراث الإسلامي .

(في سبيل هذه المبادئ انظر : طه عبد الرحمن 1998 : 137-153)

6.4.3 - وتجرنا هذه الملاحظة أعلاه إلى القول مع طه عبد الرحمن "إن مبدأ التعاون والقواعد المتولدة منه لا تضبط إلا الجانب التبليغي من الخطاب. أما الجانب التهذيبي منه فقد أسقط اعتباره إسقاطا"

(طه 1998 : 239)

وفي الأخير : لا بد من الإقرار بأن هذا اليوم الدراسي مفيد جدا، ليس فقط فيما نناقشه هذا اليوم، ولكن مفيد جدا، في رسم استراتيجية للبحث التداولي في مسألة التراث العربي الإسلامي، وقراءة خطابه اللغوي التداولي، رسما وقراءة فاعلين لحداثة الدرس اللغوي العربي المعاصر وما بعدها، نساهم في تحديدهما جميعا، وانطلاقا من هذا اليوم المفيد .

ولهذا لا بد أن ننوه بمجهود هذه الكلية المعطاء في هذا المضمار، ولا بد أن نشيد بمنظمي هذا اليوم الدراسي المفيد* . كما ننوه بالمساهمين الأساتذة الباحثين الأجلاء، ونتمنى أن يتكرر اللقاء، ويتحقق الرجاء، إن شاء الله تعالى والسلام .

هامش :

* تندرج هذه المداخلة ضمن مداخللات اليوم الدراسي الذي نظمته كلية الاداب والعلوم الإنسانية -سايس فاس وتحت موضوع «التداولية والتراث العربي» يوم 25 فبراير 1999

المصادر والمراجع :

1.4 - باللغة العربية :

-القرآن الكريم وأحاديث ورسائل الرسول صلى الله عليه وسلم

- أزاييط بنعيسى 1997 المعنى المضمر في الخطاب اللغوي العربي البنية والقيمة التنجيزية (مقاربة تداولية لسانية) ، أطروحة دكتوراه الدولة، نوقشت بتاريخ 1998/112/11 بكلية الاداب -مكناس

- أزاييط بنعيسى (1999) ،"اللسانيات العربية بين مد المستقبل وجزر الماضي "، مداخلة في ندوة دولية "مستقبل الأدب والعلوم الإنسانية في ضوء التفاعليات الحضارية الراهنة : الأسئلة والتوقعات" بكلية الآداب -تطوان بمناسبةتكريم الدكتور محمد الكتاني ، أيام 10-12 فبزاير 1999

- علي الجارم ومصطفى أمين ، البلاغة الواضحة ، دار المعارف بمصر .

- ديوان ابن زيدون : أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون (394-463 هـ)، شرح وتحقيق محمد سيد كيلاني نشر م. مصطفى البابلي الحلبي وأولاده بمصر ط 1375/2 هـ =1996 م .

- ابن رشيق : أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ) ، "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" ، حققه وفصله وعلق حواشيه م . محي الدين عبد الحميد ، دار الجيل -بيروت ط 19724 .

- أحمد مصطفى المراغي علوم البلاغة ، المكتبة التجارية (ط . 5) .

- طه عبد الرحمن 1998، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي ط 1/1998.

2.4 - باللغة الأجنبية:

- Grice, H-P : 1975 (=1979) << Logic and conversation >> , syntax and semantics, Vol.3, speech acts, Cole and Morgan (eds), Academic Press, trad.fr. in communications, 30, 1979.

- Grice, H-P: 1978: << Further notes on logic and conversation >> in Coll « Syntax and semantics ,Vol. 9. 1978.

- Levinson Stephane 1984
Pragmatics
Cambridge University Press. (eds) 1985.

- Wilson (Deirdre) - Sperber (Dan) 1979 :
<< L'interprétation des énoncés selon Paul Grice >> . in communications N°30 (80-94) 1979.

- Wilson (Deirdre) - Sperber (Dan) 1981 :
<< On Grice's theory of conversation >> . in Werth (1981 : 155-78):
conversation and discourse. London croom Helm.
- Grice, H-P : 1975 (=1979)
<< Logic and conversation >> , syntax and semantics, Vol.3, speech acts, Cole and Morgan (eds), Academic Press, trad.fr. in communications, 30, 1979.

- Grice, H-P: 1978:
<< Further notes on logic and conversation >> in Coll « Syntax and semantics ,Vol. 9. 1978.

- Levinson Stephane 1984
Pragmatics
Cambridge University Press. (eds) 1985.

- Wilson (Deirdre) - Sperber (Dan) 1979 :
<< L'interprétation des énoncés selon Paul Grice >> . in communications N°30 (80-94) 1979.

- Wilson (Deirdre) - Sperber (Dan) 1981 :
<< On Grice's theory of conversation >> . in Werth (1981 : 155-78):
conversation and discourse. London croom Helm.

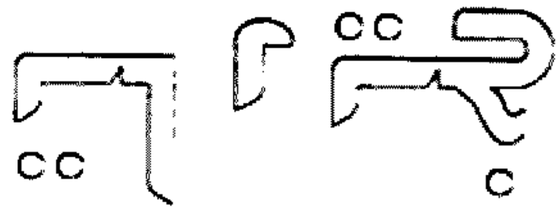

وصف بعثة سلطانية إلى الصحراء المغربية في القرن الثامن عشر «للإنجليزي توماس بيلو T. Pellow »

ذ . ادريس أبو ادريس
كلية الاداب مكناس

مقدمة :

توماس بيلـــو، انجليزي مـــن مواليد ميناء صغير بأنجلـــترا اسمه Penryn Cornowaille (كرنواي) سنة 1704 تم أسره من طرف المجاهدين السلاويين سنة 1716، وكان عمره 12 سنة، اعـــتنق الاســـلام، لكنه سكت في روايتـــه عن الاسم الذي أعطي له كمسلم، عاد إلى بلاده سنة 1738 ونشر مذكراته بانجلترا ما بين 1743-1745. لعب دورا مهما في إنجاح السفارة الانجليزية إلى المغرب سنة 1721 ، حيث تم عقد معاهدة بين المغرب وانجلترا .

لقد اعتمد الكثير من الباحثين على روايته حول المغرب حيث استطاعوا بواسطتها حل الكثير من الاشكاليات التاريخية كما فعل سبيلمان Spilleman في دراسته حول آيت عطا وكذلك مكالي مـــورسي M.Mersy في دراستها عن الزاوية الحنصالية، وغيرهما من الباحثين المعاصرين، وتعتبر الآن مصدرا مهما في التاريخ المغربي في القرن الثامن عشر - القريب منا زمنيا والبعيد معرفيا-.

قامت بترجمتها وتحقيقها مكالي مورسي M.Morsy ونشرتها سنة 1983 . قدمتها أصلا كأطروحة لنيل دكتوراه الدولة من جامعة نيس سنة 1976.

- تكون بيلو Pellow عسكريا في جيش السلطان المولى اسماعيل، الذي كان يتلقى تربية عسكرية منذ الصغر، واستمر هذا التكوين حتى سنة 1721، بعدها أعطيت له

قيادة فرقة عسكرية في عهد السلطانين المولى إسماعيل والمولى عبد الله، السلطانين اللذين أعطيا أهمية قصوى للمناطق الصحراوية، وتثبيت دعائم الاستقرار والازدهار الاقتصادي بها، حيث تعددت الرحلات والبعثات والقوافل التجارية إلى المناطق الصحراوية وكانت شنقيط المحطة الرئيسية. يقول الزياني عن رحلة المولى إسماعيل سنة 1089 هـ / 1678-79 م «ثم في عام تسعة وثمانين وألف توجه السلطان لتدويخ السوس وتمهيده فبلغ إلى طاطا وأقاوتسنت وشنقيط وقدمت عليه وفود العرب أهل الساحل والقبلة مغافرة ودليم وبربرش ومطاع وجراروودي وأدوا طاعتهم» (الزياني -البستان ص 153) وفي ذلك الوقت تزوج السلطان خناثة بن بكار المغفرية أم السلاطين.

ولقد انتقل بيلو في عهد السلطان إلى تامسنا ثم ذهب في حركات إلى الجنوب في الأطلس الكبير حتى درعة ثم التوات سنة 1724، حيث يقول «وامرنا السلطان بالذهاب إلى تافلالت لمرافقة القافلة التي ستذهب إلى التوات لمدة 70 يوما من المشي في الصحراء لحماية القافلة والاتيان بالمغارم والاتاوات إلى مدينة مكناس» وهي إشارة وحيدة تثبت وجود قصبة مخزنية، والأداء الدائم والتبعية المطلقة للجهاز المخزني المحلي (انظر نص بيلو ص 122) .

ثم انتقل إلى المغرب الشرقي إلى بني يزناسن ووجدة ، ثم سفره إلى الصحراء حتى نهر السنغال سنة 1731 في عهد المولى عبد الله وتحت قيادة الباشا منصور.

نص الرحلة :

«كنت في مكناس عندما جاء الأمر بذهابي مع بعثة عسكرية إلى بلاد آيت يمور (فبراير -مارس 1731) من أجل متابعة العصاة في الجبال ولمدة ثمانية أسابيع، وعدنا إلى مكناس غانمين، وبعد ثلاثة أسابيع، جاء الأمر بذهابي في الحال مع القافلة التي ستذهب إلي غينيا -بالنسبة للمؤلف تعني المناطق المحادية لنهر السنغال- وهذا الأمر أحزنني لأني كنت أعرف أن هذه الرحلة قد تدوم مدة عامين على الأقل، ولكني أعرف أن لافائدة من التدمر، لذا أخذت الطريق وأنا مظهر للمرح.

كنت على رأس قافلة من 12 ألف جمل، رقم لا يلبث يتزايد طيلة الطريق ، الليلة الأولى وقفنا عند وادي بهت والثانية عند ضاية الرومي والثالثة عند النهرين بورقراق

وگرو Grou ، والرابعة عند أم درمل؟ والخامسة واد نكيس والسادسة في مائة بيرو - قليلا شمال مدينة واد زم- والسابعة في البروج والثامنة في مشرع سيدي الدهلية Dahliya والتاسعة في المنزل والعاشرة في مراكش حيث مكثت قافلتنا- والتي توسعت في الطريق- لمدة ستة أيام للراحة.

انطلقنا في اليوم الحادي عشر واتجهنا إلى وادي النفيس، وفي الثاني عشر وصلنا زاوية ابن الحوات، الثالث عشر إلى كيشور(؟)، الرابع عشر (Algoraisassa) والثامن عشر آيت واعطيل، والسادس عشر سوق سبت اگزولن، والسابع عشر عين الوفرة؟ والثامن عشر اگرود، وهو خليج صغير يستخدم من طرف الصيادين والتاسع عشر واد تمرارت، واليوم العشرون في نهر واد سوس، يبعد بثلاث مراحل عن مدينة ساناتاكروز (اكادير)، الواحد والعشرون وصلنا ماسة، الثاني والعشرون إلى أگلو، الثالث والعشرون إلى سيدي أحمد اوموسى، حيث قبر أحد مشاهير الأولياء، الرابع والعشرون إلى ايفران، الخامس والعشرون إلى واد نون، ما وراء هذا المكان لا يوجد هناك منزل،السادس والعشرون تقدمنا حتى واد شبيكة، السابع والعشرون إلى الساقية الحمراء، وهنا دخلنا في الصحراء.

لقد أصبح عددنا الآن 30 ألف رجل و 60 ألف جمل، وكل رجل كان يتكلف بجملين وتقدمنا تحت إرشاد أعرابي مسن وفاقد لبصره، والذي قادنا بسلام، باستثناء من مات في الطريق- إلى قصر شنگيط. وكان علينا أن نقضي خمسة اشهر لاجتياز هذا المحيط من الرمل، وكان هذا القصر (شنگيط) يسكن به العامل المغربي (Gouverneur) - إذن تواجد مخزني دائم بدرجة عامل وليس خليفة محلي- وهو في ملك عرب يعتبرون أنفسهم من سلالة أعلى، ويكونون مع بقية المغاربة شعبا واحدا في الأصل. وطيلة مدة إقامتنا في غينيا كانت الأموال والهدايا المحصل عليها تجمع في هذا القصر، نأخذها معنا عندما تأتي قافلة أخرى تخلفنا في المكان نفسه، وكان لنا معسكرنا حوالي هذا القصر وفي محيطه، ولقد ذهبنا إلى واد النيل (نهر السنغال) لمرات ثلاث، حيث تم إخضاع بعض العصاة وكان سكان هذه المناطق خاضعين لأوامر السلطان .

عندما وصلنا لأول مرة إلى نهر السنغال رأينا سفينة فرنسية من حمولة 80 طن مع طاقم مكون من اثني عشر رجل، وكان المغاربة قد وصلوها عوما، وعندما أخذوا مافيها تركوها....

وقبل مواصلة حكايتي أود سرد حدث عجيب، وقع مع الرجل المسن الذي ارشدنا في الصحراء، فلمدة الخمسين يوما رأينا آبار للماء العذب في كل يوم أو ليومين على الأكثر، وكنا لا نلبث أن نستفيد منها، وكان الرجل يحثنا على ملإ قرابنا للتزود بالماء الكافي حتى البئر القادم الذي يوجد على بعد ثلاثة أيام من السير، وفيه أمرنا أيضا بالتزود بالماء الكافي، لأنه ولمدة خمسة عشر يوما سوف لا نجد الماء إلا في يوم من ثلاثة أيام، ولم يخطئ مرشدنا المسن .

كانت الرحلة بدون عناء كبير، وعندما وصلنا إلى آخر بئر من هذه الابار دعانا إلى حمل ما أمكننا من الماء وترك البهائم تشرب ما أمكنها من هذا الماء، حيث قال، المرحلة القادمة تتطلب مدة طويلة للوصول إلى الماء، وعلينا بالاقتصاد في اسهلاكه. كان الجو حار بحيث كنا في بداية الخريف (سبتمبر أكتوبر 1731) وفي اليوم السادس عندما أردنا أخذ الماء من قرابنا اكتشفنا باندهاش أن أغلبها فارغ، بفعل تأثير الشمس المحرقة تبخرت المياه من مسام الجلد، وهكذا عانينا من العطش لمدة أربعة أيام، مما نتج عنه غضب وسخط عام، كانت ستكون عواقبه وخيمة لولا أن شيخنا المرشد شجعنا وطلب منا أن نعالج مصيبتنا بالصبر، وطمأننا بأننا على وشك الوصول إلى الماء الوفير، وطلب من أحد رجالنا أن يعطيه حفنة من الرمل لشمها، بعد الشم مدة طويلة، قال لنا مبتهجا، أننا سنصل إلى بئر ماء في ظرف يومين، ونشرب آنذاك ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، وبهذا الأسلوب طمأننا فتابعنا طريقنا، وفي صباح اليوم الثاني طلب حفنة رمل، فتقدم أحد رجالنا ومد له نفس الحفنة التي شمها يومين من قبل، والتي احتفظ بها الرجل في قطعة من ثوب، شمها الأعرابي طويلا وأعلن آنذاك، هل الجيش رجع أدراجه إلى الوراء! وبذلك أحسسنا بذنبنا لمحاولة تغشيش هذا الرجل الضرير بمحاولتنا إسقاطه في الخطا..

فرد قائلا : إرم برملك، واطلب منك بشرفي أن تعطيني حفنة رمل حقيقية من هذا المكان، وبمجرد ما شمها أعلن قائلا :

- هذه هي التي تعبر عن انتظاري. وأخبرنا بأننا سنجد الماء قبل أربع ساعات بعد منتصف النهار، ففرحت كثيرا.. وعند الساعة الثانية عشر، طلب حفنة أخرى من الرمل، وقال : نعم ، نعم، هكذا عليها أن تكون، انظروا جيدا حولكم وعندما ترون الحيوانات الوحشية. والنعامات، والنسور أو أي طير آخر، لا تتأخروا في اخباري .

ولم نتعد نصف مرحلة حتى رأينا عددا من النسور في السماء، وبعد ذلك مجموعة من الحيواتات الوحشية والنعامات متجمعة في نقطة من الصحراء، وعندما أخبر بها مرشدنا، أمرنا بالذهاب مباشرة في اتجاهها حيث وجدنا عدة آبار مغطاة بجلد الحيوان، وليست بعميقة، وماؤها ممتاز، لكنه نبهنا من تعكير صفوها، نظرا لفراغ صبرنا على الماء، وأنه يوجد ما يكفي الجميع، ووعدنا أن يقودنا غدا مساء إلى بركة كبيرة، حيث بامكان الكل، بشر وحيوانات أن نشرب دفعة واحدة وتملأ القراب، وسوف لن يفقد الماء في ما تبقى من السفر ، حيث سيوجد إن قليلا أو كثيرا كل يوم .

وهكذا وجدنا أنفسنا بعد عطش مرير بجوار آبار، وكما وصفها الشيخ، وفي هذا المكان أقمنا خيامنا لقضاء الليلة، كما أن حيواناتنا كانت أكثر نشاطا لوجود المرعى الجميل، وبنشاط قمنا في الغد وبعد حرصنا على ملإ قرابنا وتغطية الآبار بعناية، انطلقنا في طريقنا بعزم وشجاعة، وكما أخبرنا المرشد، وصلنا عند المساء قرب بحيرة (لاشك أنها بحيرة ركيز Rkiz شمال نهر السنغال بين Dagana و Podoy) حيث توجد هناك نباتات كثيرة، وحيث تعيش حيوانات وحشية والنعام. فقررنا المكوث لمدة يومين، كنا نقضي فيها يومنا في اصطياد هذه الحيوانات، كنا علمني الشيخ كيفية اصطياد الطيور التي تقترب للشرب من البحيرة، حيث أمرنا بحفر عدة حفر بالقرب من الماء، كل حفرة تستطيع باتساعها وعمقها أن تخفي رجلين أو ثلاثة بأسلحتهم، وطلب منا أنذاك بإبعاد الجزء الأكبر من القافلة من أجل أن تقترب النعام حتى نتمكن من تصويب الضربات إليها، وبهذه النصيحة تمكنا من اقتناص عدد كبير منها، وتضمن صيدنا كذلك بعض السباع والظباء، والكل وضع في طنجرة الطبخ بدون تمييز بالرغم من أن لحم النعام طري وجيد بالمقارنة مع الطيور الأخرى، كما يمكنها أن تغذي عددا كبيرا من الرجال لأنها تزن على الأقل 200 ليفر (50 كلغ) ولحمها مشحم جدا لدرجة أنه عند تهييئه بعناية يمكنه تغذية ما يقرب من مائتي شخص دفعة واحدة .

عندما يريد عرب هذه المناطق أن يصطادوا النعامة يخرجون بأعداد كبيرة ويحيطونها من بعيد في متسع كبير، ويقتربون منها شيئا فشيئا حتى يتبعونها جريا ومطاردة، وهذا شيء قد يفاجئ القارئ الذي يتخيل أنه من السهل اصطياد طير لا يستطيع الطيران، لكني اؤكد لكم العكس لأن النعامة التي تطارد تجرى بسرعة بحيث لا تستطيع حتى الخيل المغربية مجاراتها وعند ما ترى نفسها قد نقصت سرعتها تحفز نفسها بمهاميز تنمو

تحت جناحيها ، وهي جد طويلة وحادة، مما يسمح لها بتجديد نفسها، كما تترك الأجنحة مطلوقة وبالرغم من أنها لا تسمح لها بالطيران إلا أنها تزيد من سرعتها لهذا السبب يتم ارغامها كأرنب محيطة برهط من الكلاب، إضافة إلى أن المنطقة تكون غالبا عارية فلا ملجأ للاختباء.

لنرجع إلى السفينة الفرنسية، إننا لم نجد فيها ذهبا لأن البحارة كانوا قد رموه، لم نجد إلا أنياب الفيلة وأفارقة سود أخذناهم معنا وأحرقت السفينة ونقل الكل إلى شنكيط، مات منهم أربعة بالصحراء في طريق العودة، وثمانية منهم حملناهم معنا حتى مكناس.

طيلة مقامنا البالغ إثني عشر شهرا تقريبا عند حدود غينيا، جمعنا كميات كبيرة من الذهب والعاج، وضمت بعثتنا عددا من الأفارقة السود، وبذلك أشرفت بعثتنا على نهاية مهمتها لأن قافلة أخرى على وشك الوصول، فجمعنا كل مقتضياتنا وأخذنا طريق العودة، فوصلنا بدون عناء إلى البركة التي دلني عليها الشيخ المرشد، فاسترحنا لمدة يومين لم ينقصنا فيها شيء، لأن الصيد وفير، بعدها تزودنا بالماء و انطلقنا باتجاه الآبار المذكورة سابقا وأقمنا معسكرنا، ولا زلنا ننزود بالصيد المحصل عليه بالبركة، ولم نمس زادنا الأساسي، ثم أخذنا الطريق في الصباح، وتأخرت وراء القافلة مع ستة من الأصدقاء من أجل صيد بعض الظباء، فرأينا فجأة عشرين من الأعراب متجهين بإبلهم نحونا، وعند مرور القافلة أختبأوا في تلال من الرمل المتكونة من الرياح العاصفية التي ستنقلها إلى مكان آخر. فاشتبكنا معهم بعد أن حاولوا أن ينصبوا لنا مكيدة، لكن عودة جنودنا لانقادنا دفعهم إلى الفرار، فنجوت من الموت بحيث مرت رصاصة بجوار صدغي، وجرح مغربي بجانبي، وقتلنا منهم ستة، ثم تعقبنا الآخرين فقتلنا أغلبهم، ولم نتمكن من ملاحقة ما تبقى منهم خشية الابتعاد والتيهان عن القافلة. وكان هذا هو الحدث الوحيد في هذه الرحلة.

وفي طريق العودة كنت بجوار الشيخ المرشد حيث كنت أطرح عليه الكثير من الأسئلة خاصة ما يتعلق بمعرفته الدقيقة والعميقة بالرمل ورائحته، فأجابني بأدب كبير قائلا بأن هذه هي السفرة الثلاثون في الصحراء وأنه قطع هذه الطريق ستين (60) مرة، ذهابا و إيابا وفي رحلاته الأربعة المتأخرة شعر بأن بصره ضعف، كما قام بعدة تجارب مستعينا بحاسة شمه القوية جدا، فاكتسب بذلك خبرة و معرفة جد متقدمة. إنه قادر، بالرغم من فقدان بصره، أن يحدد بالضبط، وفي أي وقت، المكان الذي يتواجد فيه

بالصحراء. في يوم كنت أسير بجانبه، فضرب جملي بأرجله شيئا نتج عنه صوت يدل على فراغه، فسألت الشيخ عما يكون هذا الشيء الموطوء فقال : مومياء، فسألته وماذا تعني مومياء، فرد قائلا إنها جسم بشري مدفون من مدة طويلة في الصحراء، ويبس بالحرارة المرتفعة، وكن متيقنا لو راه جراحونا ما تركوه هنا، خاصة لو وجدوه حسب ما يبتغون.

-كيف ذلك ولماذا، وهل هناك من هي أحسن من الأخرى فرد الشيخ:

- نعم، وهذا راجع للوقت الذي قضته في هذا المكان وإلى الحرارة ودرجة يبوسة المومياء .

- إذن اعتقد يا والدي المسن، إذا ما صدفت واحدة أخرى سيكون لي من الفضول لأستخرجها من الأرض .

وفي الغد وعندما كنت بجانبه مرة أخرى، قال لي : انزل إلى الأرض، حيث أن جمله داس مومياء، فاتبعت إشاراته فلامستها برأس سيفي، وباستخراجها بمجرفة لاحظت أنها يابسة وصلبة كالغادس (أو المورة). يابسة الأطراف، واللحم متغضن بالكامل، ولا زالت الأسنان متجدرة في الفك، أما الرائحة فليست بكريهة بحيث يمكن للمرء أن يقربها منه دون انزعاج أو تضايق.

وهكذا انتهى سفرنا دون أن يحدث أي شيء غير عادي، ووصلنا تادلا (قصبة تادلا) حيث كان ينتظرنا السلطان المولى عبد الله (أواخر سنة 1732) .

- وفي الختام نود إبداء ثلاث ملاحظات أساسية .

1) الرابطة القوية لشمال المغرب بصحرائه من الناحية الاقتصادية والسياسية والانسانية والفكرية والعقائدية.

حيث تعددت ومنذ قرون طويلة القوافل التجارية والبعثات والوفود المخزنية السلطانية، وتجددت البيعة والارتباط بالدولة المخزنية بصفة مستمرة.

2) لقد أفادنا هذا الوصف في وضع خريطة جغرافية وبيئية للصحراء المغربية حتى نهر السنغال وذلك :

- بتحديد نقط الماء الاساسية
- معرفة الحيوانات والطيور المتنوعة
- محطات بعض الخيرات المعدنية (كالملح والذهب) والسلع التجارية (كالعاج وغيره)

3) دور خيرات الجنوب حتى افريقيا السوداء في الاقتصاد المغربي ومنذ عهد السعديين (بالنسبة للتاريخ الحديث)، حيث لعبت الصحراء دور الوساطة في نقل سلع أفريقيا

المتنوعة إلى الشمال ثم إلى أوربا.

فكانت بذلك الصحراء بمثابة البحر بالنسبة لشعوب أخرى، مركز الاغتناء ومنطقة للتواصل البشري، ونقطة ارتكاز في نجاح أو فشل كل الدول المتعاقبة على المغرب.

****

هامش :

1 - حيث كان السلطان قد خرج إلى سوس سنة 1145 هـ / يونيو 1732 وواضح أنه التقى القافلة الآتية من الصحراء عند عودته من سوس بتادلا .

والرحلة بدأت في ربيع 1731 وصلت شنكيط في خريف 1731 لتعود إلى المغرب أواخر سنة 1732.

طرق ومحطات القطار في الجزائر وتونس

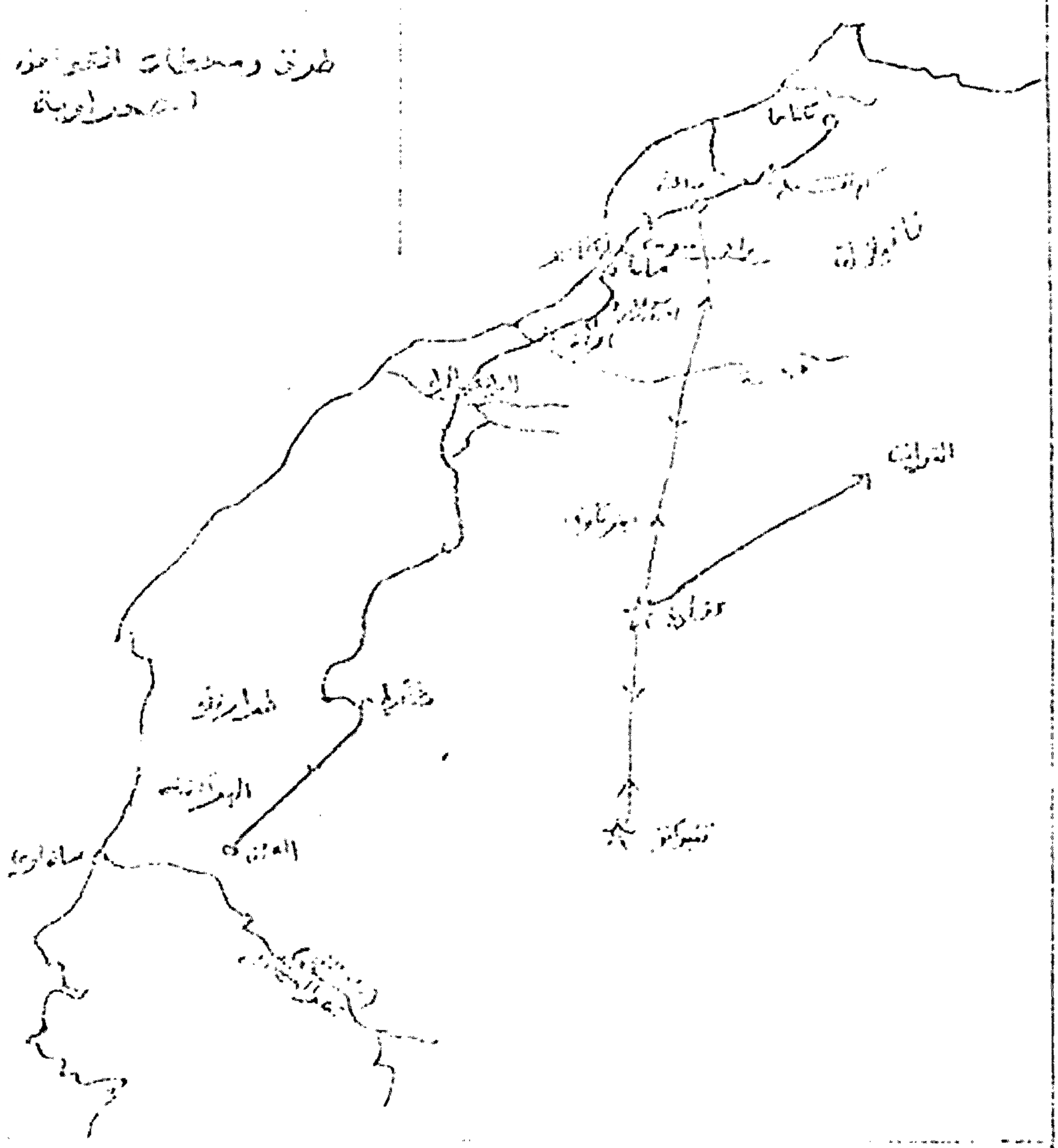

المفتاح :

- طريق القطار من الجزائر إلى تونس
- محطة ومحطات القطار في الجزائر
- الجزائر العاصمة
- تونس

تجربة مصر الإقتصادية على عهد محمد علي باشا
مسألة الإستفادة التقنية من الخارج

ذ. عبد الفاضل الصافي
كلية الآداب - مكناس

نود في بداية هذا البحث المتواضع، أن نذكر بأن مصر خلال الفترة المدروسة، لم تكن سوى ولاية عثمانية كباقي الولايات الأخرى. وبالتالي لم يكن من اختصاص ولا من حق الوالي محمد علي باشا ابرام أي تعاقد مع أية دولة أجنبية، كما كان من المفروض عليه أن ينفذ داخل حدود ولايته ، مضامين المعاهدات المجحفة التي أبرمتها السلطنة العثمانية مع الدول الأوربية . هذا من ناحية المشروعية القانونية الدولية، التي كان محمد علي باشا حريصا على عدم مخالفتها ، وفي نفس الوقت كان يقوم بقراءة متحايلة، بقدر ما يسمح به التأويل، لمضامين هذه المعاهدات. وكان الهدف الاستراتيجي من ذلك التحايل هو أعطاء مصر آليات اقتصادية وبالتالي سياسية، تمكنها من القوة التي كان محمد علي باشا يريدها أن تكون لها، تماشيا مع طموحاته السياسية .

كان محمد علي باشا في سلوكاته الخارجية، يتعامل بشكل فردي مع من له مصلحة في التعامل معهم. فقد كان يوقع اتفاقات شخصية مع الأطر الاجنبية الضرورية للنهوض باقتصاد البلاد، كما كان يفعل نفس الشيء مع التجار في ما يخص استيراد الآلات والمعدات الضرورية لذلك النهوض، أما القناصل الأوربيين في مصر، فلم يكن يطلب مساعداتهم لتسهيل بلوغ بعض المآرب، إلا بصفتهم أناس تربطه معهم صداقة شخصية وليس بصفتهم الرسمية.

جلب محمد علي عددا كبيرا من الأجانب لخبرتهم بالصناعات الحديثة وبكيفية استعمال الآلات التي يجهلها المصريون. كلما جلب آلة جديدة استدعى ذلك استحضار

خبراء جدد من البلاد التي جلبها منها ليتولوا صيانتها واستعمالها وتدريب المصريين على استعمالها. حصل محمد علي على طاقات فنية وعقلية من مختلف الأجناس، وكان رضاه عليهم مرتبطا باخلاصهم ومدى فائدتهم الجدية التي حصلت عليها البلاد منهم (1)، وجلب كذلك بعض المزروعات وجلب معها بعض العمال للاعتناء بها .

بلغ عدد الأجانب في مصر عام 1833 حوالي 4886، وكان هؤلاء الأجانب من الانجليز والفرنسيين واليونانيين وأهل المشرق وبلاد الجزائر ورومانيا وسويسرا واسبانيا والمانيا وتوسكانيا والنمسا وسردينيا وجزر البليار... وفي عام 1838 بلغ عددهم خمسة آلاف (2). ويمكن ترتيب هؤلاء من حيث العدد على هذا النحو : الايطاليين، الفرنسيين، الالمان، الإسبان، الانجليز ثم باقي الدول. كان كثير من الأوربيين يشتغلون بالتجارة، ولكن معظمهم كانوا يشتغلون في خدمة الباشا (3).

لا يمكن تتبع ورصد الحجم الذي ساهم به الافراد من نفس الجنسية في الثورة الاقتصادية التي قام بها محمد علي. ذلك لان المصنع الواحد مثلا نجد به عددا كبيرا من العمال من مختلف الجنسيات،وكذلك إن الوثائق المصرية ، لا تذكر احيانا جنسية العامل وتكتفي بذكر الاسم، وكمثال على ذلك صدر أمر من الباشا إلي مدير المنوفية في 30 ربيع الأول 1255 (1839) "أن المدعو ديغر أوسطى فابريقة الفخار... التمس منا اعطاءه 6 أولاد ليعلمهم صناعة الأواني" (4). وأحيانا لا تشير هذه الوثائق إلى جنسية العامل وإنما تصفه بكلمة "اورباوي" وكمثال على ذلك صدر أمر من الباشا إلى عثمان بك أحد المأمورين في 7 ذي الحجة 1250 (1834) باعطاء "الأوسطى الأورباوي الذي حضر من أوروبا 6 أفدنة... لتجربة زراعة القصب بها" (5). ان الوثائق تكتفي احيانا كذلك عند الحديث عن أحد الأجانب،باضافة كلمة "خواجة " إلى اسمه وكمثال على ذلك صدر أمر عن الباشا في 3 ذي الحجة 1248 (1832) إلى أحمد يكن باشا ناظر الجهادية، جاء فيه : "تعيين الخواجة ديرويه بماهية شهري..." (6) وهكذا لم تكن الوثائق والمصادر المصرية تذكر غالبا جنسية العامل موضوعها وهذا ربما كان راجعا إلى أن الباشا لم يكن في أوامره يحدد الجنسية. ففي سنة 1817 أمر الباشا وكلاءه في كل أنحاء أوربا بأن يحضروا له عمالا في كل التخصصات (7). ومثال آخر، فقد صدر من الباشا أمر بتاريخ 20 شعبان 1243 (1827) "إلى الخواجة حجن التاجر المتوجه إلى اوروبا باستحضار شخص له دراية تامة بصناعة الجوخ وعقد كنتراتو معه" (8) كانت احيانا الوثائق تشير إلى موطن الموظف باستعمال كلمة

الخارج، مثلا صدر أمر من محمد على في 11 ربيع الأول 1239 (1823) إلى لاظ أوغلي كتخذا بمصر يؤكد عليه "جلب أشخاص من الخارج لهم دراية بتربية النحل" (9). لا يمكن، على العموم، معرفة بدقة ويقين جنسية كل الموظفين وذلك لان الوثائف والمصادر المصرية تكتفي احيانا بنعت الاجنبي لا بجنسيته وانما بكلمة خواجه أو أورباوي.

كان أحيانا يشترك في ادارة المصنع عدد من الموظفين من مختلف الجنسيات أو يخلف مثلا فرنسي عاملا انجليزيا في عمله بعد مغادرة هذا الأخير له. لا نستطيع، تبعا لهذا، أن نحدد بدقة الحجم الذي ساهمت به أي دولة أجنبية على حدة، عن طريق مواطنيها، في الثورة الإقتصادية التي عرفتها مصر خلال فترة البحث .

سنحاول أن نشير إلى بعض الدول التي استقدم منها محمد على بعض العمال وذلك لطرد أي شك في أن الباشا اقتصر على استخدام عمال من جنسيات معينة ومحددة. ان محمدا عليا قد استعان بأفراد من دول جد متعددة ويصعب ضبطها كلها لطول الفترة ولان الفرد كان يستخدم لمدة وجيزة ويعوض بالمصريين أو المتمصرين الذين تعلموا على يده بعد إقالته (10)، أو يعوض بموظف أوربي آخر كما عوض المهندس الفرنسي المسيو هنري Henry المهندس الفرنسي الذي كان يشرف من قبله على أعمال ترسانة الاسكندرية وهو دي سيريزي (11).

يعتبر الايطاليون من أوائل من استخدم الباشا حيث أن سفن الباشا التي كانت تصل من ايطاليا سنة 1817 كانت تحمل له عمالا من هناك (12)، وقبل شهر ديسمبر من نفس السنة كان قد وصل إلي مصر 17 عاملا من ليفورن متخصصين في غزل الصوف (13). تجاوز بقليل عدد الإيطاليين سنة 1833 عدد الفرنسيين الذين كان عددهم 70 (14). لم يكن الايطاليون يشغلون مناصب صغيرة دائما وانما قد شاركوا، مثلا، الفرنسيين والانجليز في ادارة مصانع القطن (15).

إن الموظفين الانجليز رغم قلة عددهم الذي حدده البارون دي بوالكونت De Boislecomte سنة 1833 بحوالي 5 أو 6 موظفين (16)، ويحتمل أن يكون العدد أكثر من هذا الرقم، قد ساهموا بجهد واضح في ثورة محمد علي الاقتصادية. ساهم الانجليز بالخصوص في اقامة الصناعة، فالمهندس الانجليزي غالوى هو الذي وضع تصميم مسبك

الحديد ببولاق، وكان هذا المهندس يدير هذا المصنع بالاشتراك مع معلم وخمسة عمال انجليز (17). كما كان الموظفون الذين يستخدمون الآلة البخارية ويشرفون عليها في مبيضة رشيد انجليزا (18)، وعلى العموم فقد شغل الانجليز مناصب عديدة في معامل الباشا. ولم يقتصر دورهم في هذه الفترة على الاشتغال بالمصانع وانما كان لهم كذلك دور في النهوض بالفلاحة فمثلا في سنة 1827 كان روبرتسون -وهو خبير انجليزي- يشرف على زراعة قصب السكر في مساحة تقدر بحوالي 16000 فدان (19) وفي سنة 1247 (1832/31) كان هناك مهندس انجليزي للري يعلم 10 شبان مصريين هذا العلم (20). وقبل هذا في سنة 1241 (1826/25) كان بمصر انجليزي يدرب المصريين على زراعة الدوم واستخراج العسل منه (21)، والامثلة كثيرة .

استخدم محمد علي باشا كذلك بعض الاتراك، فمثلا، قد أحضر الباشا من الاستانة عمالا اخصائيين لنسج الحرير (22). وفي 11 ربيع الأول 1239 (1823) طلب الباشا من نجيب أفندي قبو كتخدا بالاستانة ارسال من لهم خبرة بتربية النحل (23). أما من تونس فقد جلب الباشا مشرفا وصناعا لمعمل الطرابيش بفوه (24). استقدم الباشا من سوريا 500 شخص لتربية دود القز في وادي الطميلات (25)، وللاشراف على غراسة اشجار التوت (26)، وأحضر الباشا من الهند أخصائيين للأشراف على اعداد النيلة. كما جلب جماعة من الأرمن للإعتناء بزراعة الخشخاش (27). أما من مالطا فقد كان عدد العمال كثيرا حتى سمى بولاق بمالطة لكثرة من يعملون بمصانعه من العمال المالطيين (28)، ولما سمع محمد علي بأن الامريكيين متفوقون في صناعة الآلات البخارية، استقدم بعض العمال من أمريكا (29)، كما أن الباشا استقدم من هناك جرجى هاوس وهو خبير في زراعة القطن للانتفاع بخبرته في تدريب الفلاحين على زراعة هذا النبات (30). كان في خدمة الباشا من الاسبان سنة 1833 حسب تقدير البارون دي بوالكونت، 5 أو 6 تقريبا (31). إن هذه الدول التي أسلفنا ذكرها لم تكن الوحيدة التي اشتغل بعض مواطنيها موظفين لدى الباشا بل كان هناك موظفون آخرون من النمسا وسويسرا والدانمارك ومن بلدان أخرى، لكن بطبيعة الحال سوف يكون الذين ساهموا بدور فعال في النهوض باقتصاد البلاد من الدول الأكثر تقدما، وهم الذين يستطيعون أن ينقلوا ذلك التقدم الاقتصادي الذي تعرفه بلدانهم إلى مصر.

إن محمدا عليا، على الأقل في البداية ، لم يكن يأخذ بعين الاعتبار جنسية العامل، فقد كان يقبل جميع من تقدموا إليه بدون تمييز بينهم، وكان أوائلهم خيارهم (32).

وفيما يخص الدول التي استورد منها محمد علي الآلات والمعدات والأدوات اللازمة للتنمية، فاننا لا نستطيع أن نحدد بالضبط كمية الآلات التي استوردها محمد علي من كل دولة على حذة وذلك لسببين: أولا، إن محمدا عليا كان يجلب الآلات والمعدات والأدوات من الخارج بواسطة أفراد تجار، وبإمكان التاجر أن يستوردها أو أن يستورد أي بضاعة أخرى موصى عليها من بلد آخر غير بلده الأصلي، فمثلا في سنة 1251 (1836/35) أمر الباشا التاجر توسجيه وهو يوناني باحضار جلود من فرنسا (33). ثانيا إن بعض الآلات والمعدات والأدوات وبعض السلع التي يوصي محمد علي بشرائها من الخارج لحسابه لا تدفع عنها الرسوم الجمركية في مصر، ومن ثمة لا تعلن الجمارك عنها شيئا (34)، وبالتالي لا تفصح الوثائق والمصادر على أصل السلعة وبخاصة أن أكثر أوامر الباشا لا تفصح على المكان الأصلي للسلعة بدقة وإنما تشير إلى الموطن بكلمة أوربا مثلا.

إننا نستطيع أن نقول أن البلدان التي كانت المصدر الأصلي لبعض الآلات والمعدات والأدوات التي جلبت إلى مصر في خلال فترة البحث هي البلدان التي كانت تنتج هذه الآلات، أي البلدان الأوربية الأكثر تقدما من الأخرى، وبطبيعة الحال كانت أقدم البلدان في الثورة الصناعية هي انجلترا وتليها ألمانيا وبلجيكا وفرنسا (35). وهذا لا يعني أن استيراد هذه البضائع اقتصر على هذه البلدان فقط.

إننا نميل إلى أن أكثر الآلات،بالخصوص، والمعدات والأدوات التي جلبت إلى مصر في خلال الفترة، هي من أصل انجليزي. ذلك بحكم أن انجلترا أقدم البلدان الأوربية في التصنيع، وإذا أضفنا إلى هذا أن التجار قد باعوا الباشا آلات ومعدات سبق استخدامها من قبل واثبتت التجارب عدم صلاحيتها للعمل (36)، فسوف نقول إن امكانية شراء آلات سبق استعمالها لن يتم إلا في انجلترا التي كانت في خلال الفترة تعرف تراكما صناعيا أدى بطبيعة الحال إلى ظهور أسواق للآلات المستعملة.

إن الباشا قد جلب من انجلترا عن طريق التجار عدة آلات نذكر منها على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر، آلات لكبس القطن سنة 1240 هـ (1825/24) (37) والآلات البخارية التي كانت بمبيضة رشيد (38). لم يكن الباشا يستورد الالات من انجلترا فقط وانما كذلك من بلدان أخرى كفرنسا وبلجيكا وامريكا والنمسا...الخ.

لقد جلب الباشا عن طريق التجار من بلجيكا بعض الالات، وكمثال على ذلك جلب الخواجة جيجينا Gigina إلى مصر سنة 1840 من هذه البلاد بعض الالات لحساب الوالي (39). كان الباشا يجلب كذلك بعض الالات والمعدات من أمريكا، وكمثال على ذلك استورد من الولايات المتحدة آلات ومعدات حديثة لفرز بذور القطن وتخليصها من الطفيليات العالقة بها (40). كما استورد منها آلات أخرى عندما علم بتقدم الامريكيين في صناعة الالات البخارية عن باقي دول العالم (41) كما سبقت الاشارة.

استورد الباشا كذلك من النمسا الاخشاب، خاصة في بداية عهده، وكذلك قضبان الحديد والالات القاطعة (42)، استورد الباشا من إستمبول بعض الآلات والفحم (43)، ومن البندقية بعض آلات ضرب الأرز وأخرى لحياكة الخيوط (44). لقد أوردنا هذه الامثلة، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، للاستدلال على أن محمد علي لم يقتصر على جلب الالات والمعدات والادوات من بلد دون آخر ونستطيع أن نقول أن محمدا عليا كان يستورد هذه البضائع من كل البلدان التي تتوفر فيها، وبطبيعة الحال كان يفضل أن يجلبها من البلد الذي يبيعها بأرخص ثمن.

لم يقتصر محمد على في مجال الاستفادة من الخارج في مجال الإقتصاد على استيراد الآلات وجلب الموظفين من الدول الأجنبية، بل بعث إلى بعضها كذلك بجماعات من الشبان ليتعلموا فيها العلوم المتعلقة بكل قطاعات الاقتصاد. كان هؤلاء الشبان قبل العودة إلى مصر يتدربون في مصانع وورشات بتلك الدول ان كانوا متخصصين في أحد فروع الصناعة (45) ويتدربون في الحقول المخصصة للتجارب والتابعة للمدارس التي تعلموا بها، في حالة ما إذا كانوا متخصصين في الزراعة (46).

لم يقتصر إرسال البعثات على فرنسا فحسب، بل أرسلت كذلك إلى انجلترا والنمسا وامريكا وايطاليا (47)، وبلغ عدد الطلبة المبعوثين إلى أوربا ما بين سنتي 1828 و 1836 مائة وثمانية طلبة، اتجه ستة وعشرون منهم إلى انجلترا وأربعة إلى فيينا والآخرون إلى

فرنسا (48). وقد كانت ايطاليا أول الدول التي استقبلت أول البعثات المصرية وكان ذلك سنة 1809 وفي سنة 1813 استقبلت ايطاليا البعثة الثانية (49) .

جلب محمد علي كذلك، في مجال الاستفادة من الدول، بعض المزروعات من بعض البلدان وعمل على نشر زراعتها في مصر. ونذكر مثلا، وليس على سبيل الحصر، أن الباشا كان قد أرسل إلى الهند الفرنسي جوميل لجلب نوع من بذور القطن. وفعلا عاد هذا الأخير إلى مصر سنة 1821 ومعه بذور هذا الصنف (50). كما جلب الباشا من الهند بذور النيلة (31)، ومن الشام وميلانو نوعا من التيل (52). نجد الباشا على العموم، يوصي باستيراد بذور كل المزروعات غير الموجودة في مصر، فمثلا صدر أمر منه في 11 ربيع الأول 1239 (1823) إلى قائد الجيش بقبرص يطالبه فيه بارسال بدور الذرة الحمراء لأنها غير موجودة في مصر (53).

يمكن حصر استفادة الباشا من الدول الأجنبية في العناصر الأربعة السابق الكلام عنها، أي جلب الموظفين منها، جلب الالات والمعدات والأدوات منها، إرسال البعثات العلمية إليها ثم جلب بعض النباتات او البذور منها.تفاوت حجم الاستعانة المتقدم بها من دولة إلى أخرى، وبطبيعة الحال سوف تساهم الدول الأكثر تقدما بالنصيب الأكبر، ومحمد علي هو الآخر يفضل التقرب إلى دول قوية اقتصاديا لكي ترعى مشاريعه. وسنحاول فيما يلي مناقشة موقف الدول الكبرى من محمد علي وتجربته، أو بعبارة أخرى موقف هذه الدول من ظهور قوة في المشرق العربي داخل إطار السلطنة العثمانية.

كانت فرنسا وانجلترا تعتبران من أقوى الدول في العالم اقتصاديا خلال الفترة، لكن انجلترا تعتبر في ميدان الصناعة أقوى من فرنسا وأسبق منها بكثير إلى الثورة الصناعية، وإن محمدا عليا كان في أمس الحاجة إلى المساعدات في قطاع الصناعة أكثر مما كان عليه الأمر في قطاع الفلاحة، ومن ثمة كان من المفروض أن يجعل من انجلترا أقرب الدول إليه وأن يعتمد عليها أكثر من دونها من باقي الدول للنهوض باقتصاد البلاد. لكن عوامل النفور في خلال هذه الفترة كان أقوى من أية عوامل أخرى تساعد على قيام التعاون.

كان محمد علي يريد النهوض بالإقتصاد من أجل تحقيق استقلال ذاتي لولاية مصر تحت حكمه وحكم سلالته من بعده، وكان يريد اقامة امبراطورية مترامية الاطراف، وهذا يتعارض مع مصالح انجلترا الاقتصادية والسياسية في الشرق. إن عدم وجود تقارب واضح وقوي بين الباشا والحكومة الانجليزية خلال فترة البحث هو نتيجة تعارض مصالحهما السياسية بالدرجة الأولى، فمصالح الباشا السياسية كانت تتعارض مع مضالح انجلترا السياسية في الشرق، زد على ذلك الصراع الفرنسي الانجليزي من أجل تحقيق التفوق السياسي في مصر والذي كان يذكي نار العداوة الانجليزية لمحمد علي، هذا الأخير الذي التقت مصالحه ومصالح فرنسا في المنطقة مؤقتا، كما سبق وأوضحنا ذلك في دراسة سابقة(*)، وتجنبا للتكرار نحيل عليها القارئ.

ما هو موقف انجلترا من تولي محمد علي ولاية مصر ومن تحركاته السياسية؟.

كانت المنافسة التوسعية الإحتلالية بين انجلترا وفرنسا شديدة، وشهد القرن 19 صراعا مريرا بين القوتين. وكانت مصر جزءا من المناطق المتنازع عليها. ولم يتوقف هذا التنافس الا بإمضاء الإتفاق الودي بين الطرفين سنة 1904، وفيه تخلت فرنسا لانجلترا عن مصر مقابل تخلي هذه الأخيرة لفرنسا عن المغرب (54) .

قام الصراع بين انجلترا وفرنسا في خلال الفترة الممتدة بين 1801 و 1805 من أجل الظفر بالتفوق السياسي في مصر، وكانت كل واحدة منهما تحاول توجيه ومساندة الجماعة التي ترى أنها بوسعها رعاية مصالحها في البلاد (55) . وقد انحازت فرنسا لطائفة البكوات برئاسة عثمان البرديسي وانحازت انجلترا إلى جماعة المماليك الأخرى التي يتزعمها محمد الألفي (56).

كان لزاما على محمد على إن أراد البقاء أن يكتسب مناصرة إحدى هاتين القوتين لتأييده، ولما كان ظاهرا بسبب السياسية الإيجابية التي اتبعتها انجلترا دائما -على عكس فرنسا- في صالح البكوات المماليك، أنه من المستحيل استمالة الانجليز إلى جانبه أو

---

*- عبد الفاضل الصافي ، حول سلوك محمد علي الخارجية : رد على ما ساقه العميد الركن الدكتور ياسين سويد، ضمن مجلة مكناسة، ع 5/4 ، 1990 - 1991.

التقرب منهم، فقد بذل الباشا مجهودا للتودد إلى القنصل الفرنسي ماتيولسبس، ثم إلى دروفيتي من بعده. وقد تكللت مساعيه بالنجاح مع دروفيتي بعد المناداة بولايته في مايو 1805 عندما وجد دروفيتي نفسه مضطرا إلى مساندة الباشا وقد صار واليا على مصر وذلك لتأييد المصالح الفرنسية ولتعطيل مشارع الانجليز ومصالحها في مصر (57). اعتقدت انجلترا نتيجة هذا التقارب أن والي مصر الجديد هو صنيعة فرنسا ومن ثمة فهو خصم للمصالح الإنجليزية في مصر واستمر مسيت Msitt القنصل الانجليزي يسعى لعزله وابعاده عن ولاية مصر(58) .

كانت انجلترا ترى أن المماليك هم الذين يستطيعون اقامة حكومة محلية (59) تستطيع دفع الغزو الفرنسي عن البلاد. واعتبروا أن تولية محمد علي لا تلبث أن تزيد من خطورة الفوضى المنتشرة، ومن عوامل اضعاف البلاد وانهاك قواها وتعريضها لخطر الغزو الفرنسي من جديد (60) . ان تولية الالفي كانت تعني بالنسبة للانجليز الحصول على طريق إلى الهند لا ينازعهم فيه منازع (61). أما تولية محمد علي الذي هو في اعتقادهم موال لفرنسا -كتب مسيت إلى السير الكسندربول في مالطة في 22 شتمبر 1805 يقول: "إن الوجه البحري قد دان الآن لسلطات رجل يخلص كل الاخلاص لفرنسا" (62). فيعني تهديد هذا الطريق. وقد كتب مسيت إلى محمد علي في يوم 14 أبريل 1806 يقول : " إن رغبة الحكومة الانجليزية هي أن تتمتع حكومة مصر بسلطة كاملة مطلقة حتى يتسنى لها الدفاع عن البلاد، لأنه إذا استولى الفرنسيون عليها استطاع هؤلاء في سنوات قليلة اعداد الحملات وارسالها ضد ممتلكات الانجليز في الهند". (63)

ظل الانجليز، لهذه الاسباب ولاسباب أخرى، يكنون العداء لمحمد علي باشا ويحاربون ولايته على مصر ولم يتوقفوا عن محاولة اسقاطه وتسليم القطر المصري للمماليك (64)، ففي يوم 3 أغسطس 1805 زار القنصل الانجليزي وممثلو الالفي بك وعلي باشا (ممثل الباب العالي في الاسكندرية وهو القبطان باشا)، وعرضوا عليه فكرة طرد محمد علي باشا والالبان بالتعاون عسكريا مع المماليك (65). وبقي الموقف الانجليزي من تولي محمد علي باشا ولاية مصر واضحا حتى أرسلوا حملتهم المشهورة على الاسكندرية سنة 1807 (66)، والتي كانت سبب القطيعة المؤقتة بين الطرفين وسبب التخوفات التي بقي محمد علي يشعر بها اتجاه الانجليز (67).

عادت انجلترا وبدأت تعمل من جديد سنة 1808 لاعادة العلاقات طيبة مع الباشا، (68) وذلك للوقوف في وجه أي شكل للنفوذ الفرنسي في مصر، فبدأت توصل أخبار النشاط السياسي العسكري المعادي لسلامة مصر إلى مسامع محمد علي. فأخبرته بالاستعدادات التي يقوم بها نابليون لغزو مصر من جديد سنة 1808، واستمرت تذكره دائما بهذه الحملة وتوصل أخبار الاستعداد لها إليه، فقد لاحظ القنصل الفرنسي دروفيتي أن الباشا سنة 1811 كان جد قلق أكثر من أي وقت مضى من الأخبار التي تصله عن الاسطول الفرنسي الذي يعد في تولون. (70) أصبح الانجليز بعد مذبحة القلعة مرغمين على جذب الباشا إليهم خدمة لمصالحهم (71) وبخاصة أن من كانوا ينوون فيهم خدمة مصالح انجلترا في مصر قد قضى عليهم الباشا تماما في هذه المذبحة.

ان تخوف محمد علي من قوة أخرى، زيادة على أسباب أخرى تتمثل في طموحاته، دفعه إلى أن يحاول صيانة علاقاته الضيقة جدا مع الانجليز (72) وبخاصة وأنه كان يعرف معرفة اليقين أن انجلترا هي الأقوى في ساحة البحر المتوسط. كان الباشا يريد بالتقرب إلى الانجليز، ابعادهم عن احتلال مصر، لانه كان يعيش تحت شبح الخوف من تقسيم الامبراطورية العثمانية واحتلال مصر من طرف انجلترا. (73) كان الباشا قبل سقوط نابليون يخشى فرنسا أكثر مما كان يخشى انجلترا ولذلك فهو كان يفضل -في خلال الفترة- التعامل مع الإنجليز لحماية مصالحه. (74) وكان هؤلاء يرمون إلى حمايته ليجعلوه بعد ذلك تابعا لهم ومن ثم يتمكنون من مصر التي كانوا يخشون عليها دائما من فرنسا (75).

إلا أنه بسقوط نابليون وعودة أسرة البربون إلى الحكم في فرنسا زال أكبر الاسباب التي دفعت محمد علي والانجليز إلى التقارب، وبخاصة أن الحدث عايش أحداث بداية توسع الباشا باتجاه الشرق والجنوب، الامر الذي اقلق الانجليز، فعادت عداوتهم للباشا تتصاعد من جديد بسبب تخوفهم منه وهو الذي يستولي على موقع متميز على الطرق القديمة إلى الهند. وهكذا بدأت أطماع ومصالح الباشا تتعارض مع أطماع ومصالح الانجليز في الشرق.

بعد تأسيس الخرطوم سنة 1822 بدأت الجيوش المصرية تعمل على اخضاع شرق السودان حتى البحر الأحمر، وفعلا أصبح جزء كبير من هذه المنطقة تحت حكم محمد علي، مما زاد من سخط انجلترا عليه (76) أطلق الباشا جيشه إلى الجزيرة العربية (1813-1819)

ثم إلى السودان (1820-1823) بهدف بعيد هو الاستيلاء على الحبشة. وإذا بانجلترا التي كان يجاملها ويحاول كسبها إلى صفه تنقلب ضده، خصوصا وأنه تسلل إلى ثلاث مناطق داخل حدود نفوذها وهي البحر الأحمر والخليج الفارسي/ العربي والحبشة، ولا غنى لها عنها لتأمين طريقها إلى الهند. (77) إن توسعات محمد علي في الشام هي الأخرى كانت تتعارض مع مصالح انجلترا، فمن الناحية التجارية كان من شأنها أن تجلب الدمار للتجارة الانجليزية، ذلك أن سياسة محمد علي تميل إلى الحد من معاهدة الامتيازات بقدر ما تسمح به القوانين. (78) ومن الناحية السياسية فان امتداد مصر في هذا المجال الحيوي الذي استحودت عليه يجعلها دولة بحرية قوية تستطيع أن تقف في وجه انجلترا في البحر وتقطع طريقها إلى الهند. (79) كما أن هذه الامبراطورية الجديدة، بحكم موقعها، ستحمل طابعا إفريقيا وآسيويا في آن واحد، وسوف تتدخل كلما قويت داخليا في شؤون إحدى القارتين كما جاء في تقرير فارين إلى حكومته (29 ماي 1834) ولهذا كله عارض بالمرستون بقاء الشام في يد محمد علي، واستقر على لزوم تصفية هذا الأخير سياسيا وعسكريا إذ حدد لسفيره في فيينا اللورد بينفيل سياسته تجاه محمد علي كما يلي : "المهم هو الحرص الشديد على أن لا تترك لمحمد علي أي سلطة تتخذ شكل استقلال أو سيادة أو حتى سماتها". (80)

كانت انجلترا ترى في سلامة الامبراطورية العثمانية عاملا للحفاظ على توازن القوى الأوربية (81) كما ترى في سقوطها أمرا يعرض ممتلكاتها في الهند للخطر ويسمح لروسيا بالتوسع. (82) وبعد وصول محمد علي إلى آسيا الصغرى وأصبح يهدد اسطمبول سنة 1832، تحالفت روسيا مع السلطنة العثمانية في 27 دجمبر 1832 ودخلت روسيا بأسطولها إلى البوسفور فاغتاضت انجلترا من ذلك (83). وهكذا اقتنع بالمرستون بأن تحركات محمد علي تجعل سلامة الامبراطورية العثمانية في خطر، وكان يشك في أن محمدا عليا يتعاون مع روسيا لاسقاط الامبراطورية العثمانية وتكثيف التأثير الروسي عليها. (84)

تخوفت انجلترا على أمن تجارتها مع الشرق الأقصى عندما دفع محمد علي هجوماته باتجاه جنوب الجزيرة العربية. (85) لقد خشيت بريطانيا أن يمسك الباشا بمفاتيح البوابة الجنوبية للبحر الأحمر، وغاضها أن تصبح مصر قابضة بيدها على طريقي التجارة مع الشرق (طريق السويس والطريق المار بسوريا من اسكندرونة وحلب ونهر الفرات ثم

البصرة). فقد كانت سوريا ما تزال تحت حكم الباشا، ثم ها هو يريد أن يثبت قدمه في اليمن. كتب بالمرستون إلى القنصل العام في مصر يقول :

> ليكن معلوما أنه ليس بوسع بريطانيا أن تنظر بدون اكتراث إلى أية محاولة يقوم بها محمد علي ليغزو أو يستولي على أي بلاد تقع عند مدخل البحر الأحمر، أما فيما يخص احتلال المصريين لليمن فعليكم أن تبلغوه (محمد علي) أنه ليس لدى بريطانيا أية رغبة في أن يستمر هذا الاحتلال... إن مدينة عدن وميناءها والاقليم الذي فيه قد تنازل عنهما سلطان عدن لبريطانيا وسنحتلها دون ابطاء... وعلى ذلك فإن أية محاولة عدوانية تقوم بها جيوش محمد علي ضد عدن ستعتبر عدوانا على املاك بريطانيا وتتخذ بشأنها الاجراءات اللازمة على هذا الأساس. (86)

يتضح، من خلال الاشارات السابقة، أن مصالح وأهداف الباشا كانت تتعارض مع مصالح انجلترا في الشرق ومن ثمة استحال التقارب الكامل بين الطرفين، بالرغم من أن الباشا كان يود التقرب من أية دولة اوربية حتى يجعلها تناصره ضد الباب العالي .

ظلت انجلترا هي الأخرى تجامل محمدا عليا لما اتضح أنه سيد مصر بدون منازع، وذلك للحفاظ على مصالحها التجارية والسياسية في مصر، في إطار الصراع القائم بينها وبين فرنسا حول مصر. لا يمكن إذن لانجلترا أن تكون الحليف الأول لمصر وذلك للاسباب السابقة الذكر، ومن ثمة فقد حاولت أن تحتفظ لنفسها بمكانة لابأس بها بين الدول التي تتعامل مع محمد علي، وتقيم معه علاقات اقتصادية مثل التي اقامتها فرنسا معه دون أن تحاول أن تتبنى مشاريع الباشا، كما فعلت فرنسا نسبيا .

وفي نهاية هذا البحث المتواضع، نود أن نشير إلى أن الموقع الاستراتيجي الذي كانت مصر تتمتع به خلال الفترة و الذي ميزها جيوسياسيا على باقي دول العالم قد كان نعمة (الموقف الفرنسي) ونقمة (الموقف الانجليزي) عليها في نفس الوقت. وفي رأينا المتواضع كانت الأهداف الجيوسياسية العامل الرئيس الذي أسهم في خلق وتوجيه الصناعة

وإعطائها طابع الضرورة الآنية ذات بعد استراتيجي فرضته الحرب المرتقبة. مما جعلها عبئا ثقيلا على الإقتصاد المصري خلال الفترة. ومما أسهم -قبل معادة لندن 1840- في فشلها. فقد بدأت المصانع تغلق أبوابها ابتداء من سنة 1837، وذلك لأسباب عدة، لا مجال لذكرها الآن.

الهوامش

1 - عبد الهادي مسعود، الثورات الحديثة في الشرق، ج 1 (الثورات في مصر)، مطبعة مخيمر، مصر 1953، ص 126

2 - محمد فؤاد شكري وآخرون، بناء دولة مصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة 1948، ص 34.

3- Hamont (P.N.), *L'Egypte sous Momamed Ali : populations, gouvernements, institutions publiques, industries, agriculture*, tome 1, Leauty et le Cointe, Paris, 1845, p.427.

4- أمين سامي، تقويم النيل، ج 2 (عصر محمد علي)، مصر 1916، ص 495.

5- نفسه ، ص 433

6- نفسه، ص412

7- Lettre de Roussel au Duc de Richelieu, Alex 22/7/ 1817, in DRHAULT (E.) *La formation de l'Empire de Mohamed Aly de l'Arabie au Soudan (1814-1823)*, correspondance des consuls de France en Egypte, Institut Français d'Archéologie orientale du Caire, Le Caire, p.63

8- أمين سامي، المرجع المذكور، ج 2 ، ص 334

9- نفسه، ص 310

10- تقرير كامبل، ضمن محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع المذكور، ص 779

11- محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع المذكور، ص 145

12- Lettre de Roussel au Duc de Richelieu, Alex. 22/7/1817 in Driault (E), op.cit., p.63.

13- Lettre de Roussel au Duc de Richelieu, Le Caire 19/12/1817 in Driault (E), op.cit. p. 89

14- Lettre du Baron de Boislecomte au ministre 1/7/1833 in Douin (G.) *La Misson de Baron de Boislecomte* , L'Egypte et la Syrie en 1833, Institut Français d'Archéologie orientale du Caire, Le Caire, (1927), p.109

15- Riffaat (M.Bey), *The Awakening of Modern Egypt*, Longman Green and C.O, London/ New York, Toronto, 1947, p 45

16- La mis- Lettre du Baron de Boislemomte au ministre, 1/7/1833 in Douin (G.)

17- كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، ج 2، ترجمة محمد مسعود، مصر، د. ت. ص 453. sion du Baron de Boislecomte, p.10

18- Hamont (P.N) op.cit., tome 1, pp.179-180

19 - اسماعيل محمد زين الدين، الموظفون الاجانب ودورهم في الادارة المصرية 1820-1882 رسالة ماجستير ، قسم التاريخ، آداب القاهرة 1983، ص 126.

20- أمين سامي، المرجع المذكور، ج 2، ص 383.

21- نفسه ص 323

22- كلوت بك، المرجع المذكور ، ص 447

23- أمين سامي، المرجع المذكور ج 2 ص 310

24- كلوت بك، المرجع المذكور، ج ا، ص 449.

25- Tomiche (N.), *L'Egypte Moderne*, , Presses Universitaires de France,1966, Que sais-je n°459, pp.16-17.

26- Lettre du Baron de Boislecomte au ministre, Alex, 29/6/1833 in Douin (G.) La mission du baron de Boislecomte, p 84

27 - راشد البراوي ومحمد حمزة عليش، التطور الإقتصادي في مصر في العصر الحديث، ط 5، النهضة المصرية، القاهرة 1954، ص 57

28 - محمد فهيم ، تطور صناعة القطن في مصر، مطبعة عبد وأنور أحمد، القاهرة 1972، ص 173.

29- Hamont (P.N), op.cit., tome 1, p 182

30 - اسماعيل محمد زين الدين، المرجع المذكور، ص 124

31- Lettre du Baron de Boislecomte au ministre, Alex, 29/6/1833 in Douin (G.) La mission de Boislecomte, p 109.

32 - محمد فؤاد شكري وآخرون : المرجع المذكور ص 24

33 - أمين سامي، المرجع المذكور ج 2 ص 438

34 -محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع المذكور ص 234

35- Claphan (j.H.) T*he Economic development of France and Germany, 1815-1914*, Fourth Edition, cambridge at the University press, 1961 p 57

36 - تقرير بو الكونت.ضمن محمد فؤاد شكري وآخرون، المرجع المذكور، ص 229.

37 - أمين سامي، المرجع المذكور ج 2 ص 317

38- Hamont (P.N), op.cit., tome 1, pp.179-180

39 - أحمد محمد حسن الدماصي، نظام الإحتكار في مصر في النصف الأول من القرن 19، رسالة ماجستير، آداب القاهرة، 1984، ص 460.

40- اسماعيل محمد زين الدين. المرجع المذكور ص ص 124-125

41- Hamont (P.N) op.cit., Tome 1, p 182

42- أحمد الدماص، المرجع المذكور، ص 450

43- عبد الله فؤاد ربيعي،نظام الإحتكار في مصر في النصف الأول من القرن 19، رسالة ماجستير، كلية البنات، جامعة عين شمس، القاهرة، 1979، ص 165.

44- أحمد الدماص، المرجع المذكور، ص 175

45- Hamont (P:N) op.cit., pp 184-185

46- أحمد أحمد الحتة، تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير، الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، القاهرة 1950، ص 150.

47- السيد رجب حراز : المدخل إلى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثماني إلى الإحتلال البريطاني (1517 - 1882) دار النهضة العربية، القاهرة 1970، ص 222.

48- أنور عبد الملك، نهضة مصر، تكون الفكر والإديولوجية في نهضة مصر الوطنية (1805 - 1892)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1973، ص 131.

49- السيد رجب حراز، المرجع المذكور ص 222

50-أحمد أحمد الحتة، تاريخ الزراعة المصرية ...ص 198

51- راشد البراوي ومحمد حمزة عليش، المرجع المذكور، ص 57

52- أحمد أحمد الحتة، تاريخ الزراعة المصرية... ص 217

53- أمين سامي، المرجع المذكور ج 2 ص 310.

54- شوقي الجمل، تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ، ط 2 الانجلو المصرية القاهرة، 1980 ص ص 490 - 491.

55- محمد فؤاد شكري، مصر في مطلع القرن 19 (1801-1811) ج 1، مطبعة جامعة القاهرة 1958، ص 174.

56- نفسه ص 29

57- نفسه ص 180

58- نفسه ص 176

59- Dodwell (H.) *The Founder of Modern Egypt*, a study of Muhamet Ali, Cambridge University Press, 1931 p.23.

60-السيد رجب حراز المرجع، المرجع المذكور، ص 180

61-ادوارد جوان، تاريخ مصر في القرن 19، ترجمة محمود مسعود، القاهرة 1921، ص342.

62- نقلا عن محمد فؤاد شكري ، المرجع المذكور، ج 2 ،ص 513.

63- نقلا عن نفسه، ص 522.

64- نوال قاسم ، تطور الصناعة المصرية منذ محمد علي حتى عبد الناصر، مكتبة مدبولي، القاهرة 1987، ص 6.

65- Lettre de Drovetti a Talleyrand, Alex 4/8/1805 in Douin (G.) Mohamed Aly Pacha du Caire, 1805-1807, correspondances des Consuls de France en Egypte, Institut Français d'Archéologie orientale du Caire, Le Caire 1926 p 67

66- محمد صبري ، تاريخ مصر الحديث من محمد علي إلى اليوم، دار الكتب المصرية، القاهرة 1926، ص 34.

67- Louis Brehier, L'Egypte de 1798 à 1900, Colbert et Cie, Paris, 1900. p. 98

68- Lettre de Drovetti au ministre, Le Caire 12/3/1810, in Driault (E.) Mohamed Aly et Napoléon 1807 1814 Correspondances des consuls de France en Egypte, Institut Français d'Archéologie orientale du Caire, pour la S.R. de G.d'E, Le Caire 1925, p.57

69- Driault (E.) *Mohamed Aly et Napoleon*, p.XXIII.

70- Lettre de Drovetti au ministre, Caire 19/4/1811 in Ibid, p.119

71- Lettre de Drovetti au ministre, Caire 4/3/1812, in Ibid, p.113

72- Lettre de Saint Marcel au ministre Alex 3/7/1811 in Ibid p 132

73- Mohamed Sabry, *L'Empire Egyptien sous Mohamed Ali et la question d'Orient (1811-1849) : Egypte, Arabie, Soudan, Morée, Crète, Syrie, Palestine*. Librairie orientaliste, Paris, 1930, pp.33-35

74- Lettre de Drovetti au Ministre Alex. 28/11/1812 Driault (E.), *Mohamed Aly et Napoléon* , p. 203 .

75- Lettre de Saint Marcel au ministre, Alex 20/2/1812, in Driauls (E.) *Mohamed Aly et Napoléon* , pp 173-17

76- Tomiche (N.), op.cit. , pp 16-17

77- أنور عبد المالك، المرجع المذكور ص 255

78- ياسين سويد (العميد الركن) البعد الاستراتيجي لحملة محمد علي على بلاد الشام، ضمن مجلة دراسات عربية ، العدد 3 السنة 23 كانون ثاني (يناير) 1987، ص 10

79- عبد الرحمن الرافعي بك، عصر محمد علي ط 3، النهضة المصرية، القاهرة، 1951 ص ص 329- 331

80- ياسين سويد ، المرجع المذكور ص 11

81- Rodkey (F.S.), The attempts of Briggs and Company to guide Britich policy in

the Levand in the interest of Mehmet Ali Pasha (1821-1841), in *The Journal of Modern History, n°3, V.7, September 1933*, The University of Chicago Press, U.S.A., p.324.

-82 Ibid., p 338

-83 Tomiche (N.), op.cit., pp. 17-18

-84 Rodkey (F.S) op.cit., p.342

-85 Tomiche (N.) op.cit., p.18

86- نقلا عن محمد رفعت سباق مصر وبريطانيا على عدن في عام 1838 ، ضمن مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، ع 1، مارس 1969، القاهرة، ص ص 218- 217.

وثيقة انجليزية في وصف المغرب خلال النصف الأول من القرن السابع عشر

ذة. زهراء إخوان
عمادة جامعة المولى إسماعيل
مكناس

تعتبر الفترة التي تمتد من وفاة السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي سنة 1603 إلى دخول السلطان العلوي مولاي الرشيد مدينة فاس سنة 1667 من أكثر فترات تاريخ المغرب غموضا واستعصاء على التحليل، ولا يعود ذلك إلى ندرة المصادر بقدر ما يعود إلى نقص التفاصيل. فتاريخ الفترة معروف في خطوطه العامة بفضل المصادر التاريخية العامة المتداولة (1). لكن الذي يساعد في استكمال مكونات الصورة العامة ويفي بجزئيات تفاصيلها يتمثل في الوثائق الأوربية المتسمة بالتدقيق في التفصيل والاستقصاء في الجزئي، مما يمكن من فهم كثير من موجبات النزاع ووجوه الصراع.

سبق أن ألمحنا في بحث سابق (2) إلى ظهور وثائق وتقارير حديثة عن مغرب النصف الأول من القرن السابع عشر، إسبانية وبرتغالية (3)، تلقي أضواء جديدة على أحداث المغرب غداة وفاة أحمد المنصور. ويسرنا أن نقدم اليوم وثيقة جديدة تصف أحداث نفس الفترة من قبل إنجليزي عايش الأحداث ووصفها واحتفظت الأرشيفات بوصفه.

لا يخفى ما كان لبلاد المغرب عند أروبا في الفترة المعنية من مكانة، لا بسبب ثرواته فحسب، بل بما يمكن أن يلعبه من أدوار في المعطيات العامة لعلاقات التعامل بين القوى العظمى أنئذ.

وفي هذا الإطـــار وصـــل إلى المـــغـرب سنة 1636 تاجـر إنجليـزي هو روبـرت بليك (Robert Blake) وكيـلا لتجار إنجليز، تمكن من ربط الصلة بسلطان الوقت محمد الشيخ الأصغر السعدي (4) فكان ذلك بداية لسلسلة من المفـــاوضـــات والاتصـــالات بين ملك ابريطانيا والسلطان السعدي، كان من بينها زيارة بليك لمراكش صيف سنة 1638. وكان من بين مرافقيه في هذه الزيارة عدد من النبلاء الانجليز، من بينهم واحد أوجس من نفسه رغبة وأحس قدرة على تحرير مذكرة عن زيارته تلك للبلاط المغربي في مراكش. وقد سلم المعني بالأمر مذكراته هاته إلى المدعو كارتريت (5) حيث كانا معا بمراكش سنة 1638. وقد استعمل كارتريت هاته المذكرات لتحرير تقريره، ثم سلم الأصل إلى أميرال ابريطانيا، فظلت في عقبه، محفوظة في أرشيف الأسرة، إلى أن نشرها دي كاستر في مجموعة "وثائق لم يسبق نشرها عن تاريخ المغرب" (6).

قمنا بترجمة الوثيقة المعنية، ونبهنا على ما اعتراها أحيانا من أخطاء، كما عملنا على تسهيل قراءتها والاستفادة منها عن طريق التعريف بما ورد فيها من أسماء أعلام - دون المشهور منها- أو ما أشارت إليه بالاقتضاب من أحداث تاريخية.

وهذا نص الوثيقة :

موجز بعض اخر الأحداث بمملكة مراكش

توفي مولاي زيدان، ابن وخليفة مولاي أحمد العظيم(7)، بمنزله في هدوء بمراكش حوالي 1627 (8) بعد أن حكم ما يقرب من أربعة وعشرين عاما. وقد ترك خمسة أبناء - عاشوا بعده- هم : مولاي عبد الملك، (9) ومولاي الوليد (10) الذي خلفه، ومولاي إسماعيل (11)، الذي مات خنقا على يد مولاي الوليد. ويحكم الآن بفاس أو يغتصب الحكم -مولاي أحمد (12)، كما يحكم مراكش حاليا مولاي محمد الشيخ الأصغر (13) ولقب الشيخ أطلقه عليه والده لأنه كان أثيرا لديه، ذلك أنه لقب خاص برئيس قبيلة أو عائلة. وهكذا أصبح يعرف بهذا الإسم الذي أطلق عليه تساهلا. أما مولاي عبد الملك فكان والده في أواخر أيامه يشك فيه، حيث كان قاسي الطبع فاسقا، ولذلك كان شبه محبوس في القصبة، رغم حضوره المشرف كأمير ووريث بارز يتوفر على معسكر متميز ويتصرف بشجاعة نادرة، ظهرت مثلا أثناء فرض غرامة موغادور (14) التي أحدثت تذمرا في هذه الربوع، وثورة سيدي إبراهيم (15) وسيكون من المفيد سرد دقائق هذه الأحداث لأنها تثبت النباهة والذكاء اللذين نسبا إلى ذرية مولاي أحمد. وقد رفض إبراهيم هذا الغرامة التي يفرضها

السلطان على بعض القبائل من حلفائه وجيرانه. والغرامة ضريبة تعسفية يفرضها السلطان على هؤلاء العرب، وتتسبب غالبا في ضياعهم. وقد استخدم في هذه المهمة القائدين : إبراهيم و Cletla وهما أندلسيان، رجعا إلى زيدان متظلمين وعسكرا مع محلته قرب آسفي بعد أن واجهتهما مقاومة بعض جنودهما.

حاليا تقدم السلطان مع جيشه الرئيسي لمعاقبة إبراهيم واتباعه على وقاحتهم. لكنه لم يتمكن من اعتقال أي شخص، لأن هولاء كانوا قد اختفوا -محميين- في غابات أركان، وهي أنواع من الاشجار تنمو بكثافة في هذه الربوع. لذلك انسحب بعد أن اكتفى بالانتقام، حيث أحرق زرعهم، وقد أعادوا زرعه وتم حصده من جديد الآن وجعل في مطامير.

وقد زاد سيدي إبراهيم في التعنت، جاليا بذلك طغيان مولاي زيدان الجهنمي، ذلك أنه وعد الذين سيتبعونه باقتيادهم إلى مكان فيه كنز مخبأ يعوضهم بما فيه الكفاية عن المضرة التي تكبدوها نتيجة لغارة محلة السلطان الأخيرة. وبناء على هذه الوعود اجتمع فجأة ستة آلاف من العرب وساروا معه إلى أن بلغوا واد أم الربيع حيث قطعوا نصف الطريق المؤدية إلى السلطان .

وهناك خاطبهم إبراهيم بصراحة قائلا: إن هذا الكنز المزعوم هو رأس زيدان بعد عرضه هذا، انتظر رأي القوم واختيارهم قبوله أو رفضه.

وقد تخلى عنه فورا -بعد هذا الإخبار الغريب- أربعة الاف رجل، كانوا مخلصين لأميرهم وأصر على التمرد ألفان فقط قرروا أن يجربوا حظهم مع الثائر. لذلك صعدوا إلى منطقة على مرأى من معسكر السلطان. أول شيء كان على الأمير أن يقوم به هو التجسس عليهم والذهاب عند والده، وهو شيء غير عادي لا يحصل بدون طلب، وإخباره بما رأى، ثم العودة إلى الأفراگ الذي يشاهد منه العدو. ذعر الرجل العجوز بسبب هذا الإنذار غير المنتظر فنهض مسرعا وجمع ذخائره الثمينة، حيث كان الملوك دائما، يحملونها معهم في محلاتهم، معتزما الفرار. خجل الأمير من جبن والده فغادر أفراگ.وبدون علمه، جمع 250 من قواته الرئيسية من الفرسان وحارب الثائرين فقتل حوالي 1500 وطرد الباقي. وعثر على جثة إبراهيم الذي كان من بين هؤلاء القتلى. فقطع الأمير رأسه وقدمه لوالده. وبدل أن يؤدي هذا العمل الباهر إلى تحسين ظن الرجل العجوز به، جعل غيرته تشتد

وتتواصل إلى وفاته.

عندما تسلم مولاي عبد الملك الحكم فر أخواه الأكبر سنا، وهما مولاي الوليد وأحمد، وكان عمرهما حوالي ثمان عشرة سنة، من مراكش -التي كانا يقيمان فيها معا في حياة والدهما بمنزل القائد سنان الذي يسكن الآن قرب منزلنا - إلى جبال الأطلس.

وقد رافقهما القائد يحيى جين (16). وهو أجنبي يتمتع بحظوة واهتمام السلطان الشيخ الآن. وكان مولاي زيدان - وهو على سرير الموت- قد كلفه بمهمة خطيرة وهي حراستهما وإرشادهما. وخلال الأيام السبعة عشر التي قضى هؤلاء في المرتفعات، جمعوا ثلاثة عشر أو أربعة عشر ألفا من البرابرة الجبليين، ثم نزلوا بهاته القوات وحاربوا مولاي عبد الملك خلف حديثة القصبة. لكن السلطان تغلب عليهم وأجبرهم على الانسحاب، منهزمين إلى الجبال مرة ثانية. بعد تشاور الأخوين في الأمر ودع كل منهما الآخر واتجه أحمد إلى فاس، وبعد عدة مغامرات يقيم اليوم في فاس. أما الوليد فقد قصد سيدي العياشي (17) "المرابط الذي يحاصر حاليا قلعة سلا (18) . أما القائد يحيى فهو لا زال في منزله بالمرتفاعات، فقد ولد بها وكان شيخا لقبيلة وله تحالفات وسلطة كبرى في هذه الربوع.

زحف مولاي عبد الملك -الذي لم يعد يتخوف من أخويه- مع جيشه المنتصر ليعاقب يحيى، الذي ألب عليه هذه المنطقة. لكن عسر الولوج إلى المكان وصعوبة تحمله سرعان ما جعلا رجاله يثنونه عن هذه الملاحقة. لذلك رحل من هنا إلى سهول شيشاوة بين الأطلس وآسفي، وبعد أيام قليلة قدم عليه يحيى واستسلم. وبما أن هذا القائد رجل حكيم، فقد تصالح مع مولاي عبد الملك وظل في خدمته حيث تولى منصبا مشرفا؛ فهو قائد عام، ولا زال يتقلد نفس المنصب الآن تحت سلطة مولاي محمد الشيخ. وقد كان برفقة السلطان وفي محلته حين زحفه على موگادور والإبانة عن شجاعته أيام والده وفرض الغرامة التي عانت منها البلد معاناة لم تعرفها منذ أيام مولاي أحمد. وبعد أن تمتع مولاي عبد الملك هنا بما لذ وطاب من الطعام، عاد إلى مراكش مع معسكره، واحتفظ بالقسم الأكبر من الجنود قرب المدينة. وقد أخلى سبيل الأعراب فقط، أما فلول الجيش المهزوم فلا زال يحتفظ بها حيث اتخذ منها مخازنية، وهم الجنود المدربين، عددهم حوالي ستة آلاف شخص، يتسلمون رواتبهم بصفة دائمة، ويدربهم أعلاج.

يتقاضى الفارس أربع دوقات والراجل اثنى عشر... (19) شهريا وقد احتفظ بهم كجند خاصين لا يختلفون عن انكشارية السلطان العثماني، على استعداد دائم لمواجهة أي حادث مفاجئ، ويمكن استنفارهم خلال أربع ساعات. يقيمون في أعالي ومنحدرات مدينة القصبة. ومنهم كان الجنود الذين التقلوا بنا في الطريق منتظرين الباشا كحرس له، وكذا الذين كانوا ينتظرون بالمشور أثناء مقابلة السيد Blake (20) للسلطان. وهم يعتبرون حرس السلطان؛ واصبحوا يعرفون بعد ذلك باعلاج القصر.

ينعم مولاي عبدالملك الآن بهدوء في قصره، وقد أصبح منعزلا ومدمنا. ففي أغلب الأوقات - عندما يكون سكرانا - يجلد كبار خدامه ويعتدي عليهم، وخاصة عندما أقسم بدون جدوى أنه سيقضي عليهم قسرا. وهم أعلاج ذوو مكانة في البلاط وأهمية في المخزن كالقائد رضوان الباشا، وهو علج فرنسي وقور له لحية سوداء تعرض للجلد بحزامه. اغتاظ هذا الرجل من هذه المعاملة السيئة، وكذا محمود التركي وهو الذي يقود هؤلاء الأتراك الذين كانوا حول القصبة، وتواطئا ضده، فرشيا علجا فرنسيا هو Shavan قصد رميه بالرصاص. وقد نفذ الأمر بعد ذلك بقليل عندما كان السلطان نائما في خيمة خاصة منعزلة عن محلته - وكانت هذه عادته عندما يكون مستعدا للابتهاج. قدم العلج بجرأة وأطلق البندقية التي كانت في المقدمة عند انفتاح الخيمة، فدخلت الرصاصة إلى بطن السلطان الذي قضى في الحال بعد حكم ما يقرب من خمس سنوات (21). وقد فر Shavan إلى أبن أبي بكر (22) مرابط الدلاء. أما القائدان رضوان وعلي مارتين، مواطنانا اللذان كانا في مراكش ووجدا في هذا الوقت في الخيمة، فقد تدبرا أمرهما وقصدا مرابطا آخرا بالجبال هو سيدي ابراهيم بتامصلوحت، فاستقبلهما واستضافهما، إلى أن تولى مولاي الوليد الذي دعاهما بعد فترة قصيدة إلى البلاط مرة ثانية واحتفظ بهما محترمين.

عندما توفي أخو مولاي الوليد، كان هذا الأخير سجينا بقصر السلطان بعد أن قبض عليه بأزمور بعض الوقت ثم بعث من هناك مكبلا بالسلاسل إلى القصبة. وكانت المناسبة كالتالي : قبل ذكر ذلك، قصد مع أخيه مولاي أحمد الجبال ولجأ إلى سيدي العياشي الذي وعده بمساعدته في الوصل إلى العرش. لكن الأمير الشاب فارقه بعد أن نفذ صبره من كثرة الانتظار، وزحف -مع ثلاثمائة من رجاله - إلى أزمور، وهو ميناء للسلطان قرب

مزغان، وأخذ المدينة عنوة ولم تستطع مقاومته إلا القلعة بسبب وفاء وشجاعة القائد Terea وهو الحاكم الذي يمثل السلطان هناك. وبما أنه أجبر على ترك المنطقة فقد هاجمه القائد محمد أخو Trya الذي حطم جيشه القليل وقبض عليه ثم بعثه إلى مولاي عبد الملك بمراكش حيث بقي حبيسا إلى أن صعد إلى العرش الآن بعد وفاة السلطان .

أثبت مولاي الوليد، بعد توليه، أنه شديد التطير، وأعلن زوال عطفه عن كل المسيحيين، متجاهلا الأعلاج، قامعا إياهم ليحجزهم بعد ذلك في المشور الكبير حيث يحظر عليهم عادة الذهاب إلى خارج الباب. أدت هذه القسوة إلى السخط الذي تزايد بالإنقاص من مؤونتهم، وهي نفقة شهرية لطعامهم، حيث أن السلطان هنا يقوم بإطعام كبار خدامه. وهكذا بتزايد اليأس، دبر أربعة من كبار الرؤساء مؤامرة سرية لقتله. وهم يشغلون حاليا المناصب التالية : محمود الباشا و Beomount الحاكم الحالي لأسفي، و Ariac (23) وهو القائد الكبير لمدفعية مولاي الوليد، ومراد (24) الذي يتولى حاليا قيادة المخازنية.

عزم السلطان في هذا الوقت على إرسال أخيه الأصغر محمد الشيخ، إلى السجن بالقصر. كما خنق بقسوة، منذ سنة، أخاه مولاي إسماعيل، وقضى على كل رجال الدولة، وعلى أمير كان له طموح كبير وسبعة آخرين معه، وكل الأشراف المنتمين للعائلة المالكة وأطفال إخوة مولاي أحمد، إلى أن ثار عليه مولاي بوحسون (25)، وهو أيضا شريف كان يعيش بمراكش. وكان سبب ثورته التصرف الشنيع للسلطان، والرغبة في الدفاع عن أقاربه. لكن المحاولة أجهضت، حيث حطم مولاي الوليد جيشه وقتله. وعند عودة السلطان الآن قطع رؤوس كل المنتمين إلى العائلة المالكة الذين كانوا تحت سلطته -باستثناء محمد الشيخ- وذلك ليتجنب أي عمل ضده. والآن، ومواصلة لاعتقاده الهمجي فيما يخص تأمين دولته، قرر إزاحة الشيخ أيضا. وعندما عين يوم التنفيذ، أخبرت للاصفية أخت الأخوين معا (26). وحنوا فقط على الأمير المسكين الذي كانت دائما تفضل طبعه الوديع على قساوة الوليد، قدمت له نصيحة سرية مفادها أن السلطان نوى إزاحته بصفة مفاجئة وعليه أن يكتب إلى محمود والمتواطئين معه واعدا إياهم، في حالة دخولهم إلى مغامرة القيام بمحاولة ضد شخص مولاي الوليد -الذي كرهوه لأعماله الدنيئة- فإنه يخلصهم مما سينتج عن هذا العمل. كما أنه سيجازيهم بعد ذلك كما يجازى من قام بعمل ذي مصلحة كبرى. وقد كتب محمد الشيخ إلى هؤلاء متبعا هذه التوجيهات، وبعث مع الكتاب خاتمه ليؤكد محتوى رسالته. شجع هذا الإثبات التام لفكرة مولاي الشيخ الأعلاج على العزم الذي لا

يتطلب الآن سوى الفرصة لتنفيذه. وقد أتيح ذلك بالكيفية التالية: قدم السلطان -كما هي العادة- من قصر البديع، الذي ترتاده النساء، ليتحدث مع قواده في المشور الصغير ويوضح لهم الأمر، وبسرعة بعث بعض العبيد السود لاحضار عمه القائد Agadid والقائد أحمد Monsoxe وكل أعضاء حكومته للتداول حول قتل أخيه الشيخ في هذه الأثناء. وقد اتفقوا على أن يدخل الأعلاج المكان كنافخين في الأبواق، منتظرين في المشور الكبير. وقد أطلق عليه كل رجل طبنجة لكن لم يكن لها أي تأثير، لأنها لم تنفذ إلى جسمه بناء على رقية سحر، وهذا سلوك مألوف في هذه البلاد. أطلق السلطان المهاجم صيحاته، ككل رجل معرض للخطر، عارضا أن ينفذ كل ما طلبوه لكن أجابوا بأن الأوان قد فات ولا شيء يمكن أن يرضيهم غير قتله وعندما اشتبكوا معه أصابوا رأسه إصابة قاتلة بخشبات بنادقهم. وقبل أن يلفظ أنفاسه، أسرع الباشا، الذي لا زال في هذا المنصب إلى الآن، إلى الشيخ آتيا به، وعندما كان السلطان يسلم روحه، أجلس الشيخ فوق العرش، وبذلك أعلن هذا الأخير سلطانا. بعد ذلك أغلق باب المشور بالسلاسل ليبقى القواد الذين بعث مولاي الوليد في طلبهم والذين كانوا يجهلون ما حدث من قبل خارجا. وقد جلب الأعلاج في الحال ثمان قطع مدفعية من ترسانة القصر ونصبوها خارج الباب وذلك مواجهة لأية محاولة دخول بالقوة. لكن لم تحدث أية معارضة، وقد فتحت الأبواب بعد حين. وعندما عاد القواد أودعوا في السجن، ونودي بمولاي الشيخ سلطانا في المدينة دون أي تحسر. وجرت هذه الأحداث في فبراير 1634 (27).

هكذا اعتلى مولاي محمد الشيخ العرش وعاش في هدوء تام بقصره مدة شهرين إلى أن يحدث أحيانا بعض الاختلاف بين الحاكم، وهو فارس مارشال بالمدينة، وقائد الميناء ذي السلطة المماثلة بالقصبة، وقد عظم هذا الخلاف عندما التجأ المسمى Brok وهو تاجر دقيق بالمدينة، إلى القصبة ليحتمي هناك من دائنيه. وقد عثر عليه الحاكم Musa-seema هنا، ولم يعر اهتماما إلى امتياز المنطقة التي عرفت دائما بكونها ملجأ لمثل هؤلاء، بل اعتقله في الحال. غير أن قائد الميناء أطلق سراحه ليثبت سلطته القضائية. وعلى إثر ذلك توترت العلاقة بين الرجلين فنجد حاكم المدينة حوالي سبعة آلاف رجل قدموا أمام القصبة وحاصروها. كان السلطان موافقا كل هذا الوقت على ما فعل حاكم الميناء، لذلك أصبح ملزما بالدفاع عنه باستقدام مدافعه إلى قرب الأسوار للمقاومة. كما كان بإمكانه أن يجند بصفة مفاجئة الأعلاج أيضا وغيرهم من الموجودين بالقصر. استمر هذا التمرد عشرة أيام إلى أن بعث أهل المدينة للسلطان بعض المعارضين- وهم الرجال الذين

أفلتوا من القصاص، والذين كانوا من ضمن من قتل مولاي الوليد- وألحقوا بهم طلبا قاطعا يقضي بتسليمهم للعدالة. استهان السلطان بهؤلاء المنافقين الذين كان عليهم أن يستسلموا مع رئيسهم معيدا هؤلاء الشرفاء ومجيبا بعزم بأنه إذا مست شعرة منهم فإن من الممكن أن يجازف بعرشه. لم تروع هذه الرسالة هؤلاء المتمردين قيد أغلة، بل أصروا على الحصار. لذلك بعث السلطان في طلب عمه القائد أبي بكر، وهو من الأعراب القاطنين خارج المدينة ليلم ما أمكنه من القوات في الحال ويحاصر هذه الأخيرة. قدم القائد بناء على ذلك، مع سبعة آلاف فارس، وأحاطوا بالمدينة لدرجة أن أي شخص لم يستطع الخروج منها. وكانت كل الحقول المجاورة وهي منتزه رائع للمواطنين، تحت رحمة جنوده. أما الأعراب المقيمون خارج المدينة فقد وجدوا أنفسهم ملزمين بالخضوع للسلطان .

وفيما يتعلق بالحاكم وبعض رؤساء الزمرة المتمردة، فقد فروا إلى مولاي أحمد بفاس، وكان إخوة السلطان الراغبون في الانتقام قد دعوا مولاي أحمد هذا إلى التوجه إلى مراكش ضد مولاي الشيخ مع التأكيد على أن دخوله ممكن بمساعدة الأتباع والأصدقاء الذين لهم هناك. وقد استمع أحمد إلى هذه النصائح وقرر الرحلة التي سمع بها السلطان فأخذ يعد محلته لمواجهته، وعندما أدرك أنه نزل على بعد أثني عشر ميلا من مراكش بالسراغنة، بعث فريقا من الفرسان يرأسهم الباشا محمود لمنازلته. وقد هزمه واستولى على خيامه وبغاله وجماله وعدد كبير من الغنائم، وأجبره على الفرار إلى فاس. حيث لا زال يقيم بها حاكما أو مغتصبا للحكم كما ينعته خصومه. الموالون له الآن هم البربر أهل الجبال، أصدقاؤه القدامى- الذين دارت بينهم وبين مرابط سلا سيدي العياشي عدة مناوشات خلال الصيف الأخير. وأثناءها جرح ابنه جرحا خطيرا لدرجة أن هذا المرابط أقسم أن يبيدهم لكي ينتقم لنفسه وكذا لكي يمتثل للسلطان الذي تأثر بقوله وتبادل معه الثياب كما هي عادتهم، ومع ذلك فإن المرابط انقلب ضده بسبب ثورات أتباعه المتكررة لإجحافه الشديد وضعفه.

عرف السلطان مؤخرا هدوءا فقرر فرض غرامة على أرض مملكته، وخاصة تامسنا، وهي إقليم يقع بين نهر أم الربيع وسلا. لكن أعراب المنطقة أعلنوا أنهم لم تفرض عليهم أية غرامة منذ أربعين سنة، لذلك قاموا ببعض المناوشات الخفيفة قضوا فيها على بعض من كانوا في مؤخرة المحلة. آنذاك انتقى الباشا سبعة آلاف فارس، وواجههم في مكان يدعى

واد العبيد حيث قتل عددا منهم وجدوا مرتمين على ضفتيه ونظرا للجفاف الذي عرضهم لخطر مشابه لخطر العدو؛ فان الباشا انتصر وجلب عدة أسرى إلى المحلة، حيث قطعت رؤوسهم في حضرة السلطان. في هذا الوقت سلب الباشا كل ماشيتهم والتي تقدر بحوالي عشرة آلاف رأس من الدواب، كما أحرق الزرع الذي حصد منذ قليل وكدس على امتداد عشرين ميلا. من هذا المكان قرر السلطان أن يتقدم إلى سلا وينزل بوادي فضالة حيث بعث له المرابط سيدي العياشي عدة رسائل متأخرة مدعيا أنه كان يريد بعثها إلى أسرى المحلة. وكان الزرع المحيط بالمدينة قد أحرق لتلافي إغاثتها، لكن السلطان الذي لم يحقق أي انتصار، أجبر على العودة إلى مراكش. وفي هذا الوقت بعث هذا السلطان السيد Blake - الذي كان برفقته طيلة حروبه بتامسنا- مع القائد عبد الله القصري حاكم قصبة سلا الذي طرده الأندلسيون مؤخرا من هنا وذلك ليحكمهم سيدي العياشي الذي كان مغتاظا جدا من الألفاظ الجارحة التي فاه بها القصري في حقه. أوصى السلطان أهل القصبة باستقبال القصري ممثلا له مرة ثانية. وقد أبحر مع Blake من آسفي إلى سلا. ولما وصلا وجدا أسطول جلالة ملك إنجلترا في الميناء يبرم اتفاقية مع المرابط حول إطلاق سراح الأسرى. قدم القصري والسيد Blake إلى سفينة القبطان Rainsborough (28) وأعلنا ابتهاج السلطان بمجاملة جلالة ملك ابريطانيا باطلاق سراح رعاياه الأسرى بسلا أو في أي قسم من مناطق حكمه.

ومن هنا نزلوا إلى القصبة باليابسة التي أعادت القصري إلى حكمها تنفيذا لما جاء في رسالة السلطان، وقد بعث هذا الأخير أسراه الخاصين عن طريق البحر فورا وعددهم حوالي سبعة وعشرين . وفعل نفس الشيء كل مالكي الأسرى بالقصبة، وهكذا أبحر على متن الأسطول إلى إنجلترا حوالي 270 أسيرا، كما انطلقت أربعة مراكب إلى نفس الاتجاه. وكان قبطاننا في المركب المسمى (Antelop) أما المركب الثاني فهو (هرقل) وكذا زورق الإنقاذ (Expedition) والمركب المسمى (Providence) وقد عاد القبطان Rainsborough والسيد Blake وكذا المراكب (Mary) و (Mary Rose) و (Roebuck) إلى آسفي وتوجه السيد Blake وابن القبطان Rainsborough إلى مراكش ليقدما تقريرا للسلطان عن هذه الخدمة، حيث سر هذا الأخير كثيرا بما تم في سلا. وتقيدا بذلك أطلق سراح الإنجليزيين الذين كانوا أسرى بالسجن، وبما أنه كان يرغب في الحفاظ على علاقات أقوى مع جلالته، فقد بعث القائد جو در (29) والسيد Blake مع هدية

مكونة من جياد ولوازمها من النوع الفاخر. ولن أتحدث عن طريقة استقبالهم لعدم فائدة ذلك.

منذ أن غادرت سفننا سلا، قتل القصري غدرا من قبل مغربي من تطوان كان قد قدم بمركب تموين للمتاجرة مع القصبة وقام بعمل إجرامي، فقبض عليه بينما رحل مركبه. وقد هاج متلهفا على الانتقام وأطلق رصاص بندقية على الحاكم. عندما بلغ خبر وفاة هذا الأخير إلى السلطان، بعث القائد مراد، وهو علج فرنسي، قائد الميناء، مع ثلاثمائة وخمسين رجلا كقوات إضافية للقصبة، لتكون عونا للقصري الشاب الذي اختاره الأندلسيون ليخلف أباه في مهمته. كانت هذه هي حالة القصبة عندما قدم إليها المورسكيون (30) وقد كانت تعاني من نقص المؤونة والضروريات اللازمة، مما جعل هؤلاء المورسكيين على استعداد للقيام بالثورة، وكانت حاجتهم المتواصلة إلى المؤونة سببا في خضوعهم باستمرار للسلطان . وعند أول مناسبة عزم القصري على تسليم المنطقة إلى الإسبان والدخول في خدمتهم . ذلك أن شعبان الرايس و Herrena (31) حكيا خلال وجودهما في عرض البحر لقبطاننا عند أول قدوم له بعد عودتنا من آسفي قصد رسونا هنا، كيف وصل إلى المرسى مركب سعته سبعمائة برميل، وبمعيته مركبان صغيران مشحونين بستمائة جندي بري مع كمية كبيرة من الذخيرة والمؤن موجهة لنجدة القصبة .

وعليه أنزلهم القائد إلى اليابس، وكان ذلك خلال غيابنا. وبعد مرور حوالي أسبوع على انتهاء "الحملة" ، كان القصري وبقية الأندلسيين مستعدين جدا لاستضافتهم، لكن عدم الامكانيات دفع القائد مراد إلى التخلي عن ذلك، ولم يقبل إنزال الذخيرة والمؤونة الإسبانية إلى اليابس. بمجرد ماأن أبحر هؤلاء الاسبان، بعد أن أرسوا هنا عشرة أيام، بعثوا خمسمائة قنطار من الخبز وأربعين برميل من البارود ومثلها من الرصاص، ثم واصلوا رحلتهم مع جميع رجالهم، وقد أخبرونا أن الخبز كان غير مستوف للشروط، لكنه جيد إلى حد ما، وكان قائد هذه الجنود فضوليا جدا. وعندما علم أن قبطاننا كان في سلا وبعد ذلك في آسفي قرر القدوم إلى هذا الساحل، غير أنه رحل أخيرا مشمئزا من رفض عرض The Duke of Medina القاضي بالمساعدة بالجنود، حيث اعتذر القائد مراد بكونه ليس في حاجة إليهم الآن بعد أن زوده سلطان مراكش بحاجياته في هذا المجال.

لقد علمنا أن القصري بعث بوضوح إلى Duke of Medina معلنا عما يفتقدونه

هنا، وأن الفرصة مناسبة الآن لاقناع الناس بتسليم القصبة إلى سيده حيث يئست من الحصول على نجدة أخرى من السلطان. بالإضافة إلى أنها تعاني من خطر الهورناشيين المسيطرين عليها، والذين لا ينتظر منهم أية شفقة. ولا شك أن القصري سيسلم المنطقة إلى ملك الإسبان خلال قدوم مراكبه، وذلك في الفترة التي لن يكون فيها قبطاننا في عين المكان.

مدينة وقصبة سلا التي تتميز بمحيط صغير يصل إلى خمسة أو ستة فراسخ بكل جهة من الميناء. عبارة عن جمهورية صغيرة تحكم نفسها بنفسها رغم أنها تعترف ظاهرا بسلطان مراكش كعاهل لها. منذ حوالي ثلاث سنوات (32) ، قام الهورناشيون والأندلسيون - وهم آخر المسلمين الذين أبعدوا من إسبانيا- باصلاحها وتحصينها. فعند وصولهم إليها كانت مهجورة إذ غادرها الأعراب بسبب الحيوانات المتوحشة، وأصبحت القصبة المخربة مقرا للأسود التي توالدت هنا وأفزعت الفلاحين المساكين، لدرجة أنهم غادروا المكان وأقاموا في خيام في براري أقل اتساعا ولكن أكثر أمانا. دعا الموقع المناسب وملاءمة الميناء، الذي يتوفر على حاجز آمن تتردد عليه السفن ذات الحمولة الكبيرة، هؤلاء المسلمين الإسبان إلى الاستقرار هنا. وبعد مدة قصيرة ضموا مراكب صغيرة أخذوها من المسيحيين وكونوا أسطولا من أربعين سفينة استعملوها في القرصنة، مسببين ضررا كبيرا وإزعاجا للدول المسيحية كإسبانيا وفرنسا. ولنا نحن دليل من خلال تجربة محزنة. وهكذا استمروا مطمئنين، تتكاثر ثروتهم. كما كانت المدينتان معا والقصبة تحت سلطة الهورناشيين، وقد بعثوا الآن إلى مولاي زيدان بمراكش -التي تبعد عن هنا بما يتجاوز مائة وخمسين ميلا- أسيرين أو ثلاثة تم انتقاؤهم للتعبير عن ولائهم لهذا السلطان الذي كان - في غالب الأوقات- يعاني من تشويش المتمردين والمغتصبين من أقاربه. سمح لهم السلطان بطريقة سلمية بالتمتع بتجارتهم وحكمهم إلى حوالي غشت 1636 حيث أن القائد القصري المذكور سابقا -وهو رجل نابغة من أصل أندلسي وله نفوذ عليهم- استغل، خلال حفل زواج تم بين عائلة هورناشية وأندلسية، انشغال الكل بنشوة وطرد القائد Callia Pinta الحاكم الهورناشي، خارج القصبة حيث انسحب إلى تطوان ومنها إلى الجزيرة . ولم يتمكن هذا الأخير من جمع قوة يسترد بها حقه المغتصب من قبل القصري الذي يحكم الآن والذي وعد الهورناشيين بمنحهم امتيازات كالتي كانت لهم أيام سلطة قريبهم. كما وعدهم بظروف مزدهرة أكثر مما كان عليه الحال سابقا، وذلك عن طريق توسيع المنطقة بإضافة الأراضي المتاخمة للمدينة. لكن سرعان ما أظهر القصري مخالبه حيث صار شخصا سفاكا بخيلا،

أثقل الهورناشيين بالضرائب، كما زاد شدة عليهم بقتل علي Galan وهو هورناشي ثري قام بخنقه في السجن وأكل أمواله. وقد جعل هذا عددا مهما منهم ينسحبون وينضمون إلى سيدي العياشي الذي كان في هذا الوقت قد ضم قواته السرية إلى القوات البحرية الإنجليزية التي تجوب المنطقة، قصد استرداد الأسرى الإنجليز المعتقلين في سلا. وهكذا جلب القصري بتصرفه السيء عداوة رعاياه الأندلسيين بالقصبة، حيث انتهى بهم الأمر إلى طرده وإقامة ديوان من عدة لجان ذات مهام إدارية وقضائية ، كما تقوم بتسيير أمورهم عندما يتعرضون لحصار برى أو بحرى.

فر القصري في مركب صغير إلى آسفي، وشكا أمره إلى السلطان بمراكش الذي وعده بإعادته قريبا إلى حكم سلا. وقد كتب مولاي محمد الشيخ إلى الأندلسيين رسالة توصية لصالحه كما بعثه إليهم حيث وصل في مركب انجليزي مع السيد Blake ، كما ذكر بإسهاب سابقا. علم مراد ورجاله بالقصبة أن المرابط أعلن أنه قد أنجز عمله حيث سلم سلا إلى السلطان وتخلى عن الحصار الآن معلنا عن سخط الهورناشيين وآخرين من ضمن رعياه بسبب ما جرى وقد وعد بالكتابة باسمه وذلك ما حدث. وبناء على إذن من السلطان رجع بعد ذلك كل شخص إلى مسكنه الخاص، وواصلوا العيش مع بعضهم في وئام إلى أن قرر الهورناشيون العودة إلى استعلائهم السابق، ناسين أن استقرارهم في المدينة من جديد الآن آمنين في منازلهم، كان بسبب طيبوبة السلطان اتجاههم. فقد كونوا حزبا مع الأعراب الذين كانوا يزودونهم بالمؤونة، واستقروا فجأة في المدينة التي كان مراد والقصري الشاب يراقبانها، كما اقفلوا أبواب القصبة، ومنذ ذلك الوقت إلى وصول المورسكيين واصلوا محاصراتها مع ذلك .

يبلغ عمر الملك الحالي -مولاي محمد الشيخ- حوالي تسع عشرة سنة الآن. وقد كان صغيرا جدا بعد وفاة والده مولاي زيدان وربي بحنو خلال حكم مولاي عبد الملك، أخيه الأكبر. وكان هذا الأخير ضمن أمراء الأسرة المالكة الذين قتلهم مولاي الوليد، ومنذ الوقت أودع في السجن إلى أن تسلم الحكم. كان يتمتع بحلم أمه للايامنة ذات الأصل الإسباني والتي كانت ابنة لعلج كان عبدا لسيدي الكبير وهو قائد المخزن أيام مولاي أحمد. وكانت أمه مع اللاصغية أخته (33) تزورانه باستمرار في السجن. وكانتا أداة رئيسية لصونه هو ودولته، والأم الملكة لا زالت ذات نفوذ كبير في إدارة حكومته. كان السلطان نبيها ذا

أفكار سامية، يتذكر دائما أعمال جده مولاي أحمد، حيث كان يرى أنه رئيس دولة يحتدى به وهذه أدلة على مزية خاصة، بالإضافة إلى أن الإنسان يعجب به أكثر إذا اعتبرناه كشخص لم يكن يأمل وراثة العرش في طفولته. وكان إلى وقت متأخر أيضا معرضا لضغوط الحاسدين الذين عرقلوا كل الطرق المؤدية إلى السلطة التي يتقلدها الآن. استماله الأعـــلاج كثيرا حيث كان يستمع إليهم باستمرار عند حدوث أية مشكلة ذات أهمية. وذلك كاعتراف لهم بالجميل وكمكافأة لهؤلاء الرجال الذين مكنوه من العرش، أو للزومهم ما داموا نوابغ أكثر نشاطا ومناسبين لتغيير الأمور إلى ما هي عليه الآن. بالإضافة إلى أنهم تفوقوا دائما على المغاربة في السياسة وفن الحكم. كبير هؤلاء المقرب إلى السلطان الآن هو الباشا محمود وهو إسباني الأصل رغم أنه ولد في مراكش. كان أبوه قبطانا يدعى Deigo Gonsalves يبيع الخمر بدار الصناعة (34) وهي المكان الذي كان يقيم فيه المسيحيون المتزوجون كما يخصص الملاح لليهود. كانت ترقيته كالتالي : كان يساعد والده في تجارته، ونظرا لتصرف وقح أودعه في السجن واستمر على هذا الحال مدة. وبما أنه لم يتحمل قساوة والده. فقد أسلم واستعمل وسائل لعرض خدمته على الأمير عبد الملك، أيام حكم زيدان . وقد بعث له الأمير في التو لباسا، وأطلق سراحه واتخذه كواحد من حاشيته الخاصة وجعله ضمن فرقة عازفيه. وقد أضفى بعض الحذق على إيقاعاتها الحوشية فأصبح واحدا من الرفقاء. واستمر على هذا الحال إلى أن استغل إزاحة الوليد، حيث كسب مزية عند السلطان جعلته يتمتع الآن بهذا المجد الرفيع. فقد تزعم المؤامرة بواسطة أخته Isabella التي كانت زوجة Juan de Coota المقيم بمنزل Gonsalves القديم بدار الصناعة. إذ لما كانت ايزابيلا هذه في خدمة مولاي الوليد، انتزعها من زوجها وجعلها تعتنق الإسلام ثم سلمها لإحدى زوجاته كخادمة. وقد تزوجت الآن القائد Ariac رئيس التشريفات واتفقت مع أخيها محمود على التآمر ضد الوليد وهكذا استغلت معاشرتها اليومية لمن في القصر لتقوم بدور الوسيط في المفاوضات بين أخيها وأتباعه والملكة الأم، وذلك لتنفيذ المؤامرة التي كانت أساس عظمة هذا الأخ .

يليه في الرتبة القائد جودر رئيس المخصيين، الذي أسندت إليه مؤخرا مهمة سفير إلى انجلترا . وهو برتغالي ولد في Mondego بالبرتغال حيث لا زالت تعيش أمه. وقد أسر وهو طفل ثم قدم لزيدان. ارتقى عندما أصبح في خدمة السلطان لما اعتلى العرش، ورقاه من حارس عادي للنساء إلى رتبة صاحب الخاتم، وقد لبث خاضعا خضوعا تاما للسلطان،

حيث كان -ككل أنصاف الرجال- أداة طيعة له جرد من أية صلة أخرى كصلة نسب أو مصلحة.

القائد مصطفى مخصي كذلك، وهو قائد لكل البقية التي تقوم عادة بالخدمة في القصر والتي هي من أصل إنجليزي وفرنسي وإسباني، وعدد هولاء حوالي خمسون رجلا، يقوم القصر بإطعامهم على نفقة السلطان. مصطفى هذا من أبوين إسبانيين، ولد بدار الصناعة، وقد غفر له ذنبه مولاي عبد الملك لإفراطه في الفجور، وكان قد تعود على هذا السلوك قبل هذا الوقت ولم يتجنبه إلى هذا الانقلاب الأخير. وهو الذي خفرنا مع القائد علي في طريقنا إلى آسفي، وهناك حبس القائد Beoment بمقتضى تفويض أحضره من مراكش .

رئيس المخصيين الإنجليزيين هو القائد "حال الباب" ولد في Bristow واسمه المسيحي Roger ابن السيد Jo. Hurt وهو تاجرهنا، قدم إلى مركبنا عمدا ليراه. وكان قد استولى عليه قرصان سلاوي مدة عشرين سنة، منذ أن وجهه والده لتعلم اللغة بإشبيلية وكان عمره آنذاك حوالي عشر سنوات، وقد بعث من سلا كهدية إلى الأمير مولاي عبد الملك بمراكش حيث اتخذه بيازا. والآن يقوم بحمل ريش لتهوية السلطان، وهو مسلم ومتحمس جدا لمعتقده الباطل يذم المسيحية ولا يعرف عنها شيئا آخر غير ما يشاهده عند الرهبان الإسبان. ناذرا ما يتصور اختلافا بين البروتستانت والخاضعين للبابا .

يوجد خارج القصر قائد المنطقة ثم الباشا لأنه لا يسمح لأي شخص ذي رجولة أن يتجاوز المشور ما عدا إذا وضعت النساء عمدا تحت الحراسة عند بعض المقابلات الرسمية، مثل ما حدث عندما كان هنا السيد بلاك وعندما استقر السلطان بالبديع يحيط به كبار القوم لإظهار عظمته حيث تتردد عليه نساؤه في أوقات أخرى.

أولا : القائد سنان Senan وهو علج إسباني يقود فرقة مكونة من مائتي جندي مخزني، رجل شعبي له نفوذ كبير لدى السلطان كون مع Morriot و Daniell و القبطان Bradshaw خصوما للسيد بلاك استرعى انتباه السلطان خلال زيارته له. لكن السيد بلاك جعل الباشا والقائد جودر يغلبانهم بالتأكيد وينتصران عليهم .

ثانيا : القائد Beomont حاكم آسفي الذي كان قد أسر مع Ariac رئيس التشريفات منذ خمس عشرة سنة، عندما كان من ضمن رفقاء السيد Rasillier سفير الملك الفرنسي، وقد أخبر هذا السفير عندما وصل إلى آسفي من قبل مواطنه السيد Si-mandre (36) ذي الحظوة الكبيرة لدى مولاي زيدان بضعف المنطقة. واعتقد السفير فجأة بإمكانه الاستيلاء عليها، لذلك بذل كل جهده ليضم إليه Simandre لتحقيق هذا الهدف. وخطط الوسائل لتنفيذه، لكن اكتشف أمر القنصل ووضع في السجن في اسفي مع ستة وخمسين من رفقائه، وكان من ضمنهم Beamont هذا، وقد أسروا جميعا ولم يسلم سوى Rasillier ونجيه الراهب وطباخه، حيث بعثوا إلى بلدهم فرنسا .

أدرك السيد Simandre غضب Rasillier عليه فامتطى مركبا فرنسيا كان وقتها بالميناء، وخلال الشروع في الإبحار ألقي عليه القبض ونقل مرة ثانية من قبل قرصان فلاماندي كان قد بعث في أثره، وبعد سنوات من الحبس قطع مولاي زيدان رأسه. بعد فترة قصيرة تعود Beamont على البلد وأصبح ضمن العازفين عند زيدان. وقد استمر على هذا الحال إلى أن شارك في المؤامرة التي دبرت ضد مولاي الوليد. وأسندت إليه الوظيفة الحالية كمكافأة لخدمته. عند رحيلنا أمر بربطه بالسلاسل، الشيء الذي أثار عدة ظنون. لكن لم نتمكن من معرفة السبب الحقيقي لذلك.

يليه في المنطقة القائد مراد وهو علج فرنسي أيضا لم نره لأنه يوجد الآن في قلعة سلا حيث بعثه السلطان مع 350 جنديا من جنود المخزن لتزويد المنطقة بالذخيرة. ثم القائد جودر، قائد الميناء، وقد تولى هذا المنصب خلفا للقائد مراد المذكور أعلاه بعد أن أبعد، وهو إرلاندي المولد، من عائلة نبيهة، إسمه المسيحي Edmund Darcy كان متطوعا خلال رحلة Sir Walter Raleighs إلى گويانا وأبعده اضطراب جوي عن بقية الأسطول. وبما أنه كان يركب سفينة إنجليزية صغيرة، فقد أرساها قرب سلا. وكان برفقته أربعون آخرون، وأسر الجميع، بعثت أغلبيتهم كهدية إلى ملك مراكش. وقد فر من هناك في عهد مولاي عبد الملك وقدم عند سيدي علي ولي سوس حيث أقام معه بدون تمييز، وعومل معاملة حسنة في تارودانت، المدينة الرئيسية في الإقليم. وقد جاء في كلامه عندما كان يتحدث عن قدره

أنه لما كان في سانتا كروز، ميناء سوس، وخلال تجول السيد Wiliam Curteens بمركبه في المنطقة، ألح هذا الأخير بصدق لكي ينقله إلى إنجلترا، وعندما قرر الإبحار خشي صاحب المركب المجازفة بتوقف تجارته أو أية مخاطرة أخرى قد تحدث. فرفض نقله رفضا مطلقا، وهكذا بقي في سوس إلى ما قبل وصول السيد بلاك بستة أشهر، حيث دعته شهرة هذا الملك بانسانيته، وآماله الكبيرة فيما تحبل به هذه الدنيا بالنسبة له إلى الانتقال سريا من هنا وتقديم نفسه إلى مولاي محمد الشيخ الذي أنعم عليه بهذا المنصب الشاغر، بسبب غياب مراد، وهو منصب مشرف جدا. وهو شخص طيب يبلغ من العمر حوالي الخمسين سنة، مهذب السلوك برهن على محتده ووافق منصبه.

يليه القائد علي وهو بياز السلطان ستون سنة. ولد في Somersettshire وكان إسمه المسيحي Martin woolfall كما كان يتاجر أحيانا بآسفي، أسلم بسبب حبه لمغربية، وكان عمره يتجاوز الثانية والخمسين آنذاك، كما كان قد عاصر خمسة عشر سلطانا ومغتصبا للحكم. وقد صرح كتابة إلى Daniell بأنه يعتنق المسيحية سريا. واعتقل بآسفي وكاد أن يتعرض لخطر قطع الرأس أيام زيدان. واعتقد أنه لو اتيحت له الفرصة لفر إلى بلده لرغبته في ذلك؛ لأنه حاول القيام بهذه العملية عندما كان معرضا لخطر الموت، ونظرا لذلك يعتقد أنه منع من ركوب سفينتنا لما رافقتنا إلى آسفي. ومع ذلك فالسلطان يحترمه كثيرا كواحد من الممتعين جدا خلال ممارسة رياضة الصيد بالباز، كما أنه يتردد باستمرار على المشور.

أما فيما يتعلق بالمغاربة، فالذين تسند إليهم المراتب السلطانية منهم قليلون جدا باستثناء القائد يحيى (37) رجل الدولة الكبير المذكور سابقا، والقائد مصطفى وهو أسود مخصي، حاجب وجليس الأمراء منذ عهد مولاي أحمد. ويمكن أن أضيف لهؤلاء موسى پلاش (38) يهودي وشيخ بقية أهل ملته الذين يعيشون في الملاح، ولد بامستردام وزار أغلب بلاطات الأمراء المسيحيين، موهوب لغويا وخطيب ممتاز. استخدمه السلطان كوزير لا غنى عنه، كاتب دولة أو مترجم، في مقابلة السفراء وفي مفاوضات أخرى مع الأجانب، نعم بحظوة تقلد هذه الوظائف الآخيرة في عهد كل الملوك الأربعة بالتوالي، وهو الآن يتمتع بعطف محمد الشيخ وقد ساعد كثيرا السيد بلاك خلال رحلته إلى القصبة.

تتكون قوات المملكة الرئيسية من الفرسان الذين تزايد عددهم بأعراب السهول حيث تكاثروا بوفرة، ويتوفر هؤلاء على مهارة عالية في أمور القتال، يستعملون رماحا ومشاعل دون غيرها من الأسلحة الأخرى ما عدا السيوف. يقوم الفارس فجأة بجولات سريعة انطاقا من الفرقة ويوجه رمحه إلى عدو معين. وحينما يتواجهان يقوم برشقه ويرد الرمح بحذق كبير. وليتجنب المطارد الملاحقة يعمل بنفس المهارة على جعل حصانة ينقله وجسمه ثابت، بسرعة كبيرة، ولهذا الهدف فإن ركاب الفارس عندهم قصير. يلائم تلك السروج العميقة التي لا نستطيع تحملها. فعندما يكون بعيدا يستطيع بدورة سريعة أن يهيئ نفسه للملاحقة مهاجمه الذي يسرع إلى لوائه، وخلال لحظة قصيرة يكون مستعدا لمطاردة أخرى. هكذا فان المهاجم أو المطارد يحاربان وهما يصرخان باستمرار صراخا عاليا .

عندما كنا نجوب بجيادنا المنطقة الواقعة بين المدينة والجهة التي قابلنا فيها الباشا، نظمت لنا معركة بهدف التعرف على طريقتهم. كان كل فريق يهيمن أحيانا لكثرة عدده وجودة فرسانه فيخترق الجهة الأخرى محترما قليلا الترتيب أو أي نظام يمكن إدراكه. جند المشاة للقيام بخدمات بارزة كما هو الشأن بالنسبة لحملة سلا، التي استقدم إليها الأمين مبارك أربعة عشر ألف رجل، فقد نزل البرابرة، سكان الجبال، واستخدموا كفرق مساعدة مقابل راتب. ومنهم كونت المحلة التي بلغ عددها أربعين ألف رجل، نزل بها السلطان في السنة الماضية بتامسنا عندما ارتأى أن يقدم إليها قبل سلا.

يتكون دخل المملكة أولا من عشر كل الحبوب والماشية والفواكه التي توجد بأراضي الأعراب المحروثة ويقبضها السلطان كلها. أما المراعي فلا يؤدون عنها شيئا. جميع أنواع الدواب والجياد تتناول الشعير ويغرم السلطان البلد حسب رغبته، فعندما تفرض الضريبة على القبائل والدواوير، يجب أن تؤدى وإلا تعرضوا لأذى أشد كنهب دواويرهم أو إفنائهم، تحدد قيمة الضريبة عندما تصل المعلومات المعلقة بإمكانياتهم إلى البلاط، وتنظم على الطريقة التالية : بعد أن يقدم القائد الرئيسي الذي عين لهذه الخدمة إلى البلد الذي ستفرض عليه الضريبة، يبعث إلى الشيوخ الرئيسيين للقبائل التي تتكون من ثلاثمائة أو أربعمائة كانون، قصد إخباره بعدد هؤلاء الحقيقي، ثم يبعث إلى الشيخ الخاص لكل دوار ويمنح لكل خيمة جنديا تابعا للمخزن، مهمته قبض الأعشار بحضور الجنود والقواد. وهذه هي طريقة العمل الغالبة. يتقاضى القائد مائة أوقية في الليلة، وزوجا من الغنم ومواد

غذائية أخرى، و يتقاضى مازموه الأولون، النصف، أما الضباظ الآخرون الأقل مرتبة فيؤدي رواتبهم الأعراب أينما وجدوا. ويدعي الأعراب عادة الفقر، كما يحتجون بكونهم سيبيعون عبيدهم وأوانيهم وحليهم، بينما يحتمل أن يكون كل واحد منهم متوفرا على ألف أوقية مخبأة في مطمورة، وهذه هي ثروة البلد لأنهم يعتقدون أن الذخيرة المخفية تتجاوز المتوسط في التجارة أو الأداء. وعادة دفن كنوزهم لا تطبعها السلامة، لأن الغالب أن يتوفى أصحابها دون أن يعلنوا عن مكان إخفائها، بل يعتقدون أنهم سيتمتعون بها عندما يبعثون. والكمية القليلة من الذهب التي يتوفرون عليها الآن والناتجة عن تجارة ذهب كاغو، التي ازدهرت أيام مولاي أحمد، توقفت بسبب القلاقل التي عرفتها البلاد، لدرجة أنهم الآن يمارسون طريقة الترحال القديمة، وقد كان الإنتاج الرئيسي هنا هو قصب السكر الذي يمكن أن ينتعش من جديد إذا توطد السلم، غير أن هذه الزراعة التي تخربت أصبحت تقريبا منسية والأولى الآن أن يتحدث عنها بدل أن ترجى. احتفظ الملوك بالخزينة بآسفي في القصبة على الساحل، وتسمى قصر السلطان، حيث تقضي نساء الملوك الراحلين أوقاتها هناك، وهي في صناديق وسط أسوار لا يعرف مكانها سوى الأسرى الذين استخدموا في بناء الأسوار. لا يتوفرون على أية قوة بحرية في أي ميناء من موانئهم، ويسري هذا الخصاص على مينائهم الرئيسي آسفي أيضا، حيث لا يوجد في هذا المرسى سوى المراكب التي تخفر البضائع من السفن وإليها. وقد سمح باستعمالها مراد الرايس، وهو قائد علج كان يعيش بالوليدية (39) التي تبعد بعشرة فراسخ عن آسفي شمالا. وهو فلماندي المولد، كان إسمه المسيحي JOHN BARBER وكان يتاجر في لانزاروت (40) وقد أسره قراصنة جزائريون استولوا على الجزيرة، منذ حوالي خمس وعشرين سنة. وبعد أسره بمدة قليلة، وبواسطة إسلامه، حصل على حريته وقدم إلى سلا، حيث استقبل استقبالا حسنا من طرف أهل المدينة. وقد صارت له مكانة واحترام كبير بينهم في مدة وجيزة نظرا للغنائم العديدة التي استولى عليها لدرجة أنهم جعلوه أميرالا لأسطولهم. وقد تحمل هذه المسؤولية مدة طويلة قصد إغنائهم، وإيذاء التجار المسيحيين أذى جسيما.

منذ حوالي سبع سنوات جاء بالصدفة إلى اسفي في عهد مولاي الوليد، وقد دعى تارة بالطلب وطورا بالأمر لخدمة السلطان الذي شرفه بتزويجه إحدى نسائه، ومنحه حكم قبيلة بربرية قرب الوليدية. ومنذ إقامته هنا، لا حظ أهمية المنطقة التي يحتمل أن تنفع السلطان. وقد أقنع هذا الأخير بتحصينها وبناء على ذلك شيد بها قلعة وأقام فيها حامية

تحت قيادته. وهكذا ظل يتمتع بحظوة مولاي محمد الشيخ ويقوم بخدمته. حاليا ينتج البلد الصمغ والتمر واللوز والجلود وملح البارود. وقد أشار إليها الإنجليز الذين كانوا يستبدلونها بالنحاس ومواد أخرى ضرورية للمغرب. كان الذهب يصدر بحرية، لكن ليس بالسهولة اللازمة. وكانت تطلب نسبة كافية من بضائع البلد لتوازن بها تلك المستوردة من قبل الأجانب. وفي الحقيقة يعتبر الذهب الذي يتوفرون عليه كنزا أكثر منه مادة تجارية ويمكن أن يستنفذ مع مرور الوقت. وقد ارتفعت الأسعار حتى عندما كنا هنا، ما أنذر بشكل ملموس بهذا الاستنفاذ.

يزعج السلطان كثيرا في مناطق حكمه فقراء، أو صلحاء يولع الناس بسهولة بعيادتهم ويلتحقون بهم، وهؤلاء الصلحاء رجال ذوو قداسة خادعة؛ فبواسطة الجهر بالعقيدة المحمدية المتزمتة واستثارة عطف الجمهور، حيث أن هؤلاء الأعراب يشتكون من معاناتهم من حكم السلطان، يستحوذون تدريجيا على قلوب العامة، مواصلين في هذا الشأن ممارسة مضللهم الأول والكبير. من الممكن الاعتقاد أن هذا النوع من الرجال مؤذ ويكتسح امبراطوريته حيث أنهم يتجاوزونه ويحدون من سلطته ويغتصبون مناطق حكمه .

الرئيس الآن ذو المحتد هو سيدي علي صاحب الجنوب الذي حبس تجارة الذهب واغتصب بسوس الإقليم الواقع بين الأطلس ونهر السنغال.

في هذا الوقت غزا سيدي بن بوبكر بالشمال الغربي بلاد تادلا الممتدة بين مراكش وسلا والمجاورة لتامسنا. وقد سبب هذا تأجيل السلطان لحملته على سلا. عندما كان المتمردون في الطريق اعتقد الكثيرون أنهم مقاومون بدل مهنئين وهذا ما أعلن بعد ذلك .

يليه سيدي محمد العياشي، صالح سلا، الذي ظل يتظاهر بالإخلاص للسلطان. وجب عليه أن يعود إلى مسايرة الظروف، بالإضافة إلى أن مولاي أحمد أخا السلطان، تملك مدينة فاس مع المناطق المتاخمة في الشرق. ورغم أنه ابن امرأة زنجية يحتمل جدا أن يظهر نفسه كمنافس خطير على الملك لأنه الأكبر. لهذا، إذا اعتبرنا هؤلاء الطامعين في العرش، والذين كثيرا ما تسقط عنهم ألقابهم الموهة، فقد سلموا حاليا لعرش مراكش Algablah وهي منطقة تمتد من ميناءي أزمور واسفي شرقا وتضم سهول دكالة، الواقعة في

الوسط. يحدها شرقا Shabbah ، وهي مناطق جبلية تصل إلى المدينة. وراءها وادي تاسلطانت، الممتد إلى قدم الأطلس، ولقول الحقيقة فإن هذه المناطق التي أصبحت تحت حكم السلطان بفضل بسالة وحكمة الباشا محمود منذ بداية عهده، قد صارت تعرف هدوءا غير متوقع، وأمنا بالغا خلال التنقل ما بين أسفي ومراكش، إذا اعتبرنا أنه منذ ثلاث سنوات خلت، لم يكن بالإمكان مرور قافلة بدون حراس، يصل عددهم إلى مائتين أو ثلاثمائة جندي.

نوعية المناخ مناسبة كثيرا لبنية السكان الناحلة والمنهوكة، ذلك أن الهواء لطيف جدا لا تعفنه رطوبة كثيرة، كما أن السهول الخصبة بدكالة -التي تعتبر الأكثر امتدادا- تتنوع بها الروائح. لكن إذا تعرض هؤلاء الأعراب لمرض داخلي، فإنهم يستعملون الكي، سواء في الرأس أو الصدر أو الأفخاد أو غيرها. فعندما يصبون على جروحهم الدامية زيتا حارا ويضمدونها، يكونون في طريق العلاج المؤكد، وكذا نفس الأمر بالنسبة لجيادهم. فرغم أنهم يستخدمونها إلى أقصى حد يمكن تصوره، يهمزونها بشدة إلى أن تسلخ جنوبها عند كل مناسبة سباق، ويكون العلاج بغسل المنطقة المتضررة بماء نقي.

السياسة والقضاء المدني في هذه المملكة، تعرف بواسطة التجربة بدل الملاحظة السريعة كما هو الشأن في كل الدول. هكذا فقط، فإن الحكومة التي تكون استبدادية تجعل رعاياها أكثر انتباها لأوامر حكامها بدل أن يكونوا فاحصين للقوانين المكتوبة أو لخزانات الكتب. تتم العلاقات الخاصة بواسطة طلبة، كتاب عدليون، في المدينة يكتبون بالعربية. وهذه الكتابة خاصية ليست كثيرة الحدوث. يناقشون شخصيا الحالات، ولا يحتاجون إلى وكلاء ومحامين، أمام القاضي سيدي عيسى (41) وهو الذي بيده السلطة الآن. ويتوفر على حراس أمن يعتقلون الاعراب الذين يعينهم شيخ قبيلتهم عندما يحدث نزاع بين هولاء. وتتم التسوية في ظرف قصير وبسرعة حيث يعجب المرء بالذين بتوا في هذه القضايا الصعبة.

لا يوجد هنا أي اصطلاح للأراضي الخاصة ، مما يسمح بالتسبب في نزاعات. فكل الأشخاص مثلا ليس لهم سوى حق الانتفاع تحت سلطة السلطان الذي يمنح مزرعة وينتزعها من جديد حسب هواه، وحسب رغبته في مكافأة شخص ما أو معاقبته.

عند وقوع جريمة يكون للقائد Backatram الحاكم الآن، سلطة الجلد أو قطع العنق بتفويض من السلطان، وينفذ ذلك بسرعة بدون محاكمة ولا شهادة عارف بالحدث.

ديانتهم إسلام مطلق رغم أنهم غير منتظمين في شعائرهم، كأن يستحسنوا همجية إفريقيا أكثر من اللباقة الأسيوية المتحضرة. حيث لا زالوا في مجال عقائدهم الدينية يحتفظون بتفرد في الحذق كأن يشتهروا أحيانا في كل أنواع العلوم. وبما أنهم يتوفرون على قدرة كبيرة فإنهم نتيجة ذلك عنيدون جدا في اعتقادهم. زيادة على أنهم خرافيون إلى أقصى حد في رصد الهلال والتوقيت ويمكن مقارنتهم بمسلمين آخرين كالتال : رغم أنهم غير متأثرين بالمذهب الإلحادي الأسيوي، فإنهم يهلكون أنفسهم بحماس لاهث مخالفين بذلك طبيعة وسطهم الخاص .

الهوامش :

1 - ينظر مثلا : الإفراني نزهة الحادي، الفصول 54 إلى 75 (صفحات 282-408) وعنه أخذ معظم المؤرخين اللاحقين. كما ينظر نموذج تقاييد الأحداث والكوائن في : تقييد دولة الشرفاء السعديين للفاسي عبد الرحمن بن عبد القادر، مخطوط خاص. كما تفيد في هذا المضمار كتب التراجم والمناقب .

2- ينظر بحثنا "صورة المغرب في أروبا في القرنين 17 ، 18 من خلال بعض الكتابات الأوربية، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل .

3 - مذكرات خورخي دي هنين الإسباني المنشورة تحت عنوان : وصف الممالك المغربية (1603-1613) ترجمة عبد الواحد أكمير، وتقارير أنطونيو دي صالدانيا البرتغالي المنشورة تحت عنوان : Cronica de Al mançor

4 - ينظر : إخوان، العلاقات المغربية الخارجية، ج : 2 ، ص : 298 وما بعدها

5- Georges Carteret ضابط في البحرية البريطانية، ينظر عنه إخوان، علاقات، ص 241 .

6- Sourses Inédites de l'histoire du Maroc (SIHM) , Angleter (ang), tome III ,pp 461-489

7 - يقصد السلطان أحمد المنصور الذهبي 1578 -1603

8 - توفي السلطان زيدان ابن أحمد المنصور في 9 محرم 1037 (8 شتنبر 1627) انظر الافراني، نزهة، 349.

9 - حكم عبد الملك من 1627 إلى 1631.

10 - حكم الوليد من 1631 إلى 1636.

11 - لم تذكر المصادر المغربية للسلطان زيدان إبنا بهذا الاسم ، كما لم يرد في الكشف العام الذي أعده دي كاستر Généalogie des Princes de la Dynastie Saadienne وظهر اسمه في وثيقة إنجليزية تذكر أنه كان رفقة أخيه عبد الملك في اسفي سنة 1633 (SIHM,Ang, p. T:III, P 195)

12 - ورد ذكره في النزهة، ص 352 حيث جاء فيها أنه دخل فاسا بعد وفاة والده زيدان، واستبد بالأمر إلي أن اعتقل في أحد عشر من ذي الحجة 1037 (12 غشت 1628) . ثم فر ومات في تاريخ غير معروف في حالة فاقة. وتسميه وثيقة إنجليزية أحمد الزنجي لكون أمه زنجية (SIHM,ANG, T:III, P : 454)

13 - خصص له الإفراني، نزهة، ص 355 الفصل التاسع والستين، وجعل وفاته سنة 1064 (1653) ويظهر أنه توفي في 31 يناير 1655 (SIHM, FR, T : III p 704).

14 - يقصد مرسى أمگدول (الصويرة الحالية والتسمية بموگادور تحريف لأمگدول). حاول السلطان زيدان، بعد أن أخرجه ابن أبي محلي من مراكش ولجأ إلى الساحل، أن يربط علاقات تجارية مع هولندة عبر هذا المرسى، وكان سببا في عدة نزاعات

بينه وبين القبائل المجاورة، ينظر إخوان، علاقات ، ص 1165.

15 -لا تشير المصادر المغربية إلى هذا الثائر الذي استبد بحكم سوس ابتداء من سنة 1609 واستمرت حركته على الأقل إلى سنة 1638، وتعطي الوثائق الأروبية معلومات مفصلة عن حركته في سوس وأبعادها ينظر SIHM,ANG, T:II,p 464

16 - يقصد الجناتي /الوريكي، يحيى بن محمد، من أشهر قواد أواخر السعديين، ينظر الإفراني، نزهة، ص 350 . وهو ليس أجنبيا كما يذكر الكاتب، وكما سيشير إلى أصله في آخر هاته الفقرة .

17 - يقصد المجاهد محمد بن أحمد العياشي. ينظر عنه الشاذلي، الحركة العياشية.

18 -يقصد قصبة الوداية على الضفة اليسرى لواد بورقراق. وقد حاصر العياشي القصبة سنة 1638 ينظر الشادلي، الحركة العياشية، ص 158.

19 - بياض في الأصل، وربما وجب أن يكتب في هذا المحل اسم عملة أقل من الدوقة (تعليق لدي كاستري)

20- ROBERT BLAKE وصل سفيرا من قبل ابريطانيا إلى المغرب سنة 1637، حيث نزل بأسفي واتجه منها إلى مراكش حيث استقبله السلطان محمد الشيخ الأصغر وعقدا اتفاقية بتاريخ 22 شتنبر 1637 .ينظر : إخوان، علاقات ، ص 298.

21- ذكر الإفراني، نزهة، ص 353 أن عبد الملك "قتله العلوج بمراكش وهو سكران يوم الأحد 6 شعبان 1040 (10 مارس 1631).

22 - يقصد محمد الحاج ابن أبي بكر الدلائي ينظر عنه : محمد حجي، الزاوية الدلائية، ص 161 .

23- كان Beomount و Ariac ضمن بعثة Isaac de Razilly الوافدة إلى المغرب سنة 1624: وقد تم أسر عدد من أفراد هاته البعثة واستخدم بعضهم في جند السعديين. انظر إخوان ، علاقات، ص 325 .

24 - مراد فرنسوا، علج من أصل فرنسي، كان يقود جيوش السلطان ويتوسط بينه وبين السفراء والمبعوثين ينظر عنه :

SIHM, Fr, SS, III PP 451-552 ANG, T:III PP: 446-469-493

25- ينظر عنه الإفراني، نزهة، ص 287، وخصوصا الهامش 12 فيها. والأحداث الواردة في النص غير صحيحة، حيث أن أبا حسون هذا، ثار أيام السلطان زيدان، وتوفي سنة 1608 أي قبل بيعة الوليد بكثير .

26 - صفية بنت أحمد المنصور، عمة الأميرين المذكورين . ينظر :

Généalogie des Princes de la Dynastie Sadienne

27- ذكر الإفراني، نزهة، ص 354 أن اغتيال الأعلاج للوليد كان في 14 رمضان 1045 (22 يبراير 1636) وعليه فالتاريخ الذي يذكره الكاتب وهم .

28- عن حملة Rainsborrough ضد سلا ينظر : إخوان، علاقات، ص : 620.

29-عن سفارة القائد جودر ينظر : إخوان علاقات ، ص 161

30- سماهم الكاتب The convertives ويظهر من السياق أنه يقصد الأندلسيين أو المورسكيين الوافدين على المغرب من إسبانيا بعد اتخاذ قرار طردهم .

31- من المحتمل أن يكون هو القبطان Hariro المذكور في يومية Carteret انظر : SIHM, ANG, T: III p : 455

32- هذا التاريخ غير صحيح لأن المورسكيين استقروا في الرباط سنة 1610 أي منذ حوالي ثلاثين سنة وليس ثلاث سنوات. عن هذه الأحداث ينظر الشادلي، الحركة، ص : 146.

33 - بل عمته

34- يطلق "دار الصناعة" في القرن 17 على حي بمراكش يقع داخل القصبة حيث كان يسكن قسم من الأسرى المسيحيين. ويتكون من شارعين أو ثلاثة حيث يسكن المتزوجون في الغالب، ومنهم يتخذ السلطان قرب قصره فرقا لخدمته الشخصية، وهو مكان مرور السلطان عند التوجه إلى مسبك كبير جدا لسلاح المدفعية ومكنات لصنع السلاح (تعليق لدي كاستري).

35- يقصد Isaac de Razilly المشار إليه قبل، هامش 23

36- يقصد Antoine de Salette, Sieur de Saint Mandrier ينظر عنه : إخوان ، علاقات، ص 324.

37-هو الوريكي الجناتي المذكور سابقا ، هامش 13

38-عنه وعن عائلة بلاش التي لعبت أدوارا كبيرة في سياسة المغرب واقتصاده أواخر السعديين، ينظر إخوان، علاقات، ص 188

39-عن هاته المرسى ينظر الشادلي، مرسى الوليدية، في أبحاث تاريخ المغرب، ص 5

40- Lanzarote أو Lancerote إحدى جزر كناريا

41 - هو عيسى بن عبد الرحمن السكتاي قاضي القضاة بمراكش ينظر عنه الإفراني، نزهة، ص 34 .

مصادر البحث :

إخوان زهراء

-العلاقات المغربية الخارجية في القرن 11 الهجري 17 الميلادي أطروحة لنيل دكتوراه الدولة - كلية الاداب والعلوم الإنسانية ، الرباط 1989-1990

- صورة المغرب في أوروبا في القرنين 17 و 18 من خلال بعض الكتابات الأوربية ، منشورات جامعة المولى إسماعيل ، مكناس:

الإفراني ، محمد الصغير

- نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي تقديم وتعليق عبد اللطيف الشادلي - 1998

حجي محمد

- الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، طبعة ثانية موسعة ومنقحة ، 1988-1409

الشادلي ، عبد اللطيف

- الحركةالعياشية، حلقة من تاريخ المغرب في القرن 17 منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1982

- أبحاث في تاريخ المغرب وحضارته منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل رقم 17-1998

الفاسي ، عبد الرحمن بن عبد القادر، تقييد في دولة الشرفاء السعديين مخطوط

هنين (دي) خورخي

وصف الممالك المغربية، ترجمة عبد الواحد أكمير، منشورات معهد الدراسات الإفريقية 1997

Castries, (H de)
Sourses Inédites de l'histoire du Maroc (SIHM)
Angleterre, Tome III.
Saldanha, Antonio de,
Cronica de Almançor,
Etude critique Introduction et notes par : Antonio Dias Farinha
Traduction française par Léon Bourdon:

قراءة تعريفية حول كتاب
مكناس : المدينة الجديدة
التأسيس -البنيات الإدارية - التناقضات
1911-1939

ذ . بوزياني قدور
كلية الآداب -مكناس

تقديم :

افتقدت شعبة التاريخ صبيحة يوم الأربعاء 28 ربيع الثاني 1420 هـ (11 غشت 1999 م) أحد ركائزها الأساسية، ويتعلق الأمر بزميلنا وأخينا المرحوم د. بوشتى بوعسرية ورغم ما خلفه هذا الغياب الطارئ من أسى ولوعة لدى الجميع ، فان ما رسخه من تقاليد وأعراف وما خلفه من مقالات وكتابات كفيلة بأن تجعله حاضرا بين مجموع المؤرخين والمهتمين، وأن يكون في مطالعتها بعض العزاء والسلوان فوفاءا لروحه الطاهرة ورغبة في تقديم أطروحته الجامعية التي صدرت مؤخرا ضمن منشورات جامعة المولى إسماعيل (1999). نقدم هذه القراءة التعريفية في أطروحة د .بوشتى بوعسرية التي نوقشت برحاب كلية الاداب والعلوم الإنسانية بالرباط يوم 11 يوليوز 1995 وكانت بعنوان

مكناس : المدينة الجديدة

التأسيس- البنيات الادارية- التناقضات

1911-1939

يحسن بنا في مستهل القراءة العلمية في أطروحة الأستاذ المرحوم د. بوشتى بوعسرية أن نمهد لها عبر الملاحظات الآتية:

*تحدد هذه القراءة، كهدف لها، اعطاء توصيفات تعريفية مقتضبة حول محاور وقضايا هذه الدراسة وتعرض بشكل سريع، محتويات الأبواب الثلاثة والفصول الثمانية التي انتظمتها، مع الوقوف، من حين لآخر عند طبيعة العدة المرجعية وبعض أدوات الوصف والاستقراء المعتمدة لبسط رهانات وغايات هذه المونوغرافية المحلية.

* إن الملاحظات المنهجية والموضوعية والشكلية التي قد نقرن بها هذه القراءة لا تفيد اطلاقا التنقيص من القيمة العلمية والمعرفية لهذا البحث المونوغرافي، بقدر ماهي استفسارات أولية وانطباعات عمومية.
*بفعل الخلاصات النوعية التي انتهت إليها هذه الدراسة وما أسهمت به في تحجيم دائرة المستغلق الغامض من تطور تاريخ مدينة مكناس، تكون قد عززت خيار التواريخ المحلية والجهوية والقطاعية، وساهمت في الترويج لنجاعة البحث المونوغرافي في الدراسات التاريخية المغربية.
* إن قراءتنا لهذا العمل المتميز لا تغني اطلاقا عن الرجوع المباشر لهذا البحث والقراءة المتأنية خاصة بالنسبة للمتخصصين، لما تضمنه من جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية ولما يميزه من تيمات منهجية وموضوعية وتقنية.

ومن دون الدخول في تفاصيل الجوانب التقنية المرتبطة بهذه الدراسة، نشير إلى أن المؤلف قد أوضح في المقدمة الدواعي الذاتية والموضوعية التي حتمت عليه اختيار اشكالية أطروحته والإقتصار، كما يقول : "على دراسة المجتمع الأوربي وتتبع خطوات تأسيسه منذ أن كان نطفة وسط رحم المجتمع المكناسي إلى أن صار شابا يافعا...." كما تضمنت هذه المقدمة بسطا للمصادر والمراجع، سلك فيه الباحث مسلك العمومية وعدم إعطاء تفصيلات توضيحية أو نقدية بخصوص المرجعية الاجنبية والمغربية المعتمدة، ثم انتقل الباحث إلى عرض المضامين الكبرى للأبواب الثلاثة والفصول الثمانية التي انقسمت إليها هذه الدراسة، وقد خصص الباحث لكل هذه القضايا ما يقارب الست صفحات، وهي في اعتقادنا قليلة ولا تستوعب بحق محتويات الدراسة التي تقع في أكثر من خمسة وخمسمائة صفحة.

بعد هذه المقدمة الموجزة، ينتقل الباحث إلى معالجة الباب الأول الذي حمل عنوان : "التمهيد لاقامة المجتمع الأوروبي 1911-1916، فخصص المدخل لبدايات الاستقرار الأوروبي بمكناس في عهد المولى اسماعيل، وتناول بالاعتماد على عدة كتابات مغربية وأجنبية ظروف استقدام الاسرى المسيحيين إلى مكناس والصعوبات التي اعترضتهم وكذا المزايا التي كانت لهم، كما تابع مستجدات الوجود الأوربي بمدينة مكناس بعد وفاة المولى إسماعيل، وخلص إلى أن أثار هؤلاء الأسرى قد ظلت قائمة بالمدينة إلى أن احتلتها القوات

الفرنسية في شهر يونيه 1911 وبالتالي بداية المرحلة الثانية من مراحل الاستقرار الأوربي.

ورغم كفاية المعلومات التي يقدمها الباحث بخصوص هذه المرحلة المبكرة من مراحل وجود الأوربيين بمكناس، نتساءل عن المبررات المنهجية والمقتضيات الموضوعية التي دفعته إلى تسليط الضوء حول هذه المرحلة الزمنية البعيدة (239 سنة) نسبيا عن الإطار الزمني المحدد لهذا البحث، كما نشير إلى اعتماده شبه الكلي، على مصادر وكتابات غير معاصرة لهذه الفترة المدروسة (اكنسوس، ابن زيدان Goudal -Penz-Kohler

وبالنسبة للفصل الأول، فقد تطرق الباحث فيه لأوضاع مدينة مكناس الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قبيل سقوطها في يد القوات الفرنسية، وضمن تحليله لهذه الاوضاع، اهتم ببروز فئة المحميين والمخالطين، وأورد اعتمادا على الوثائق قوائم باعدادهم من المسلمين واليهود من ساكنة مكناس، وخلص إلى استنتاج مفاده أن المحميين قد شكلوا فئة نشاز في تركيبة المجتمع المكناسي، وكانت مستأسدة و بفعل حصانتها ومزاياها، على الاهالي والمخزن معا، وأوضح أن ستر العرض وقسوة وظلم الجهاز المخزني كانت من أهم مسببات ارتماء هؤلاء المحميين في أحضان الاجانب، كما أشار اعتمادا على الحجوي، إلى اقبال الاغنياء والموسرين على طلب الحماية. "لم يبق غني بفاس... ومكناس ومراكش وغيرها إلا ونال الحماية الاجنبية"، وانتقل الباحث بعد ذلك للحديث باسهاب عن الحرفيين في مدينة مكناس، فشدد على أهمية الانتاج الحرفي ومساهمة عدة مؤهلات طبيعية وبشرية في تطوير جملة من المنتجات الحرفية بمدينة مكناس قبيل الاحتلال الفرنسي، وبعد أن يحدد بالاستناد إلى ابن زيدان (ربع احالات هذا الفصل : (88٪ 24) هي لابن زيدان) عدد الحرف والصنائع التي شهدتها المدينة (70 حرفة) يستعرض حرف وصنائع مدينة مكناس الفلاحية والمعدنية والمعمارية، وينوه بمستوى الجودة والاتقان الفني الذي ميز بعضها مع ايضاح الكوابح الذاتية والموضوعية الملازمة لقطاع الحرف.

وبعد الحديث الموجز عن قطاع التجارة، يتطرق د. بوشتى بوعسرية لمسألة غاية في الاهمية، وهي اثبات طابع التكامل والتبادل بين مكناس وباديتها، فيوضح دور الاسواق اليومية والاسبوعية في ترسيخ عرى هذا الطابع كما يقف عند بعض العراقيل الطبيعية والبشرية التي كانت تحد من ديمومة التفاعل بين مكناس ومحيطها.

ومع اشادتنا بالمعلومات الهامة والمفصلة التي أوردها الباحث بخصوص التجمعات الحرفية/الحناطي والاعراف التي حكمتها والتراتبية الداخلية التي ميزتها، فالملاحظ أن هناك تشابها بين معلومات واستنتاجات الباحث بخصوص النظام الحرفي بالمدينة وبين ما ساد في بعض الولايات العربية التي خضعت لال عثمان : وبالتالي، كان من الأفيد القيام بمقارنة، ولو موجزة بين النظام الحرفي في مكناس والمغرب عامة وباقي البلاد الاسلامية، وذلك لتثبيت تشابه الظاهرة، رغم ما يعتورها من خصوصيات واستقراء امكانيات صمود مثل هذا النظام أمام المد الرأسمالي. كما يلاحظ بعض التقصير في ابراز مدى الضرر الذي لحق الانتاج الحرفي بفعل استئساد المحميين وذيوع السلع الآجنبية وأيضا تقييم الباحث لبعض تطاولات المحميين والأضرار التي سببوها من دون أن يربط ذلك بما هو حاصل في المغرب ككل .

وقبل الإنتهاء من هذا الفصل، خصص الباحث ما يقارب الثماني صفحات لدراستالتنظيم الإداري والقاء الضوء حول بعض الاجهزة المخزنية وفي مقدمتها وظيفة الباشوية والقضاء والحسبة وبعد التأكيد على تردي الأوضاع الأمنية واستفحال عيث القبائل واقتحامها لمدينة مكناس أكثر من مرة، يذكر الباحث، اعتمادا على نص لمحمد المنصوري أن استعادة الناس لهدوئهم وراحتهم قد تم بالاستسلام للجيوش الفرنسية القادمة من فاس رفقة الحملة المخزنية.

خصص الباحث الفصل الثاني لدراسة " الاحتلال الفرنسي لمدينة مكناس وأحوازها في سنة 1911 " وتتبع عبر مجموعة من العناوين الفرعية، مختلف التطورات التي طبعت علاقة المخزن الحفيظي بالقبائل المغربية عامة وقبائل بني مطير وجروان ومجاط خاصة، كما وقف عدد حدث مبايعة مولاي الزين بمكناس في أبريل 1911 والأدوار الخفية التي لعبتها الدوائر الفرنسية في توجيه علاقة القبائل بالمخزن إبان هذه الفترة، وبعد ايضاح الملابسات التي أحاطت بطلب الاغاثة والاستنجاد الذي قدمه المولى عبد الحفيظ للقوات الفرنسية المرابطة في الدار البيضاء، تناول الباحث نجاح الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال MOINIER في فك الحصار عن فاس ثم ولت "وجهها شطر مكناسة الزيتون.." حيث افلحت بعد التغلب على مختلف المناوشات والهجومات المباغتة التي قادتها الفرق

المطيرية في اجتيار قنطرة ويسلان ودخول مدينة مكناس دون مقاومة تذكر فتمت اعادة هذه المدينة إلي طاعة المولى حفيظ، بينما بادرت القوات الفرنسية إلى اقامة بعض التنظيمات العسكرية والمدنية بما يجعل من الحاضرة الاسماعيلية مركزا عسكريا لانطلاق عمليات التمهيد بالاحواز وبالأطلس المتوسط، كما يركز الباحث في هذا الفصل، بشكل أساسي على التعريف بالجنيرال D albiez باعتباره المؤسس الحقيقي لمركز مكناس العسكري وكذا لما بذله من جهد في سبيل اقامة اللبنات الأولى للمنشآت العسكرية و ثكنات القوات الفرنسية خارج المدينة الاهلية.

ويختتم الباحث هذا الفصل بعرض موثق عن توغل القوات الفرنسية جنوب مكناس فيما بين يونيه و دجنبر 1911 ويتحدث عن الوسائل العسكرية والسلمية التي لجأت إليها هذه القوات قصد بسط نفوذها على المنطقة الممتدة من مكناس إلى حافة الاطلس المتوسط.

ومن الملاحظات التي يمكن تسجيلها بخصوص هذا الفصل مدى الجهد الذي بذله الاستاذ بوعسرية في التقاط مختلف الاحداث الدسمة المرتبطة بهذا الفصل وتقديمها في صورة أوصاف حية ومسهبة تجعل القارئ في شوق لمتابعة شريط الاحداث وما قد يطرأ عليها خصوصا وقد عمد إلى ضبط أوصافه بما خصها به من ضبط زمني دقيق يراعي اليوم والساعة بل و الدقيقة، فمحاولة استعادة الوقائع والاحداث قد تجلت أيما تجل في هذا الفصل الذي دعمه صاحله ب 14 صورة والعديد من الخرائط والجداول ذات الصلة باحتلال الفرنسيين لمدينة مكناس.

مسألة اخرى، نريد تسجيلها بخصوص هذا الفصل تتمثل في اشارة الباحث إلى حماية بعض وزراء من الزين، كان من الممكن أن توظف لتدعيم سعة المدى الذي وصلته الحماية الاجنبية في صفوف المجتمع المغربي، كما ننبه إلى كثرة ما تضمنته هوامش هذا الفصل وغيره من الفصول، من ملحوظات وملاحظات وإشارات احتوت على معلومات مطولة وشروح مسهبة مما جعل البعض منها على الأقل بمثابة متون داخل الهوامش .

مسألة أخرى، تثير الانتباه ولو على سبيل المقارنة، يتعلق الامر بتقاعس أهالي مكناس عن الدفاع عن مدينتهم لانتشار دعاية مؤداها ان "حامي البلاد" الوالي الصالح

سيدي بوزكري قادر على الوقوف في وجه النصارى، وقد ذكرتنا هذه المسألة التي اعتمد الباحث في ايرادها على روايات معاصرين لهذا الحدث . بسقوط القسطنطينية في يد الاتراك العثمانيين وتجمع فلول المسيحيين والقساوسة والرهبان بكنيسة أيا صوفيا في انتظار تدخلات غير مرئية لحسم المعركة ورد العثمانيين على أعقابهم .

يهتم الفصل الثالث من هذا الباب بدراسة الخطوات الأولى لتقعيد المجتمع الأوربي بمدينة مكناس فيما بين 1911 / 1916، فقد ركز الفرنسيون على مدينة مكناس واعتمدوها كقاعدة عسكرية لتمهيد جهات الاطلس المتوسط والكبير والصحراء، كما تأهلت ، بفعل مميزاتها الطبيعية وامكانياتها الاقتصادية، أن تكون من أهم الجهات الفلاحية المغربية وعامل جذب لجموع المعمرين ولاقامة المخططات الاقتصادية الفلاحية الفرنسية، وسيتعرض الباحث في هذا الشأن لإقامة حديقة التجارب الفلاحية بجنان بن حليمة في سنة 1913 وما لعبته من دور متميز في خدمة المعمرين وتجسيد رغبة سلطات الحماية في خلق قطاع فلاحي عصري، وقد خلص الباحث عبر الاحصائيات إلى اثبات نجاعة هذا المشروع واسهاماته في مداخيل إدارة الفلاحة بالمدينة وخارجها. كما تناول الباحث ضمن هذا الفصل انطلاق عمليات الاستيطان الأوربي بالمدينة وأحوازها، وأكد على التوازي القائم بين استسلام القبائل وعمليات نزع الأراضي وجهود المسؤولين محليا ومركزيا في سبيل تيسير الاستيطان وتسهيل استحواذ المعمرين على أخصب الأراضي وأجودها. وتطرق المرسوم الذي بموجبه تأسست لجنة الاستيطان، وأشار بالاعتماد على بعض العقود العدلية الخاصة، إلى انطلاق عمليات بيع الخواص أراضيهم للمعمرين، كما لم يفته الاهتمام بجهود بعض المعمرين الانتاجية وفي مقدمتهم إميل بانيو، وتزويدهم لفرنسا بما هي في حاجة إليه من مواد فلاحية زمن الحرب الكونية الأولى .

وقد ختم الباحث هذا الفصل، بما لا يتناسب والعنوان الفرعي، بحديث مسهب عن أثر الحرب العالمية الأولى بالنسبة لمنطقة مكناس وأحوازها، ووقف عبر جدول احصائي عند الحالة التموينية للمدينة والحاجات الشهرية لساكنيها، كما استعرض مختلف الصعوبات التي واجهت سلطات الحماية في سبيل توفير المواد الاستهلاكية لساكنة المدينة من الاهالي والأجانب والتدابير المتخذة للحد من آثار الأزمة التموينية لبعض المواد (السكر، الدقيق، البترول، البنزين).

وبالرغم من الاهتمام الذي خصصه البحث لهذه النقطة، يبقى من المفيد أن نسائله عن المنهجية التي جعلته يقحم هذه المسألة ضمن ما هو بصدده (التسرب الاقتصادي) خصوصا وقد غلب في اعتقادي طابع التعميم في عرض قضايا بعض قضايا هذه المسألة ولم يعرفنا البحث على سبيل المثال عن الفروق إن كانت هناك فروق، بين تضرر المسلمين والأجانب من الازمة التموينية لبعض المواد الغذائية والاستهلاكية، كما لمسنا بعض التناقض، حسبما بدا لنا وقد نكون مخطئين في عرض المؤلف لمظاهر ازمة التمدين التي شهدتها المدينة واحوازها وعدم كفاية التدابير المتخذة من قبل سلطات الحماية، وما يختم به من إشارة إلى حرص حكومة الحماية على تزويد مكناس وأحوازها بما يحتاجه الاهالي والاجانب من المواد التي لا تنتج محليا للحفاظ على الامن الاجتماعي، كما تغيب ضمن المعلومات التي قدمها الباحث أية اشارة إلى ردود فعل الساكنة إزاء النقص المسجل بشأن بعض المواد التموينية.

اهتم الفصل الأول من هذا الباب الثاني، بتغطية الجهود التي بذلها الجنرال بويميرو Poeymirau ، قائد مكناس وآقاليمها وأحد تلامذة ليوطي. في سبيل تشييد مدينة مكناس العصرية، وبعد الوقوف عند التحديدات الجغرافية التي انشئت عليها هذه المدينة والوضعية العقارية لهضبتي، رأس اغيل وأرض حمرية، توسع الباحث في رصد أهم الاجراءات والحيل "القانونية" التي اعتمدتها سلطات الحماية لتسهيل الاستحواذ على هذه الاراضي والالتفاف عبر بعض الظهائر السلطانية، على الطابع الحبسي لهذه الاراضي، وخلص في هذا إلى التأكيد على الدور المركزي الذي لعبته ادارة الاملاك وبلدية مكناس في تيسير السيطرة العقارية الخاصة بأراضي حمرية / رأس اغيل وحرزوزة وجنان الشريف وبالتالي التشجيع على نمو وتنوع عمران الجالية الأوربية والمستوطنين بمكناس، ثم تطرق الباحث لأولى البناءات الفرنسية بمكناس 1912/1211 ، فأبرز الطابع العسكري الذي غلب على ما شيد ابان هذه الفترة، وسلط الاضواء حول مساهمة جنود الهندسة العسكرية في شق الطرق وبناء القناطر والبراكات Baraques ، كما شدد على خلاصة مؤداها أن وضع تصميم مدينة مكناس الأوربية من قبل المهندس Prost قد تم قبل تسوية الوضعية العقارية للأراضي وقبل صدور مرسوم ليوطي في ربيع 1916 والقاضي بانشاء مدينة عصرية بمكناس.

إلى جانب ما سبق أفرد الباحث بعض الحيز للتعريف بالقائد العسكري العام لإقليم مكناس الجنرال بوميرو، فتم ابراز ما لعبه من دور في توسيع الهيمنة بالاطلسين المتوسط والكبير وتافيلالت وما قدمه من خدمات في سبيل ارساء دعائم المجتمع الأوربي في المدينة العصرية، وخلص الباحث في هذا الفصل الغني بالاحداث والوقائع المستقاة من قاعدة مرجعية متنوعة وجد موسعة، إلى الحديث عن النظام البلدي بمكناس فذكر بظهير 8 أبريل 1917 الخاص بتأسيس ومهام المجالس البلدية بالمغرب، قبل أن يتوسع في شرح ما تعلق بمجلس بلدية مكناس ومكوناته المغربية والفرنسية والاسرائيلية، وما أسهم به في ترسيخ سلطان الحماية وخدمة مخططاتها.

كما خصص الباحث بعض صفحات هذا الفصل لابراز مساعدة المجلس البلدي للاوربيين على اقتناء قطع أرضية برأس اغيل أو حمرية، وتتبع بشكل دقيق الخطوات الأولية التي رافقت تجزئة هذه الاراضي واشكال البناء والتشييد التي ميزت انجاز الطور الأول من المدينة الجديدة، تلك الخطوات التي توجت بحفلة تدشين كبرى، تمت في سنة 1921 وحضرها ليوطي الذي وصف في إحدى الكلمات الترحيبية، كلمة بوميرو، بكونه احد عظماء فرنسا وباني المغرب المعاصر، كما اهتم الباحث بمجموع الأوربيين الذين ضمتهم المدينة والوظائف والمهن المتكاملة التي كانوا يزاولونها، وارفق هذا الفصل بتصميم لمدينة مكناس في سنة 1921 وأشار أيضا إلى زيارة رئيس الجمهورية الفرنسية لها في أبريل سنة 1922 وكذا الجنرال بيتان Petain Alexandre Millerand .

ورغم ما يلاحظ من تقصير في توضيح طبيعة ومهام المرافق التي انجزها الأوربيون ابان هذه الفترة، فقد تناول الباحث محاور هذا الفصل بشمولية ووفر قراءة غنية وتوثيقا مكثفا لبعض اشكاليات الحماية الفرنسية بالمغرب عامة : كمسألة الاستحواذ على أراضي الاحباس / التهميش الذي طال المؤسسات المخزنية وكذا طبيعة ومهام المجالس البلدية، واللافت للنظر ضمن ثنايا هذا الفصل ذلك الوصف الدقيق والتتبع الحي الذي خصصه المؤلف لحفل تدشين المدينة العصرية وتنقلات الموكب الرسمي داخل المدينة وخارجها منذ وصول ليوطي في التاسعة ليلا من تاريخ 13 ماي 1921 إلى أن غادر باتجاه فاس في السابعة والنصف من تاريخ 16 ماي 1921 .

يهتم الباحث في الفصل الثاني من هذا الباب برصد المؤشرات الأولى لانتفاضة المغاربة ضد سلطات الحماية بمكناس، وبعد استعراضه لبعض مميزات الوضعية الاجتماعية والاقتصادية باقليم مكناس، انتقل لتسليط الضوء حول "المؤامرة التي تزعمها باشا مكناس بنعيسى بن عبد الكريم البخاري، وبعد التعريف بهذا الباشا والدواعي الكامنة وراء حركته تطرق د. بوعسرية بنوع من التفصيل لشبكة الاتصالات التي أقامها مع زعماء المقاومة المغربية شمالا وشرقا وكذا لتلك العلاقات الوطيدة التي عقدها مع بعض القواد بالبوادي والاحواز القريبة من مكناس. وبالاعتماد على مضمون مذكرة القائم بأعمال القنصل البريطاني بفاس، يستعرض الباحث أطوار خطة هذه المؤامرة التي نجحت مصالح الاستعلامات في كشفها والحيلولة دون تطبيقها وما سيتبع ذلك من تحقيق اشرفت عليه لجنة عسكرية لهذا الغرض في 27 نونبر 1918، وقد تتبع الباحث احكام هذه اللجنة (التي تراوحت بين السجن والنفي والذعيرة والتتريك والحجز على الاملاك). وأوضح اعتمادا على بعض المراسلات فشل الفرنسيين في التستر على هذه الحركة التي انتشرت أصداؤها خارج مكناس وخارج البلاد المغربية أيضا، كما أن أثارها يقول الباحث قد ظلت فاعلة في المجتمع المغربي.

ورغم احاطة الباحث بمجمل فصول هذه "المؤامرة" واهتمامه بالملابسات التي لازمت عملية الاعداد لها والتحقيق والاحكام التي اقترنت بها، يلاحظ قارئ هذا البحث تقتيرا من الباحث في ايضاح الكيفية التي يسرت انكشاف أمر هذه المؤامرة وتثبيت إدانة وتورط الباشا، كما نستحسن منهجيا ادراج هذا الفصل في الباب الثالث (التناقضات)، وبالنسبة للفصل الثالث من هذا الباب، وهو في اعتقادنا من أهم فصول هذه الدراسة، فقد خصصه الباحث لنشوء وتبلور مؤسسات المجتمع الأوروبي ابان ما اعتبره أهم حقبة في بناء صرح المجتمع الأوربي بمكناس الجديدة 1931/1921 ، وركز فيه على أن سنة 1931 تمثل الانطلاقة الرسمية لتكوين مجتمع أوربي عصري في مقابل المجتمع الاهلي التقليدي. وهكذا، فقد تابع الباحث، عبر الاحصائيات والتصاميم الهندسية، مراحل التطور واشكال التوسع العمراني للمدينة الجديدة. فأوضح كيف تصاعدت نسب أعداد الجالية الأوربية بمكناس التي استقطبت، لاعتبارات عدة، أكبر نسبة من معمري البلاد المغربية. فأورد في هذا الشأن أن عدد الأجانب بمكناس قد ارتفع من 2622 ن حسب إحصاء 8 مارس 1921 إلى

9945 ن في سنة 1931، واستعرض مختلف أنواع العمران الذي شهدته هذه المدينة الجديدة وما حظيت به ساكنتها الأوربية من عناية ورعاية متميزتين (حثالة الطبقات السفلى من المجتمعات الأوربية).

وبشكل منسجم والتصاعد العددي الذي عرفته العناصر الوافدة على مكناس، وازدياد الحاجة إلى الأراضي تناول الباحث مختلف الاجراءات والحيل التي لجأت لها مصالح الحماية للاستحواذ على المزيد من الاراضي بحمرية ومعسكر بويلان، كما اهتم بابراز مساهمة بلدية مكناس في بناء مؤسسات المجتمع الأوربي، وأورد في هذا الصدد مختلف أشكال المساعدة التي كانت تقدم للاوربين من أجل الحصول على بقع أرضية مجهزة وكذا مجمل النفقات التي تكلفتها خزينة البلدية في سبيل توفير ظروف ملائمة لاستقرار عناصر المجتمع الأوربي، ولم يغفل الباحث، من خلال بعض المقارنات ومن خلال جرده لبعض منجزات البلدية، التأكيد على الطابع الاستعماري للمشاريع البلدية، وعلى تواضع افادة أهل مكناس من مشاريع المجلس البلدي الذين كانوا يساهمون بنسب معتبرة في تغذية خزينته (1923 : 4 شاحنات : 2 المدينة الاهلية وساكنتها 34000 ن : 2 المدينة العصرية وساكنتها 4151 ن) .

وتتبع الاجهزة التنظيمية التي رافقت نشوء وتبلور المجتمع الأوربي بمكناس، فاستعرض أهم المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية التي شهدتها مدينة مكناس العصرية، وناقش ما اسهمت به مصالح هذه المؤسسات في سبيل توفير حوافز الانتشار والتوسع لجموع المستوطنين داخل المدينة وخارجها .

انتقل الباحث بعد ذلك لتخصيص حيز هام من هذا الفصل للاستيطان بأحواز مكناس فاهتم بمختلف الملابسات التي لفت استحواذ المعمرين على أجود وأخصب الاراضي، وأكد على الدور الذي لعبته مصالح الحماية في دعم وتشجيع المعمرين، وأورد بالاعتماد على عدة ظهائر ومراسيم وعقود عدلية ورسوم تمليك مختلف الاراضي التي انتزعت لصالح الاستيطان الرسمي أو الخاص سواء كانت أراضي گيش أو أحباس أو أراضي خواص، كما تتبع عبر الجداول والاحصائيات تصاعد الاستيطان الأوربي بمكناس وأحوازها ومختلف الفروع القبلية المتضررة من جراء ذلك، وخلص إلى أن هضبة مكناس سايس قد أضحت سهلا فلاحيا فسيحا يضم ضيعات المعمرين ويستغلها إلى حدود 1931: 260 معمر من الخواص يملكون 70000 هكتار، و 180 معمر رسمي تملكوا 40000 هكتار .

وقبل ختام هذا الفصل يلقي نظرة عن الارهاصات الأولى للتنظيمات السياسية اليسارية ومختلف الجهود التي بذلها الشيوعيون الفرنسيون في سبيل نقل وترسيخ مبادئ الحزب الشيوعي في المغرب، وبعد التأكيد على تواضع حصيلة هذه الجهود، يخلص بالاعتماد على بعض الاحداث والاجراءات الامنية، ان ادارة الحماية قد ذهبت إلى الربط بين كل عمل وطني وبين الشيوعيين رغم عدم وضوح العمل الشيوعي بمكناس آنذاك وعدم تأهل المغاربة والاجانب بعد لاستيعاب مبادئ الماركسية اللينينية. قبل الانتقال لاعطاء نظرة عن مضامين الباب الثالث، نشيد بالجهد الذي بذله الباحث في ملاحقة وتوضيح ماراكمه المجتمع الأوربي من فوائد ومكاسب مختلفة مقابل ما لحق ساكنة مكناس من تمييز واعتصار وحرمان، كما نلاحظ أن المؤلف قد اغفل الاهتمام بالمؤسسات الدينية الأوربية بالمدينة الجديدة، وأن تناوله لعملية الاستيطان عبر كل سنة على حدة قد افادت من حيث ضبط صيرورة هذا العملية إلا أنها حدت في اعتقادنا من سعة التحليل.

وبخصوص ادراجه للارهاصات الأولى للتنظيمات اليسارية، نتساءل عن الدواعي التي اقنعته بالاقتصار على مدينة مكناس دون الانفتاح، ولو الوجيز، على ما شهدته باقي المدن المغربية.

وبالنسبة للباب الثالث، فقد خصصه الباحث لرصد أشكال التعارض والتناقض التي لازمت ارساء معالم المجتمع الأوربي بمدينة مكناس وأحوازها، وهكذا فقد تناول بعض جوانب هذا التناقض بين المجتمع الأوربي وبين المجتمع الاهلي التقليدي، فركز عبر الوصف والتحليل واعتماد الاحصائيات، على ظاهرة الهجرة القروية إلى مكناس ومسبباتها ودور الاستيطان الأوربي في استفحالها.

وبعد تحديده للاحياء الصفيحية وأحزمة البؤس التي كونها هؤلاء المهاجرين بهوامش المدينة القديمة والجديدة، يؤكد الباحث على أسهام هؤلاء المهاجرين بقسط وافر في بناء الاقتصاد الأوربي العصري رغم العديد من المصاعب المعيشية والسكنية والصحية والعملية والاخلاقية التي واجهتهم.

ثم ينتقل الباحث للحديث عن شكل آخر من أشكال التعارض بين المجتمعين، ويتعلق بالمزاحمة والمنافسة الشرسة التي شكلتها البضائع الاجنبية بالنسبة للانتاج المحلي، فيتطرق

للزحف الكاسح للمنتجات الأجنبية ومضايقاتها للانتاج الحرفي ويستند إلى نصوص بعض الوطنيين (عبد الهادي الشرايبي) وكذا ابن زيدان لتوضيح مدى الضرر والكساد الذي لحق المنتوجات الجلدية والنسيجية والمعدنية المحلية ولانتقال جموع غفيرة من الحرفيين إلى عاطلين أو مياومين في ضيعات المعمرين وأوراش البناء، وينهي الباحث هذا الفصل بالتطرق إلى الاهتمامات العمرانية والاجتماعية لبلدية حمرية فيشير عبر بعض الصور الفوتوغرافية إلى المنجزات التي تعهدتها في العقد الرابع من ق 20 وإلى بعض التدابير التي اعتمدتها للتخفيف من استفحال ظاهرة البطالة بين الأوربيين بالدرجة الأولى والمكناسيين أيضا، ويستخلص عبر الاحصائيات أن فتح أوراش العمل أو العمل الاحساني (إطعام المحتاجين) كانت بمثابة حلول ظرفية وقاصرة عن ضمان السلم الاجتماعي وتجاوز جوهر التناقض داخل المجتمع الأوربي العصري وبينه وبين نظيره المجتمع المكناسي التقليدي.

وسوف يكون الفصل الثاني هو الحيز الذي اعتمده الباحث لعرض تناقضات المجتمع الأوربي العصري الذاتية وغياب الوفاق بين أغلبية السكان (الطبقة العاملة) وبين حكامهم الاداريين والعسكريين والرأسماليين، وقد تزعم الحزب الشيوعي (فرع مكناس) قيادة الصراع الايديولوجي ومناهضة سياسة حكومة الحماية والتصدي لمخططاتها الهادفة إلى استغلال الطبقة الكادحة الاجنبية والمكناسية في عهد ما قبل 1936 وما بعدها، وقد خلص الباحث إلى تأكيد مفاده أن سياسة حكومة الجبهة الشعبية الفرنسية لم تنعكس على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب، مما دفع بمناضلي الحزب في مختلف المدن المغربية، ومنها مكناس إلى التصدي لمناجزة الرأسماليين والمعمرين وحلفائم من القائمين على شؤون الحماية المدنية والعسكرية .

وبعد استعراضه لمختلف الأساليب النضالية التي اعتمدها الشيوعيون و الخطوات التنظيمية التي شهدتها خلاياهم، يقف الباحث عند بعض نشطائهم من أمثال دومون ودوريل، ويؤكد على الصعوبات التي انتصبت في وجه الشيوعيين وحالت دون نجاحهم في تأطير الطبقة الكادحة قبل أن تتعرض مؤسساتهم للحل وزعاماتهم للتنكيل والقمع والنفي إلى أقاصي الصحراء.

ومن الملاحظات التي يمكن تسطيرها بخصوص هذا الباب، التفاوت الكبير بين صفحات فصليه، كما أن اهتمام الباحث بأشكال التعارض والتصادم لم يكن شاملا والاحدى

وعشرين (21) صفحة خصصها لانعكاسات الاستقرار الأوربي بمكناس وأحوازها كانت في حاجة إلى توسيع وتمطيط للاحاطة بمختلف جوانب ذلك التناقض، كما تضمن هذا الباب بعض الاشارات التي ظلت في حاجة إلى توضيح، ويتعلق الأمر بأشكال التصدي التي اعتمدها المكناسيون بمختلف شرائحهم للغزو الاقتصادي الاجنبي، خصوصا والباحث يشير في مقدمة هذا الباب إلى "زعماء الحركة الوطنية في مكناس" الذين قادوا مظاهرات سلمية ومسيرات احتجاجية، عرفت اقبالا سكانيا غفيرا وتحولت في بعض الاحيان إلى مصادمات عنيفة ودموية، كما يلاحظ عدم اهتمام الباحث بايضاح مدى تأثر اليهود من تقعيد المجتمع الأوربي بمكناس، وأخيرا نتساءل منهجيا هذه المرة عن ملاءمة الاطار الزمني المحدد 1939/1931 للقيام برصد شمولي لانعكاسات الإستقرار الأوربي بمكناس واحوازها.

ونختم بملاحظة شكلية بخصوص بعض الأرقام التي فيها بعض التناقض، ففي الباب الثاني والباحث يتحدث عن نفقات المجلس البلدي للأشهر الثلاثة من سنة 1923 التي خصصت لشراء أربع حافلات لجمع النفايات بالمدينتين : اثنتان للمدينة الاهلية التي تجاوز عدد سكانها 34000 نسمة (ص: 391) وفي الباب اللاحق يذكر أن ساكنة مكناس بلغت 1931 ما يقدر بـ 36.466 نسمة علما أنه يشير في أحد الملحوظات بالهامش إلى أن نسبة تزايد المسلمين قد بلغت بمدينة مكناس ما بين 1953/1926 ما معدله 563 ٪.

نختم هذا العرض السريع والمكثف للافكار الاساسية لهذا البحث بالاشارة الموجزة إلى كثرة وتنوع ما اعتمده الباحث من وثائق وأرشيفات محلية وأجنبية، ومن كنانيش وملفات وسجلات ووثائق خاصة، علما أننا، بحكم البعد عن التخصص، غير قادرين على النبس ولو بكلمة موجزة في حق هذه القاعدة البيبليوغرافية المتكاملة، كما لا يسعنا إلا أن نؤكد أيضا بأن أي باحث قد يختلف مع ذ. بوعسرية حول هذا الاستنتاج أو ذاك، وكذا حول منهجية الوصف والتتبع الكرونولوجي التي اعتمدها في عرض أحداث البحث ووقائعه، لكن الأكيد أن هذه الدراسة التي أسهم ثلة من العلماء الاساتذة في تقييمها وإجازتها، قد عززت بيبلوغرافية مدينة مكناس، وفائدتها العلمية بلا شك كبيرة جدا لذوي الاختصاص خاصة ولعموم المهتمين والقراء عامة .

موقف فقهاء فاس من مشروع انشاء المدارس المرينية (يتبع)

ذ. لمليح السعيد
كلية الاداب - مكناس

يندرج مشروع انشاء المدارس المرينية في حاضرة فاس ضمن ما يمكن تسميته بتاريخ التعليم في هذه المدينة خصوصا وفي المغرب عموما.

إن مشروع انشاء المدارس المرينية خلال القرنين السابع والثامن للهجرة (13 و 14 م) قد ارتبط بالتطورات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عرفها المغرب آنذاك.

فالاضطرابات التي عرفها المغرب على إثر تدهور الخلافة الموحدية وظهور الدولة المرينية أدت إلى انخفاض القيمة الفكرية في البلاد. كما أن تهميش المذهب المالكي خلال العصر الموحدي أدى إلى اختفاء عدد كبير من فقهاء المالكية على الساحة الفكرية.

وكان على المرينيين بعد الاطاحة بالموحدين ادراك الموقف قبل تفاقمه، فعمدوا على تشجيع الحركة الفكرية بكل الوسائل الممكنة كان أهمها طبعا انشاء سلسلة من المدارس التعليمية لطلبة العلم داخل مدينة فاس وخارجها .

فما هي اذن الظروف التاريخية والفكرية التي ظهر فيها المشروع المدرسي المريني؟ وما هو موقف فقهاء فاس من هذا المشروع؟

لكن قبل هذا وذاك يستحسن أن نقول كلمة عن مصطلح مدرسة:

* لغويا المدرسة كلمة مشتقة من مادة درس في اللغة العربية بمعى قرأ (1). وقد دخلت هذه الكلمة في لسان العرب من الباب الديني قبل أن تنتهي إلى دلالتها الراهنة في نطاق التعليم الحديث. بل إن القرآن الكريم لم يستعمل لفظة "درس" إلا وهي مرتبطة

بالمعنى الديني. قال الله تعالى: " وكذلك نصرف الايات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعملون" (2) .

* واصطلاحيا: تطلق المدرسة على المؤسسة التعليمية التي أنشئت لنوع خاص من المعرفة تحت اشراف الدولة التي تنفق عليها وتحبس لها الاوقاف وتراقب فيها التعليم وتعين لها أساتذة وهذا ما قامت به معظم الدولة (3) الاسلامية فيما بين القرن الخامس والثامن للهجرة. (11 ، 14) وهذا يفضي بنا إلى الحديث -ولو بايجاز شديد- عن تاريخ ظهور المدارس التعليمية في المشرق والمغرب الاسلاميين .

تذكر المصادر أن نظام الملك السلجوقي (ت 485 هـ / 1093 م) هو أول ن أحدث المدرسة الرسمية في بغداد لطلبة العلم، ثم بنى في كل مدينة من مدن العراق وخراسان مدارس متشابهة .

وقد فتحت هذه المدرسة أبوابها للطلاب سنة 459 هـ 1068 م (4) وكان الهدف من انشائها هو محاربة المذهب الشيعي الذي سبق للبويهيين أن ناصروه وحاولوا نشره في المشرق الاسلامي (5).

ثم اقتبس نور الدين محمود زنكي (ت 569 هـ / 1174 م) هذا النظام) فبنى عدة مدارس للشافعية والحنفية في دمشق وحلب (6) واقتدى به صلاح الدين الايوبي وبنى مدارس للشافعية في مصر للقضاء على المذهب الشيعي الفاطمي وسار المماليك على نفس النهج بعد صلاح الدين (7) .

وفي القرن السادس الهجري (12 م) عرف المغرب الاسلامي بدوره معاهد لدراسة الحديث النبوي ومذهب المهدي بن تومرت، فهل قلد خلفاء المهدي بن تومرت الذي تابع دراسة في المشرق هذا النوع من المؤسسات التعليمية باعتبارهم أرادوا الرجوع إلى الأصول أي الكتاب والسنة ؟ على كل عندما نتتبع مسلسل انشاء المدارس في العالم الاسلامي نلاحظ أن هذه المؤسسات التعليمية كانت تنتقل تباعا من المشرق إلى المغرب.

وفي هذا الصدد لا بد أن أشير إلى مسألة هامة هي : أن المغرب الأقصى عرف انشاء أول مدرسة مستقلة شبيهة في هياكلها بمدارس المشرق الاسلامي، ويتعلق الامر بالمدرسة التي انشأها الفقيه السبتي المشهور أبو الحسن علي الغافقي

(ت 449 هـ / 1252 م) في مدينة سبتة. وقد قال عنه صاحب "صلة الصلة": "وبنى مدرسة ببلدة سبتة ووقف عليها من الكتب ما يحتاج إليه وشرع في تكميل ذلك على السنن الجاري بالمدارس ببلاد المشرق" (8) .

وهذا ما أكده عبد الملك المراكشي قائلا: "ثم انتقى منها جملة وافرة [من الكتب فحبسها في مدرسة أحدثها بجوار باب القصر] أحد أبواب بحر سبتة وعين لها من خيار أملاكه وجيد رباعه [جملة وقفها عليها] سالكا في ذلك طريقة أهل المشرق (9).

وقد قصد هذه المدرسة كثير من طلبة العلم، واستمرت تؤدي رسالتها العلمية مدة من الزمن .

والجدير بالذكر أن هذا المشروع استقبل استقبالا حسنا في الاوساط العلمية المغربية، إذ انهالت على المؤسس أبي الحسن الشاري رسائل التهنئة من أرجاء البلاد، كما مدحه الشعراء على عمله الجليل مؤكدين له أن هذا العمل يعتبر الاول من نوعه بدليل ما ذكره عبد المالك المراكشي عند ما قال : "وفي هذه المنقبة الشريفة التي تنبه لها و (سبق) إلى التفرد بها القاضي الاديب الابرع أبو القاسم بن عمران مهنئا بها وشاكرا عليها. وما جاء في مدحه :

أبا الحسن زادت مآثركم حسنا بفعل جميل موجب لكم الحسنا
لكم اجره الاولى وأجره من اقتفا سبيلك فيه أو بسنتك اقتفا (10)

نستنتج من هذا النص مدى ابتهاج رجال العلم بهذا المشروع العلمي الذي دشنه أحد العلماء الغيورين على التعليم في بلاده. سيما وأن الفترة الزمنية التي فتحت فيها المدرسة أبوابها في وجه طلبة العلم عرف فيها المغرب صراعا دمويا بين المرينيين والموحدين (11). ولا شك أن هذا الصراع أثر على الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب عموما وفي مدينة سبتة على الخصوص بسبب الحصار الاقتصادي الذي فرضه عليها الجنويون الذين قصفوها بالمنجنقة (12).

بعد هذا التمهيد الموجز عن مدرسة ابي الحسن الشاري وهي مدرسة حرة على حد تعبير الدكتور القبلي (13) يجدر بنا أن نتساءل: هل بامكاننا أن نقارن ما وقع في حاضرة فاس في عهد يعقوب بن عبد الحق وما وقع في بغداد في عهد السلاجقة؟ أي أن المرينيين رغبوا في محاربة المذهب الموحدي ومسايرة المذهب المالكي الذي بدأ يتقوى في المغرب منذ

منتصف القرن 7 الهجري (13 م) بسب تفجر المذهب الرسمي الحاكم (14) وكذلك بسبب نزوح عدد كبير من مالكية الاندلس إلي المغرب (15) بعد سقوط العديد من المراكز الثقافية في الاندلس مثل قرطبة واشبيلية ومرسية وغيرها (16).

إن الحديث عن عوامل تأسيس المدارس المرينية يستوجب الرجوع إلى المصادر المعاصرة والوثائق الرسمية (17) وبالتالي مناقشتها ومحاولة الخروج بنتيجة معينة .

ضمن المعلوم أن فكرة انشاء المدارس التعليمية بالمغرب الاسلامي على يد ملوك بني مرين لم تكن بالفكرة الجديدة في المنطقة بل سبقهم إلى ذلك كل من الموحدين والحفصيين .

لكن يبدو أن المدارس المرينية تميزت عن سابقاتها في المجالات الوظيفية والتنظيمية والفنية فضلا عن الدور الفكري الذي لعبته في تنشيط الحركة الفكرية في المغرب .

كانت أول مدرسة مرينية أسست في مدينة فاس هي المدرسة اليعقوبية (18) نسبة إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني (656 هـ/ 685 هـ - 1258 م-1286 م) وعن تأسيس هذه المدرسة يقول ابن أبي زرع: " في شهر شوال (سنة 679 هـ) ولي الفقيه أبا أمية الدلائي قضاء مدينة فاس وأمره ببناء المدرسة لطلبة العلم فبناها بإزاء عين قرقف من جهة قبلة القرويين وأجرى فيها ماء العين واسكنها بالطلبة والمقرئين وأجرى عليهم المرتبات من جزية اليهود (19) أي أن المدرسة أسست لتدريس علوم الفقه وعلوم القرآن الكريم .

وفي نفس السياق ذكر ابن القاضي أن المدرسة اليعقوبية التي تسمى أيضا مدرسة الصفارين أو مدرسة الحلفاريين بنيت على يد أبي أمية الدلائي بقبلة جامع القرويين (وهو أول من سن سنة بناء المدرس بحضرة فاس. "وقبل مواصلة الحديث عن المدرسة اليعقوبية لا بأس أن نتساءل عن أصل أبي أمية الدلائي. يعتبر أبو أمية الدلائي (20) هذا من كبار علماء الاندلس في القن السابع الهجري (13 م) تلقى علومه في مدينة المرية الاندلسية ثم رحل إلى المشرق الاسلامي حيث أخذ عن كبار علمائها وبعد ذلك رجع إلى بلاده ثم أجاز البحر في اتجاه المغرب واستقر بمدينة فاس فولاه السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني قضاء الجماعة بفاس وجعل له النظر على صاحب الشرطة وصاحب الحسبة وكانا لا يقطعان أمرا دونه ويروى عنه أنه هو الذي سن سنة بناء المدارس في العصر المريني (21) .

الواقع أنه من خلال تتبعنا لمراحل حياة أبي أمية الدلائي المذكور بامكاننا أن تستشف المعلومات الاتية :

من المحتمل أن يكون القاضي أبو امية الذي اسندت إليه وظائف هامة تنفيذية في الدولة الجديدة أو في وقت مبكر من تأسيسها، قد نصح السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني بانشاء مدرسة لفقهاء المالكية ولطلبة العلم اقتداء بابي الحسن الشاري الذي سبق له أن زود مدينة سبتة بمدرسة على النمط الشرقي بحيث لقيت هذه المؤسسة صدى حسنا في الاوساط العلمية واقتداء أيضا بأواخر الموحدين والحفصيين (22) الذين سبقوا إلى هذه التجربة التي عرفها المشرق الاسلامي منذ أواخر القرن الخامس الهجري (11 م)، وكذلك العمل على ارضاء فقهاء المالكية واستمالتهم واكتساب تأييدهم المعنوي وذلك بتعيينهم كشيوخ يدرسون الفقه المالكي مقابل جرايات مغرية.

وفي نفس السياق يظهر أن صاحب فكرة إنشاء المدارس التعليمية قد تأثر بما كان سائدا في المشرق الاسلامي بانشاء المدارس على يد السلاجقة وآل زنكي والايوبيين والمماليك أيضا سيما وأنه تلقى دراسته في مؤسسات المشرق الاسلامي وفي هذا الصدد يمكن مقارنة القاضي المفضل أبي أمية الدلائي بالوزير نظام الملك السلجوقي منشئ "المدارس النظامية" الذي قد يكون نصح ملكشاه بالتقرب من الفقهاء والطلبة ورجال الفكر عامة لأن توطيد أركان الدولة بالقوة العسكرية عامل غير كاف وأنه لا بد من الارتكاز على دعامة دينية وفكرية وعلمية وعلى الذين يمثلوها (23). وذلك بأن تؤسس لهم مدارس رسمية لان ذلك سيجعل شيوخ هذه المؤسسات وطلبتها مرتبطين أشد الارتباط بالحكم الذي عينهم في هذه المؤسسة وأغدق عليهم هدايا ورواتب شهرية قارة يتوصلون بها.

بعد تفحصنا لبعض نصوص المصادر المعاصرة التي تناولت قضية انشاء أول مدرسة مرينية في مدينة فاس ننتقل إلى مناقشة الظاهرة انطلاقا من وثيقة رسمية ويتعلق الامر هذه المرة بحوالة حبسية (24) .

جاء في وثيقة التحبيس على مدرسة المدينة البيضاء وهي ثاني مدرسة أسست بمدينة فاس ما يلي: " الحمد لله رب العالمين رافع درجات العالمين ومجزل ثواب العاملين المحي بالمدارس ما درس من معلم العلم والدين.... وبعد فهذا ما أمر بتخطيطه وانشائه دفعا وردعا لا يدي المعتدين مولانا الخليفة الامام... أبو سعيد نور الله ثراه.. على اقراء القرآن العظيم وتدريس العلم بمدرسته المباركة" (25) .

انطلاقا من هذه الوثيقة يمكن أن نستنبط أن الهدف من انشاء هذه المدرسة هوالرغبة في الحصول على الثواب، لان مؤسسة المدرسة تعتبر بمثابة "صدقة جارية" ينتفع من ثوابها مؤسسها بعد مماته (26).

باعتبار المدرسة مؤسسة دينية وعلمية يتلى فيها كتاب الله وتدرس بها علوم الدين والدنيا كما توحى إلينا عبارة "المحي بالمدارس ما درس من معلم العلم والدين" ان من بين عوامل انشاء المدارس النهوض بالحركة الفكرية التي عرفت فتورا على اثر الاضطرابات التي تلت سقوط الدولة الموحدية وقيام الدولة المرينية ذلك الفتور الذي كاد يعم العالم الاسلامي باسره على اثر سقوط الدولة العباسية التي حملت مشعل الحضارة أزيد من خمسة قرون (132-656) / (750 - 1259 م) .

ومن المعلوم أن العالم الاسلامي كان يزخر بعواصم علمية مزدهرة تمثلها في الشرق بغداد وبخارى وسمرقند، ونيسابور ودمشق والقاهرة وفي المغرب الاسلامي فاس ومراكش وسبتة وتونس وتلمسان وقرطبة وغرناطة... غير أن هذه المراكز تعرضت لنكسة خطيرة في أواسط القرن السابع الهجري (13 م) .

ففي الشرق سقطت القواعد العلمية ضحية الغزو المغولي الكاسح وفي المغرب كانت بقايا الحروب الصليبية لا تزال في مدها متجهة نحو الشام ومصر، ثم تونس فيما بعد ويصور لنا ان الاثير أبعاد هذه الكارثة المزدوجة أيامها الأولى بقوله: "ولقد بلي الاسلام والمسلمون في هذه المدة بمصائب لم يبل بها أحد من الامم منها أن التتر الذين اقبلوا من الشرق فعلوا الافعال التي يستعظمها كل من سمع بها... ومنها خروج الفرنج من المغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر ومنها أن الذي اسلم من هاتين الطائفتين فالسيف بينهم مسلول والفتنة قائمة على ساق (27) .

وقد ذهب ضحية هذه الاحداث الكثير من العلماء والمراكز العلمية وخزائن الكتب.

وفي الاندلس ازداد الضغط المسيحي وأخذت المراكز الاسلامية تسقط الواحدة تلو الاخرى، الشيء الذي جعل رجال العلم يغادرونها اضطرارا إلى أماكن مختلفة وخصوصا منها المغرب مثل سبتة وفاس وتطوان وتلمسان وتونس (28) .

وشهد المغرب الاسلامي بدوره نكسة في الميدان الفكري نتيجة لتصدع الامبراطورية الموحدية وقيام امارات متناحرة فيما بينها على انقاضها. وأدى ذلك إلى تراجع الحركة الفكرية المزدهرة التي عرفها المغرب أيام الموحدين نتيجة للاضطرابات السياسية والعسكرية والاقتصادية التي تلت سقوط هذه الامبراطورية.

وهذا ما عبر عنه العبدري (كان حيا سنة 688 هـ / 1289 م) في رحلته قائلا: "إن المسافر عندما يخرج من مدينة فاس لا يزال إلى الاسكندرية في خوض ظلماء وخبط عشواء لا يأمن على ماله ولا على نفسه ولا يؤمل راحة في غده" (29) بمعنى أن الاوضاع السياسية والعسكرية انعكست سلبا على الأوضاع الامنية، وعلى المجال الفكري الذي تراجع بدوره تراجعا كبيرا بدليل ما ذكره العبدري في رحلته: "وأما العلم فقد درس رسمه في أكثر البلاد وغاصت أنهاره" (30) .

ومع ذلك فقد استطاع المغرب في ظل الدولة الجديدة الاسهام بجد في المحافظة على ما تبقى من المعارف الاسلامية والسير بها إلى الامام بفضل ما قامت به من جهود على جميع الاصعدة يأتي على رأسها طبعا إنشاء المدارس العلمية لفائدة طلبة العلم من كل الافاق المغربية وغير المغربية، فضلا عن الحاق خزائن الكتب بها، إلى جانب رعاية العلم وأهله بكل الوسائل الممكنة. وهذا ما يفهم من العبارات التي جاءت في وثيقة التحبيس المشار إليها آنفا، حيث ورد فيها" فهذا ما أمر بتخطيطه وانشائه أبو سعد نور الله ثراه على اقراء القرآن وتدريس العلم بمدرسته المباركة" (31) التي يقصد بها مدرسة المدينة البيضاء (32).

فبناء على هذه الوثيقة خصصت مدرسة فاس الجديد لتدريس علوم القرآن الكريم إلى جانب العلوم الدينية على طريقة مذهب امام دار الهجرة، والملاحظة أن مدرسة الصفارين السابقة الذكر خصصت لنفس الغرض كما جاء في نص ابن أبي زرع (33).

والجدير بالذكر هنا أن بني مرين تابعوا خطة الموحدين في شأن الاعتناء بتدريس علوم القرآن لكنهم خالفوهم في مسألة المذهب.

فمن المعلوم أن الموحدين عندما وصلوا إلى الحكم كونوا طبقة من الحفاظ (34)

والطلبة (35) في معاهدهم وذلك للاستغناء عن الاطر المالكية الذين تمسكوا بالمذهب المالكي على الرغم من سقوط الدولة التي كانت تحميهم بل وأكثر من ذلك حاول بعض خلفائهم وخصوصا منهم يعقوب المنصور الموحدي (580-595 هـ) (1184-1199 م)، القضاء على فقه مالك وفروعه، وهذا ما أشار إليه عبد الواحد المراكشي عندما قال: "وفي أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب... فعل ذلك فاحرق منها جملة في سائر البلاد" (36).

لكن يظهر أن هذه التدابير المتخذة لم يكن الهدف منها فحسب القضاء على فروع مذهب مالك بل محاربة فقهاء الدولة المرابطية لنسف وتقويض دعائمه القائمة على الفروع.

وعلى الرغم من هذه الحملات التعسفية الموجهة إلى فقه مالك فان الحالة سرعان ما رجعت إلى ما كانت عليه من قبل فخرج المذهب من هذه المحن منتصرا ومن هذه المعركة التي صمد انصاره ضدها قويا، ذلك أن سلاطين بني مرين بمجرد استيلائهم على الحكم حددوا للمغاربة مذهبهم الرسمي وعملوا على توطيد وتدعيم أركانه ولم يجدوا في ذلك صعوبة ولا معارضة جديرة بالذكر، لان الشعب كان قد اختار مذهبه منذ ما قبل المرابطين وانسجم مع مقتضياته وتكيف مع متطلباته لاسباب اجتماعية تجلى في بساطة هذا المذهب واعتداله (37).

ورغم بروز مظاهر أخرى وتيارات عقدية وسياسية كانت تعرقل سيره فانه لم يكتب لها النجاح (38).

الهوامش :

1- المعجم الوسيط ، ج 1 ص 279 وطه الوالي : التعليم عند المسلمين مجلة الفكر العربي، ع : 20 1981 بيروت لبنان ص 19

2- سورة الانعام : آية 105

3 - هذه الدول هي : السلاجقة في العراق والايوبيون والمماليك في مصر والشام والحفصيون في تونس وبنو عبد الواد في المغرب الاوسط والمرينيون في المغرب الاقصى وبنوا الاحمر في غرناطة .

4 -د أحمد شلبي : تاريخ التربية الاسلامية مكتب النهضة المصرية القاهرة ط : 7 1982 م ص : 19

5 - محمد فرحات : المدرسة الاسلامية خارج المسجد، مجلة الفكر العربي، ع 20 م: س : ص: 425

6 - م.ن/ص : 425

7 - م.ن/ص : 425-426

8 - ابن الزبير : تحقيق ليفي بروفينصال باريس 1938 / ص : 152-153

9 - الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة القسم الاول تقديم وتحقيق وتعليق د . محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1984 / ج 9 ص 197

10 - م.ن.ص : 198

11 - ابن أبي زرع : الانيس المطرب بروض القِرطاس دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973 / ص : 288-289

12 - م .ن، ص : 276-277

13 - يرى الدكتور القبلي أن وضع المدارس بالمشرق يشمل ثلاثة أصناف : فهنالك المدارس الحرة التي يرجع الفضل في تأسيسها وتمويل مختلف وظائفها من الخواص وهناك مدارس شبه رسمية التي أقامها الوزراء أو الامراء وهناك أخيرا المدارس الرسمية التي أمر ببنائها السلاطين أنفسهم أنظر : د . القبلي مراجعات حول المجتمع والثقافة ص : 75

14 - من المعلوم أنه في سنة 626 هـ / 1229 م تبرأ المأمون الموحدي من العقيدة التومرتية وبذلك فتح المجال أمام المذهب المالكي لاستعادة مكانته من جديد: انظر ابن عذارى البيان المغرب . - قسم الموحدين ص 286 . وابن أبي زرع الأنيس المطرب ... ص : 252

15 - مما يدل على أهمية العنصر الاندلسي في بعث المذهب المالكي وانتشاره أن أول من سن سنة بناء المدارس السنية المالكية، في مدينة فاس هو المفضل أبو أمية الدلائي الاندلسي الاصل ، الذي شغل منصب القاضي والمحتسب في دولة يعقوب بن عبد الحق المريني انظر ابن القاضي جدوة الاقتباس ص : 339 وابن أبي زرع

الذخيرة السنية ص : 162.

16 - د محمد القبلي مراجعات حول المجتمع ص : 71

17 - المقصود هنا بالوثائق الرسمية : الحوالات الحبسية

18 -تسمى أيضا مدرسة الصفارين ومدرسة الحلفاريين نسبة إلى الحي الذي أسست فيه من الملاحظ أن الحي لا يزال يحمل هذا الاسم نظرا لتركز صناعات الاواني النحاسية والفضية فيه إلى يومنا هذا .

19 - ابن أبي زرع الدخيرة السنية : في تاريخ الدولة المرينية، دار المنصور للطباعة الرباط : 1972 ص : 162-163

20 - اسمه الكامل هو : محمد بن محمد بن ابراهيم العدري من أهل مرية أصله دلاية من ذرية الامام المحدث أحمد بن عمر بن أنس العدري الدلائي : يكني أبا أمية ويعرف بابن الدلاي كان من "أهل الفضل والمعرفة إلى علو همة وشموخ أنف. وجمع الخصال من مناقب الكمال" رحل إلى المشرق فسمع من كبار علمائها أمثال عز الدين بن عبد السلام وعبد اللطيف الذي اجاز له وعبد الوهاب بن عساكر والجنيد بن عيسى بن خلكان وغيرهم بعد ذلك رجع إلى الاندلس فولى قضاء المرية وبرجة ووادي آش ومالقة، ثم أجاز البحر إلى المغرب واستقر بمدينة فاس في كنف بني مرين انظر عنه ابن القاضي جذوة الاقتباس ص : 339-340 .

21 -م :ن / ص : 340

22 - عن هذه الظاهرة انظر الدكتور القبلي /مراجعات ... ص : 69-71.

23 - جاء في سراج الملوك "للطرطوشي أن ثمة من وشى بنظام الملك لدى السلطان ملكشاه من أنه كان ينفق ستمائة ألف دينار سنويا على طلاب العلم فقال نظام الملك للسلطان الشاب : "يابني أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم احفظ خمسمائة دنانير وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك أن تحفظ ثلاثين دينار وأنت مشتغل بلذاتك منهمك في شهواتك وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون طاعتك وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيف طوله دراعان وقوس لا ينتهي مرماها ثلاثمائة دراع. وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور... وأنا اقمت لك جيشا يسمى جيش الليل، إذا قامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامها صفوفا بين يدي ربهم فارسلوا دموعهم وأطلقوا ألسنتهم ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تبيتون وببركاتهم تمطرون وترزقون انظر : محمد فرحات المدرسة الاسلامية خارج المسجد /م : س / ص : 427 .

24 - اضطررت إلى الاستعانة بوثيقة التحبيس على مدرسة المدينة البيضاء عوض المدرسة اليعقوبية لانني لم استطع العثور على وثيقة التحبيس الخاصة بالمدرسة اليعقوبية وشفيعي في ذلك أن الهدف من انشاء المدارس المرينية واحد.

Bel (Alfred) Juscriptions Arabes de Fés .J.A.T. VI 1917 pp 158-160-25

26 - ابن مرزوق الخطيب . المسند الصحيح الحسن /تح / د ماريا خيسوس بيغيراط : الجزائر : 1981 / ص 406

27 - ذ . محمد المنوني : ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين : منشورات كلية الاداب الرباط / 1399 هـ / 1979 نقلا عن ابن كثير الكامل في التاريخ ج 12 / ص : 138

28 - استفاد المغرب من هذه الهجرة وكان عاملا من عوامل الاشعاع الفكري الذي عرفه المغرب في عصر بني مرين انظر : المنوني : ورقات ... م : س / ص : 193-197

29 - رحلة العبدي ، تح / محمد الفاسي / ط الرباط / ص : 4

30 -

31 - Alfred (Bel) : Op cit : pp (156-160)

32 - تسمى أيضا مدرسة فاس الجديد : توجد حاليا داخل القصر الملكي بفاس الجديد

33 - ابن أبي زرع الذخيرة السنية، صص 162 -163.

34 - الحفاظ : هم حفظة القرآن الكريم وهم صغار الطلبة .

35 - الطلبة : هم المثقفون وعليهم كان اعتماد الموحدين في نشر مذهبهم في الأوساط المغربية، انظر مؤرخ مجهول، الحلل الموشية ص: 109 انظر أيضا: Jaâfer ben El

36 - المعجب / ص : 400 وابن أبي زرع ص : 195

37 - عباس الجراري / الامير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي /دار الثقافة البيضاء : 1314-1984 ص : 46

38 - من بينها استمرار المذهب الظاهري بعد زوال الحكم الموحدي ثم قيام حركة مناهضة انطلقت من معقل الحركة التومرتية، وبعدما اخمدت نار هذه الحركة الموحدة بالجنوب قام باقصى الشمال داعية آخر مناوئ للحكم المريني اسمه الحاج العباس صالح سنة 586 هـ 1285 م" فقتل وطيف برأسه في بلاد المغرب" قصد حسم الداء. انظر البادسي المقصد الشريف... تح سعيد اعراب المطبعة الملكية الرباط 1982 ص : 15 وابن خلدون، العبر م : س / ص : 248 ، د القبلي : مراجعات ص : 75

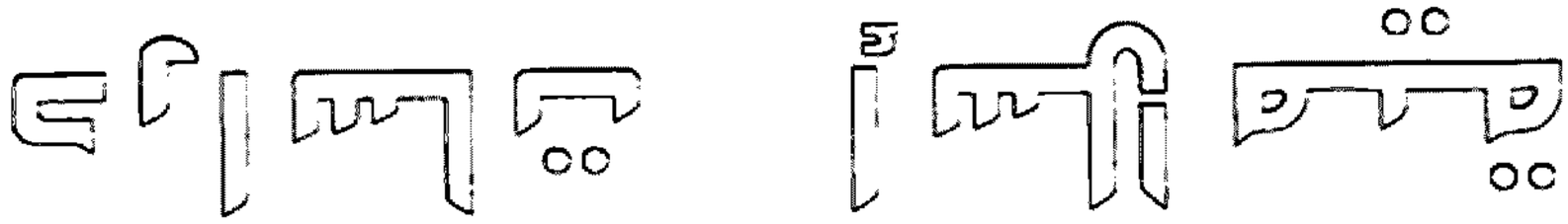

علم غريب الحديث
نشأته وتطور التأليف فيه
حتى نهاية القرن الرابع الهجري

ذ. خالد المقالي
كلية الآداب -مكناس

تمهيد :

لقد أفرد علماء الحديث مبحثا مستقلا في كتبهم المتعلقة بعلوم الحديث ومصطلحه بعنوان : «علم غريب الحديث» تعرضوا فيه لبيان أهمية هذا العلم منبهين طلاب الحديث على وجوب التحري والتوقي أثناء البحث فيه. وإفراد المحدثين مبحثا مستقلا لهذا الموضوع لم يأت من فراغ، بل لأن هذا العلم تمثل عندهم قضية جديرة بالبحث والدراسة لما وجدوه من ألفاظ غريبة غامضة في الحديث النبوي تحتاج إلى تفسير وتوضيح، إلا أن المؤلفات في الحديث الشريف ومصطلحه لم تتطرق إلى نشأة هذا العلم، وأهم الكتب التي ألفت فيه إلا شيئا يسيرا نجده في مقدمات بعض كتب غريب الحديث، وفي اعتقادي إن معرفة المصادر والمولفات في هذا العلم من الأهمية بمكان، وذلك لأن المؤلفات الأولى فيه غير معروفة عند طلاب الحديث المتخصصين فضلا عن غيرهم، علما بأن هذه المؤلفات قد شكلت المادة الأساس للمعاجم اللغوية التي ظهرت بعد القرن الخامس الهجري . كما أن المحدثين أثناء تفسيرهم للألفاظ الغريبة في الحديث قد اتبعوا نهجا متميزا عن باقي العلماء الذين ألفوا في المعاجم اللغوية سواء من حيث ترتيب وتبويب الألفاظ الغريبة التي تحتاج إلى شرح وتفسير، أو من حيث طريقة تفسير هذه الألفاظ بتركيزهم على المنحى الأثري في تفسيرها مع ربطهم للحديث الذي وردت فيه هذه الكلمة الغريبة بأسباب وروده.....

وسأحاول في هذه المقالة بيان موضوع هذا العلم، وأهميته، ونشأته وتطور التأليف فيه إلى حدود نهاية القرن الرابع الهجري

1- تعريفه وموضوعه :

- للغريب معنيان : لغوي واصطلاحي

- **أما في اللغة** (1) : فمعني غرب بفتح الراء، بعد والغريب، الغامض من الكلام، ومنه كلمة غريبة، ورجل غريب، بعيد عن أهله ليس من سائر القوم قال طهمان بن عمرالكلابي (2)

وإني والعبسي في أرض مدحج غريبان شتى الدار مختلفان

وكل ما ورد في معنى (غرب) يفيد البعد، وإن أضيف إلى الكلام أفاد الغموض وعدم القرب من الذهن.

قال أبو سليمان الخطابي (الغريب من الكلام وإنما هو الغامض البعيد عن الفهم، كما أن الغريب من الناس هو البعيد عن الوطن المنقطع عن الأهل (3).

- **أما في الاصطلاح** : فعلم غريب الحديث هو العلم المختص بتفسير الألفاظ الغريبة في الحديث النبوي وتوضيح معانيها بما جاء في لغة العرب وكلامهم، فهو مبحث لغوي متخصص، أو هو الجانب اللغوي من علم متن الحديث، وليس المراد بغريب الحديث، الكلام الوحشي غير المألوف لتنزه كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه، بسبب إخلاله بالفصاحة، وعرفه النووي بقوله (هو ما وقع في متن الحديث من لفظة غامضة بعيدة عن الفهم لقلة استعمالها) (4)

2- أهميته :

- علم غريب الحديث من أهم المباحث الحديثية، إذ عليه يتوقف التلفظ الصحيح ببعض الألفاظ فضلا عن فهمها، بل هو ضرورة ملحة لمن يروي الحديث بالمعنى، ولقد أوضح ابن الأثير بتفصيل أهمية هذا العلم في مقدمة كتابه النهاية في غريب الحديث والأثر فقال : «وهو على هذه الحال -أي علم الحديث- من الاهتمام البين والإلتزام المتعين- ينقسم قسمين : أحدهما : معرفة ألفاظه، والثاني معرفة معانيه ولا شك أن معرفة ألفاظه مقدمة في الرتبة، لأنها الأصل في الخطاب، وبها يحصل التفاهم، فإذا عرفت ترتيب المعاني عليها، فكان الاهتمام ببيانها أولى» (5)

- ولهذه الأهمية الكبيرة، نبه العلماء على وجوب تعلمه لكل من يتصدى لدراسة الحديث النبوي، لكي لا يكون زاملة للأخبار لا يدرك ما يرويه لذلك قال النووي ت 676 هـ «وهو فن مهم لا يقبح جهله بأهل الحديث» (6).

3- وجوب التحري والتثبت في تفسير الغريب من الحديث :

- لقد أكد العلماء على وجوب التحري والتثبت أثناء البحث عن غريب الحديث، لئلا يقع المتعرض له لتحريف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مواضعه والتقول عليه بغير علم فقد سئل الإمام أحمد عن حرف من الغريب فقال :«سلوا أصحاب الغريب، فإني أكره أن أتكلم في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بالظن فاخطئ» (7) وسأل أبو قلابة الأصمعي اللغوي الجليل قال : قلت : يا أباسعيد، ما معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الجار أحق بسقبه فقال : أنا لا أفسر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن العرب تزعم أن السقب : اللزيق» (8).

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224) عن كتابه غريب الحديث: «إني جمعت كتابي هذا في أربعين سنة، وكان خلاصة عمري » (9)

وأجود تفسير عند المحدثين للفظ الغريب ما جاء مفسرا في رواية أخرى قال الإمام ابن عبد البر المالكي (ت 463) : «وتفسير الأحاديث بالآثار هو أعلى من تفسير أهل اللغة، وتفسير الفقهاء» (10)

- وكذا مما ينبغي أن يعتمد عندهم في الغريب تفسير راوي الحديث، ولا يتخرج على الخلاف في تفسير اللفظ بأحد محتمليه، لأن هذا إخبار عن مدلول اللغة وهو من أهل اللسان، وخطاب الشارع يحمل على اللغة ما أمكن موافقته لها (11)

4- نشأته وتطور التأليف فيه

- لقد بعث الله رسوله الكريم بلسان عربي مبين، فكان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب لسانا وأوضحهم وأعذبهم نطقا، وأسدهم لفظا وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طرق الصواب، تأييدا إلهيا، ولطفا سماويا، وعناية ربانية، ورعاية روحانية حتى قال علي بن بأبي طالب كرم الله وجهه، وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله نحن بنو أب، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره فقال «أدبني ربي فأحسن تأديبي، وربيت في بني سعد» فكان صلى الله عليه وسلم يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخادهم، كلا منهم بما يفهمون، ويحادثهم بما يعلمون ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم» فكان الله عز وجل قد أعلمه ما لم يكن يعلمه غيره من بني أبيه، وجمع فيه من

المعارف ما تفرق ولم يوجد في قاصي العرب ودانيه، وكان أصحابه رضي الله عنهم ومن يفد عليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله، فم يكابدوا في تعرف مراميه أي مشقة لنقاء ألسنتهم وسلامة سلائقهم، وغلبة الفصاحة عليهم، وإن جهلوا منه شيئا سألوا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين ظهرانيهم فيكشف لهم عن الوجه فيه.

- واستمر عصره صلى الله عليه وسلم إلى حين وفاته على هذا السنن المستقيم، واستمر الحال من بعده على سنن من الاستقامة والصلاح، إلى أن انقرض عصر الصحابة والشأن قريب، والقائم بواجب هذا الأمر لقلته غريب، وجاء التابعون لهم بإحسان فسلكوا سبيلهم لكنهم قلوا في الاتقان عددا، واقتفوا هديهم، وإن كانوا مدوا في البيان يدا. فما انقضى زمانهم على إحسانهم إلا واللسان العربي قد استحال أعجميا أو كاد، فلا ترى المستقل به والمحافظ عليه إلا الآحاد (12)، بعدما دخلت الشعوب الأجنبية في الاسلام فاختلطت الفرق وامتزجت الألسن، فشاع اللحن على ألسنة الموالي المستعربين، وعلى ألسنة بعض العرب أنفسهم بسبب اختلاطهم بالعناصر الأجنبية، وما حدث من ضعف سلائقهم بسبب تحضرهم، كما تعلموا من اللسان العربي ما لابد لهم في الخطاب منه، وحفظوا من اللغة ما لا غنى لهم في المحاورة عنه، وتركوا ما عداه لعدم الحاجة إليه، وأهملوه لقلة الرغبة في الباعث إليه، فصار مطرحا مهجورا، وجهل الناس من هذا المهم، واتخذواه وراءهم فصار منسيا.

- ولكل هذه الأسباب انبرى جماعة من العلماء إلى التأليف في شرح غريب الحديث فصرفوا طرفا من عنايتهم إليه حرسا لهذا العلم الشريف من الضياع، وحفظا له من الاختلال، وكانت هذه المحاولات اللغوية لتفسير ألفاظ الحديث النبوي إلى جانب ألفاظ القرآن هي الخطوة الممهدة لتفسير وشرح كل الكلمات في اللغة العربية، هذا التفسير أو الشرح الذي تطور فيما بعد ليصبح على شكل معاجم لغوية.

- وهكذا كانت أول محاولة للتأليف في غريب الحديث على يد الحسن النضر بن شميل المازني ت 183 هـ كما جزم بذلك الحاكم النيسابوري في معرفة علوم الحديث (13)، وذكر ابن الأثير في مقدمة كتابه النهاية (14) بصيغة التمريض أن أول من ألف في ذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى ت 216 هـ وكتاباهما مع جلالة قدرهما صغيران، وعلى ذلك جرت عادة المبتدئ في كل علم، خاصة وأن العلم بالغريب لم تكن الحاجة ماسة إليه لفشو العلم آنذاك، وازدياد الحاجة إليه عصرا بعد عصر بعدما استفحل الجهل به (15)

- ثم توالى التصنيف في غريب الحديث، بعدما غدا علما قائما بذاته، فألف فيه كبار الأئمة من المحدثين واللغويين، تيسسرا على الناس لكي يفهموا ما غمض عليهم من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتطور التصنيف فيه بما يلائم كل عصر، فلم يخل قرن من القرون الستة الأولى من التأليف فيه. وكان أغنى هذه القرون تأليفا القرنين الثالث والرابع الهجريين.

- وقد اختلفت هذه المصنفات شرعة ومنهاجا، فجاء بعض منها على ترتيب حروف المعجم، وهو الغالب، على كتب هذا الفن ككتاب "الفائق في غريب الحديث للزمخشري، وبعضها وضع اسدراكا وتكميلا لكتاب سبقه ككتاب أبي موسى الاصفهاني الذي جعله استدراكا لما فات الهروي في كتابه الغريبن .

- كما اختلفت هذه المصنفات فيما بينها من حيث الإكثار من الشواهد اللغوية والشعرية، وكذا من حيث الاكثار من شرح ألفاظ الحديث النبوي قال ابن الأثير (وإنما هي أو عامتها، إذا انقسمت وقعت بين مقصر لا يورد في كتابه إلا أطرافا وسواقط من الحديث، لا يوفيها حقها من إشباع التفسير وإيضاح المعنى، وبين مطيل يسرد الأحاديث المشهورة التي لا يكاد يشكل منها شيء ثم يتكلف تفسيرها ، ويطنب فيها » (16) وكانت القرون الأربعة الأولى حافلة بكتب ومؤلفات هذا الفن، في حين اقتصرت الكتب التي ألفت في القرن الخامس وما يليه على النقل من الكتب المتقدمة بعزو وبغير عزو، وعموما فكتب هذا العلم قد اندرس بعضها ولم تصلنا منها إلا أسماؤها بعدما لعبت بها يد الحدثان، ومنها طائفة مهمة قد وصلتنا كاملة.

- وفيما يلي أهم مصنفات غريب الحديث في القرون الأربعة الأولى وفق الترتيب الزمني لوفاة مؤلفيها.

1- غريب الحديث : لأبي بكر الحسين بن عياش السلمي ت 177 هـ (17).

2- غريب الحديث : لأبي علي محمد بن المستنير المعروف بقطرب ت 179 (18) وقال عنهما السنحاوي (وقد جمعا في ذلك شيئا يسيرا) (19).

3- غريب الحديث : لأبي الحسن النضر بن شميل المازني أحد الأعلام ت 183 هـ (20) قال عنه الحاكم النيسابوري (وهو أول من ارتاد الطريق وصنف في غريب الحديث) (21) وذكر ابن الأثير أن كتابه هذا أكبر من كتاب أبي عبيدة، وشرح فيه وبسط على صغر حجمه ولطفه (22).

4- غريب الحديث : لأبي عبيدة معمر بن المثنى : اللغوي المشهور (ت 210 هـ) قال عنه يزيد بن مرة (ما كان أبو عبيدة يفتش عن علم من العلوم إلا كان من يفتشه عنه يظن أنه يحس غيره، ولا يقوم بشيء أجود من قيامه به) (23)

5- غريب الحديث : لعبد الملك بن قريب الأصمعي اللغوي المشهور المتوفى سنة 213 هـ وكان معاصرا لأبي عبيدة، قال عنه ابن الأثير : (وجمع كتابا أحسن فيه الصنع وأجاد ونيف على كتابه -أي كتاب أبي عبيدة- وزاد (24)

6 - غريب الحديث : لأبي عبد الرحمان النووي، ذكره له السخاوي في فتح المغيث 46/3 لكن لم اعثر له على ترجمة في معجم الأدباء للحموي وكذا في بغية الوعاة للسيوطي.

7 - غريب الحديث : لأبي عدنان السلمي عبد الرحمن بن عبد الأعلى البصري اللغوي الشاعر المشهور صنف في اللغة والغريب، وكان معاصرا لأبي عبيدة، قال ابن دستويه عن كتابه في غريب الحديث «ذكر فيه الاسانيد، وصنفه على أبواب السنن والفقه، إلا أنه ليس بكبير» (25)

8- غريب الحديث : لأبي عمرو الشيباني إسحاق بن مرار الكوفي قال عنه الخطيب البغدادي «كان ابو عمرو راوية أهل بغداد، واسع العلم والشعر، ثقة في الحديث، كثير السماع،نبيلا فاضلا عالما بكلام العرب، حافظا للغاتها، وكان معه السماع والعلم عشرة أضعاف ما كان مع أبي عبيدة لازمه الإمام أحمد وروى عنه » مات سنة 213 هـ (26)

9- غريب الحديث : لأبي زيد الانصاري سعيد بين أوس ثابت الأديب اللغوي المشهور ت 215 هـ (27).

10- غريب الحديث : لأبي عبيد القاسم بن سلام ت 224 هـ إمام أهل عصره في كل فن من العلم قال أبو الطيب البغدادي «مصنف حسن التأليف والرواية إلا أنه قليل الرواية، وكتابه في غريب الحديث وغريب القرآن انتزعهما من غريب أبي عبيدة، وكان مع هذا ثقة ورعا لا بأس به، ولشدة تحريه فقد مكث في تأليفه -أي غريب الحديث- أربعين سنة يتتبع أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم على كثرتها وآثار الصحابة والتابعين على تفرقها وتعددها، حتى جمع منها ما احتاج إلى بيانه بطرق أسانيدها وحفظ رواتها، وظن رحمه الله على كثرة تعبه وطول نصبه أنه أتى على

معظم غريب الحديث والأثر، وكان كتابه هذا عمدة علماء عصره يرجعون إليه ويعتمدون في غريب الحديث عليه، لكن كتابه هذا غير مرتب فرتبه موفق الدين ابن قدامة على الحروف (28) وكتابه مطبوع .

11- غريب الحديث : لأبي الحسن الكندي أحد علماء اللغة الذين تتلمذوا على معمر بن المثنى (29).

12- غريب الحديث : لابن الأعرابي، محمد بن زياد أحد أئمة اللغة والحديث المتوفى سنة 231 هـ (30) وكتابه أحد المصادر التي اعتمد عليها الخطابي أساسا في كتابه غريب الحديث .

13- غريب الحديث : لعلي بن المغيرة -الأثرم، اللغوي الأديب المشهور ت 232 هـ (31).

14- غريب الحديث : لأبي الحسن علي بن المديني شيخ الإمام البخاري ت 234 هـ (32).

15- غريب الحديث : لأبي مروان عبد الملك بن حبيب المالكي أحد أئمة النحو واللغة والفقه والحديث المتوفى سنة ت 238 هـ وقيل 239 هـ (33)

16- غريب الحديث : لأبي جعفر محمد بن حبيب البغدادي النحوي قال الحموي عنه (من علماء بغداد باللغة والشعر والأخبار والانساب ثقة لا يعرف أبوه وحبيب زوج أمه» مات بسامراء سنة 245 هـ (34) .

17- غريب الحديث : لأبي جعفر محمد بن عبد الله بن قادم، قال عنه ياقوت الحموي : «كان حسن النظر في علل النحو وكان من أعيان أصحاب الفراء، وأخذ عنه ثعلب» وقال «وكان ابن قادم يعلم المعتز قبل الخلافة ومن تصانيفه : الكافي في النحو وغريب الحديث (35) .

18- غريب الحديث : لأبي عمر شمر بن حمدويه الهروي المتوفى سنة 255 هـ صاحب كتاب الجيم في اللغة الذي قال عنه السيوطي «وكتابه الجيم في غاية الكمال أودعه تفسير القرآن وغريب الحديث، وكان ظنينا به، لم ينسخ في حياته ففقد بعد موته إلا يسيرا) وقال : (وله أيضا غريب الحديث كبير جدا) (36)

19- غريب الحديث : لأبي محمد ثابت بن أبي ثابت وراق أبي عبيد القاسم بن سلام، وهو أحد المكثرين من التأليف في اللغة (37).

20- غريب الحديث : لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة 276 هـ قال عنه الخطيب البغدادي (كان رأسا في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ثقة دينا فاضلا)

(38) صنف كتابه المشهور في غريب الحديث والآثار، اقتفى فيه أثر أبي عبيد ولم يودعه شيئا من الأحاديث المودعة في كتاب أبي عبيد إلا ما دعت إليه حاجة من زيادة شرح وبيان واستدراك أو اعتراض فجاء كتابه أكبر حجم من كتاب أبي عبيد قال في مقدمة كتابه (وقد كنت زمانا أرى أن كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث، وأن الناظر فيه مستغن به، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة فوجدت ما ترك نحوا مما ذكر، فتتبعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسر، وأرجو أن لا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال» (39) كما اعترض على أبي عبيد في كتاب سماه إصلاح الغلط (40).

21 - غريب الحديث : لأبي إسحاق ابراهيم بن اسحاق الحربي المتوفى سنة 285 هـ، قال عنه ياقوت الحموي (كان إماما في العلم، ورأسا في الزهد وعارفا بالفقه، بصيرا بالأحكام، حافظا للحديث، مميزا للعلة، قيما بالأدب جماعا للغة) (41) وكتابه "غريب الحديث" حافل بالفوائد إلا أنه هجر لطول أسانيده، وسياقه للمتون بتمامها (42) وقد طبع هذا الكتاب أخيرا بجامعة أم القرى بمكة المكرمة بتحقيق الدكتور سليمان بن ابراهيم العايد .

22- غريب الحديث : لأبي العباس محمد بن يزيد، المبرد المتوفي سنة 285 هـ، أحد أئمة النحو واللغة ، قال عنه السيوطي (كان فصيحا بليغا مفوها، ثقة أخباريا، علامة صاحب نوادر) من تصانيفه أيضا معاني القرآن، إعراب القرآن، المقصور والممدود، الاشتقاق وغيرها (43).

23- غريب الحديث : لأبي الحسن محمد بن عبد السلام بن ثعلبة بن زيد بن الحسن بن كلاب بن أبي ثعلبة الخشني صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عنه ابن الفرضي : «كان الغالب عليه حفظ اللغة، ورواية الحديث، ثقة مأمونا، ولم يكن عنده كبير علم بالفقه» توفي رحمه الله سنة 286 هـ ووصف محمد بن خير كتابه فقال: «نيف على عشرين جزءا، شرح حديث النبي صلى الله عليه وسلم في أحد عشر مجلدا، وحديث الصحابة في ستة أجزاء والتابعين في خمسة أجزاء» (44).

24- غريب الحديث : لابن كيسان، أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم أحد الأئمة الاعلام ت 269 هـ، قال عنه الخطيب البغدادي «يحفظ المذهب البصري والكوفي في النحو، لأنه أخذ عن المبرد وثعلق، وكان أبو بكر بن مجاهد يقول: «إنه أنحى مهما» (45) وقال الحموي : «لكنه إلى مذهب البصريين أميل» وكتابه في غريب الحديث يقع

في أربعمائة ورقة (26).

25- غريب الحديث : لأبي العباس أحمد بن يحيى بن يسار المعروف بثعلب، أحد أئمة الكوفة في النحو واللغة ت 291 هـ (47).

26- الدلائل في غريب الحديث : لأبي محمد قاسم بن ثابت بن حزم السرقسطي ت 302 هـ أحد الأئمة الأعلام في الحديث واللغة، قال عنه ابن الفرضي «غني بالحديث واللغة هو وأبوه، فأدخل الأندلس علما كثيرا وسمع في رحلته من النسائي والبزار... كان ورعا نسكا زاهدا خيرا مجابا الدعوة ، طلب القضاء، فامتنع من ذلك فأراد أبوه إكراهه عليه فسأله الاستخارة ثلاثة أيام فمات في هذه الثلاثة» وقال عنه أيضا «وألف في الدلائل في شرح الحديث بلغ فيه الغاية من الاتقان، ومات قبل إكماله، فأكمله أبوه بعده» (48) وقال الحموي : «ذكره الحميدي وقال : هو مؤلف كتاب غريب الحديث، رواه أبوه ثابت، وله فيه زيادات، وهو كتاب حسن مشهور، وذكره ابن حزم وأثنى عليه وقال ما شآه أبو عبيد إلا بتقدم العصر» (49).

27- غريب الحديث : لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري النحوي، الأديب ت 238 هـ قال عنه الزبيدي (كان من أعلم الناس بالنحو والأدب أكثرهم حفظا، صدوقا فاضلا دينا خيرا من أهل السنة من كتبه ك غريب الحديث، الهاءات، المذكر والمؤنث، الزاهر، أدب الكاتب وغيرها) وقيل إن مصنفه في غريب الحديث يقع في خمسة وأربعين ألف ورقة (50).

28- غريب الحديث : لأبي الحسن عمر بن محمد القاضي المالكي 328 هـ قال عنه الحموي (51) :«كان عارفا بفنون العلم والفرائض والحساب، واللغة والشعر والحديث صنف المسند وغيره، ناب عن أبيه في القضاء ثم استقل بعده» وكتابه في غريب الحديث كبير لم يتم (52).

29- غريب مسند الإمام أحمد : لأبي عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد المعروف بغلام ثعلب أحد أعلام اللغة والحديث في عصره المتوفى سنة 345 هـ (53)

30- غريب الحديث : لعبد الله بن جعفر بن دروستويه (54): بضم الدال والراء أحد الأعلام المجيدين في التصنيف في اللغة من كتبه الإرشاد في النحو وغريب الحديث والمقصور والممدود وغير ذلك المتوفى 347 هـ.

31- غريب الحديث للإمام أبي سليمان الخطابي البستي (ت 388) وكتابه هذا مطبوع في

ثلاثة أجزاء. وقد بدأ الخطابي رحمه الله في شرحه للغريب بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم ثنى بأحاديث الصحابة رضوان الله عليهم، ثم أردفها بأحاديث التابعين، ملحقا بها أحاديث لم يجد لها سندا في الرواية إلا أنها -كما يقول- أخذت عن المقانع من أهل العلم، وختم كتابه بإصلاح ألفاظ يرويها عوام النقلة ملحونة ومحرفة، ولم يعرض الخطابي لشيء فسره أبو عبيد أو ابن قتيبة في كتابيهما، إلا أن يتصل حرف منه بكلام فيذكره في ضمنه، أو يقع شيء منه في استشهاد أو نحوه (55) ونظرا لاتقان الخطابي لكتابه، وما تضمنه من فوائد علمية جليلة لقي كتابه «غريب الحديث» القبول والحظوة لدى العلماء من بعده (56)

- هذه هي أهم كتب غريب الحديث التي ألفت في القرون الأربعة الأولى قد تتبعتها من خلال كتب الحديث، والتراجم واللغة، والفهارس، أسأل الله عز وجل أو يقيض لها باحثين أكفاء يخرجوا المخطوط غير المطبوع منها إلى الوجود حتى تساعد طلبة العلم على مزيد فهم لغة حديثه صلى الله عليه وسلم على الوجه السليم. ولا بد من الاشارة كذلك، أنه لم يبق للكتب التي ألفت في غريب الحديث بعد القرن الرابع إلا الجمع والاختصار ، وضم الكتاب إلى صنوه من الكتب، وإلا التنظيم والترتيب، والتقسيم والتبويب، واشياء قليلة فاتت المؤلفات المتقدمة تداركها من بعد اللاحقون، كما أن الكتب اللغوية التي ألفت، بعد القرن الرابع قد أكثر مؤلفوها من النقل عن كتب غريب الحديث المتقدمة وإن لم يصرحوا أحيانا بذلك، فالمطالع مثلا لكتاب النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، يجده قد أكثر النقل عن كتب غريب الحديث السابقة، مسجلا ذلك في كثير من المواد، والنهاية كما هو معروف -إحدى المصادر الخمسة التي ألف منها ابن منظور كتابه "لسان العرب" وعموما فقد أفادت كتب اللغة والحديث والفقه والأدب من كتب الغريب المتقدمة، وحوت الكثير القيم من مادتها اللغوية٪

الهوامش :

1 - انظر غريب الحديث للخطابي 70/1 بتحقيق الاستاذ عبد الكريم العزباوي دار الفكر 1982م والصحاح للجوهري 191/1 تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار دار العلم بيروت ط2 1979 م

2 - شاعر من صعاليك العرب وفتاكهم، كان في زمن عبد الملك بن مروان، توفي سنة 80هـ انظر الاعلام للزركلي 273/3 نقلا عن تاريخ دمشق لابن عساكر 302/8

3 -غريب الحديث للخطابي 70/1

4 - تدريب الراوي للإمام السيوطي 184/2 تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف دار الكفر بيروت -لبنان 1409 هـ 1988م وقال السخاوي معرفا علم غريب الحديث [هو ما يخفى معناه من المتون لقلة استعماله ودونه، بحيث يبعد فهمه ولا يظهر إلا بالتفتيش من كتب اللغة] انظر فتح المغيث 3 / 45 دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ط 1 1403 هـ 1983م .

5 - النهاية في غريب الحديث والأثر 3/1 بتحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي المكتبة الاسلامية 1383هـ - 1963م .

6 - تدريب الراوي 184/2

7 - المصدر السابق 185/2

8 -المصدر السابق 185/2

9 -النهاية في غريب الحديث والأثر 6/1، علما بأن كتاب أبي عبيد يقع في جزء واحد

10 - الاستذكار للامام ابن عبد البر 225/4 بتحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي مؤسسة الرسالة ط 1-1414 هـ 1993م .

11 - فتح المغيث للسخاوي 54/3

12 -من كلام ابن الأثير في مقدمة كتابه النهاية بتصرف يسير 5/1

13 - معرفة علوم الخديث للحاكم النسابوري ص 88 دار الآفاق بيروت ط 1980-4 م

14 - النهاية في غريب الحديث والأثر 6/1

15 - المصدر السابق 7/1 وفتح المغيث 55/3

16 - النهاية في غريب الحديث والأثر 7/1

17 - انظر بغية الوعاة للسيوطي 242/2 بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط 1 - 1964 م

18) المصدر السابق

19 - فتح المغيث 46/3

20 - انظر بغية الوعاة 242/2

21و22- معرفة علوم الحديث ص 88 والنهاية في غريب الحديث والأثر 9/4

23 - النهاية في غريب الحديث والأثر 6/1
24 - المصدر السابق وبغية الوعاة 112/2-113
25 -تاريخ بغداد 405/12 دار الكتب العربي بيروت، بدون تاريخ
26 -تاريخ بغداد للخطيب البغدادي 329/6 وبغية الوعاة 439/1-440
27 -بغية الوعاة 582/1
28 -النهاية في غريب الحديث والأثر 6/1 وفتح المغيث السخاوي 47/3 وبغية الوعاة 253/2
29 -فتح المغيث 47/3
30 -بغية الوعاة 105/1
31 -المصدر السابق 206/2
32 -فتح المغيث 47/3
33 -بغية الوعاة 109/2
34 -معجم الأدباء 112/18 بمراجعة الدكتور : أحمد فريد الرفاعي مكتبة عيسى البابي -مصدر بدون تاريخ -وبغية الوعاة 73/1
35 -معجم الأدباء 207-208/18 وبغية الوعاة 140-141/1
36 -فتح المغيث للسخاوي 47/3 وبغية الوعاة 4/2-5
37 -معجم الأدباء 141/7 وبغية الوعاة 481/1
38 -تاريخ بغداد 170/10-171
39 -النهاية لابن الأثير 6/1 وفتح المغيث 47/3 وبغية الوعاة 63-64/2
40 - وكتاباه غريب الحديث وإصلاح الغلط مطبوعان .
41 -و 42 - النهاية في غريب الحديث والأثر 6/1 وفتح المغيث 47/3
43 -بغية الوعاة 269/1-271
44 -فهرست مارواه ابن خير عن شيوخه ص 195 القاهرة مصر ط 2 - 1963 م
45و 46 - تاريخ بغداد 335/1 معجم الأدباء 138/7 و 141/17 وبغية الوعاة 18/1-19
47 - انباه الرواة على أنباء النحاة القفطي ت 624 تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار الفكر القاهرة ط 1-1986 م 14/1 وبغية الوعاة 396/1
48و 49 انظر جدوة المقتبس 504/2 و 528 معجم الأدباء 16237/16 بغية الوعاة 252/2.
50 -معجم الأدباء 311 وفيات الأعيان 464/3 بغية الوعاة 212/1
51 - معجم الأدباء 67/16-68
52 - بغية الوعاة 226/2
53 - بغية الوعاة 164/1

54- تاريخ بغداد 429/9 بغية الوعاة 36/2

55-انظر مقدمة كتاب غريب الحديث للإمام الخطابي 68/1 وتقديم محقق الكتاب 27/1

56-انظر أقوال العلماء المشيدة بكتاب غريب الحديث للخطابي بالمصادر التالية : يتيمة الدهر 335/4، سير أعلام النبلاء 11/1-8 النهاية في غريب الحديث والأثر 8/1 ،نهاية في غريب الحديث والأثر 8/1 .

57-هذه المصادر الخمسة هي : الصحاح للجوهري، وحواشيه لابن بري، والتهذيب للأزهري والمحكم لابن سيدة، والنهاية لابن الأثير .

تاريخ علم مختلف الحديث وأهم رواده

ذ . فؤاد بوقجيج
كلية الآداب - مكناس

ملخص :

يكتسب علم مختلف الحديث أهمية بارزة بين باقي العلوم الإسلامية بصفة عامة وعلوم الحديث بصفة خاصة، إذ أن معرفته والإحاطة به تعد لبنة رئيسية في فهم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم والوقوف علي دلالته، وإن الجهل بهذا الفن كثيرا ما أوقع قراء الحديث النبوى في نسبة التعارض والاختلاف إليه، مع أنه بريء من أي تضارب أو تناقض، كما بين لنا ذلك أحد رواد هذا الفن وهو الإمام أبو جعفر الطحاوي.

مقدمة :

لعل من نافلة القول أن أقرر بأن علوما كثيرة نشأت في هذه الأمة الإسلامية خدمة للوحي المعصوم -بشقيه القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة-، فاختص بعض هذه العلوم بالقرآن الكريم كعلم التفسير والقراءات القرآنية وأسباب النزول وغيرها، ومنها ما انصبت فيه جهود العلماء على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذه تنقسم بدورها إلى قسمين (1) : قسم اهتم برجال الحديث ورواته كعلم الجرح والتعديل والأسماء والكنى والثقات والضعفاء وغيرها... وقسم آخر عني فيه المحدثون بألفاظ الحديث النبوي للوقوف على معانيها ودلالاتها واستنباط الأحكام الواردة فيها اهتداء إلى مقاصد الشارع، كعلم ناسخ الحديث ومنسوخه وفقه الحديث وعلم مختلف (2) الحديث -وغير ذلك كثير- الذي تدور حوله هذه الورقة، والتي أصبو من خلالها إلى التعريف بهذا العلم وتاريخ التأليف فيه، مع الإشارة إلى خلاصة أقوال العلماء حول قضية التعارض بين نصوص الشريعة، معرجا على أهم رواد هذا العلم المشهورين وهو الإمام أبو جعفر الطحاوي حيث سأقف على أبرز ملامح منهجه في معالجة مختلف الحديث .

1) تعريف علم مختلف الحديث (3) :

لأهمية علم مختلف الحديث نجد أن علماء مصطلح الحديث قد ذكروه معترفين بمدى صعوبة هذا النوع الذي لا يدركه إلا العلماء الذين اجتمعت لديهم صناعة الحديث والفقه معا، وقليل ماهم، يقول ابن الصلاح الشهرزوري ت 643 هـ)

«وإنما يكمل للقيام به الأئمة الجامعون بين صناعتي الحديث والفقه الغواصون على المعاني الدقيقة» (4)

وذكره الإمام يحيى بن شرف الدين النووي (ت 676 هـ)

في النوع السادس والثلاثين من أنواع علوم الحديث فقال :

«معرفة مختلف الحديث وحكمه، هذا فن من أهم الأنواع ويضطر إلى معرفته جميع العلماء من الطوائف، وهو أن يأتي حديثان متضادان في المعنى ظاهرا فيوفق بينهما أو يرجح أحدهما، وإنما يكمل له الأئمة الجامعون بين الحديث والفقه، والأصوليون الغواصون على المعاني (5) »

وقد يدخل في تعريف علم مختلف الحديث «مشكل الحديث»كذلك، يقول نور الدين عتر : «وربما سماه المحدثون مشكل الحديث، وهو ما تعارض ظاهره مع القواعد فأوهم معنى باطلا أو تعارض مع نص شرعي آخر، وهو من أهم ما يحتاج إليه العالم والفقيه ليقف على حقيقة المراد من الأحاديث النبوية، لا يمهر فيه إلا الإمام الثاقب النظر (6).

وعليه فإن بين علم مختلف الحديث ومشكله عموم وخصوص من وجه، فكل مختلف هو بالضرورة مشكل، لأن فيه إشكالا نتيجة التداخل والالتباس والتعارض، وليس كل مشكل مختلفا، ذلك أن الإشكال قد يكون ناجما عن إبهام وغموض في الحديث نفسه أو معارضة للعقل أو اللغة (7)، ورغم هذا الفارق الدقيق بين مختلف الحديث ومشكله، فإن من العلماء من صنف مشكل الحديث ضمن مختلف الحديث، كما فعل ذلك الإمام محمد بن جعفر الكتاني، حيث اعتبر مختلف الحديث ومشكله نوعا واحدا في معرض حديثه عن الكتب المؤلفة في هذا الفن، قال : «ومنها كتب في اختلاف الحديث أو تقول في تأويل مختلف الحديث أو تقول في مشكل الحديث أو تقول في مناقضة الأحاديث وبيان محامل صحيحها (8) » فاختلاف الحديث هو ذكر الأحاديث التي يبدو بينها اختلاف وتعارض في الظاهر، وينظر العلماء فيها وبحثها تتم إزالة التعارض إما ببيان الناسخ من المنسوخ أو العام من الخاص، وغيرها من طرق حل التعارض التي سألمح إلى بعضها فيما بعد.

أما مشكل الحديث فهو الحديث الذي فيه غموض والتباس يحجب إدراك المعنى المراد منه، بحيث لا يتوصل إليه إلا بالكشف عن معناه اللغوي ومعرفة مدى مسايرته لمقاصد الشريعة، أو أن الحديث مشكلا لما يكتنفه من تعارض في الظاهر مع نص آخر، حيث يزول ذلك التعارض بإمعان النظر وتدقيق الفهم للحديثين معا.

ولأهمية هذا الفن فقد ألف فيه العلماء كتبا جليلة اعتبرت من المظان الأساسية لمعرفة هذا العلم والاطلاع على خباياه.

2) المؤلفات في علم مختلف الحديث :

ترجع عناية العلماء بهذا الفن إلى القرن الثاني الهجري، حيث تطلعنا المصادر على أن أول من طرق بابه هو الإمام محمد ابن إدريس الشافعي المطلبي (ت 204 هـ) حيث أفرد فيه مصنفا قائما بذاته سماه «اختلاف الحديث» صدره رحمه الله بمقدمة بين فيها أهمية السنة النبوية وحث على اتباعها وبعد المقدمة بدأ الإمام الشافعي كتابه بـ (باب الاختلاف من جهة المباح) (9) وأنهاه ب (باب المختلفات التي عليها دلالة) (10) والناظر في الكتاب يلحظ أنه في مجمله يعد تطبيقا للقواعد الأصولية- التي كانت الريادة فيها للإمام الشافعي- على مسائل الفقه التي ثار حولها الخلاف، وتجدر الإشارة إلى أن أبواب الكتاب ليست مرتبة بل جاءت متناثرة ومتفرقة في غياب منهج يحكمها. هذا بالإضافة إلى كتابه «الرسالة» الذي ضمنه كثيرا من القواعد للتعامل مع المختلف وطرق حله. يقول مثلا : «ولا ينسب الحديثان إلى الاختلاف، ما كان لهما وجها يمضيان معا، إنما المختلف مالم يمض إلا بسقوط غيره مثل أن يكون الحديثان في الشيء الواحد هذا يحله وهذا يحرمه» (11) وتكلم عن المختلف كذلك في كتابه «الأم» (12) الذي وإن كان كتاب فقه فإنه لم يخل من بعض مسائل مختلف الحديث .

ثم ألف في هذا الفن بعد الإمام الشافعي الإمام أبو محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينوري النحوي اللغوي (ت 276 هـ) كتابه الشهير «تأويل مختلف الحديث» فبعد المقدمة يقول ابن قتيبة «وأما المتناقض فنحن مخبروك بالمخارج منه ومنبهوك على ما تأخر عنه علمك وقصر عنه نظرك وبالله الثقة وهو المستعان-فقال- : «ذكر الأحاديث التي ادعوا عليها التناقض، والأحاديث التي تخالف عندهم كتاب الله تعالى والأحاديث التي يدفعها النظر وحجة العقل» (13)

وألف بعده في مختلف الحديث أبو يحيى زكريا بن يحيى الساجي (ت 307 هـ) (14) ومحمد ابن جرير الطبري (ت 310 هـ) (15)

وجاء بعدهم الإمام أبو جعفر الطحاوي (ت 321 هـ) فألف كتابيه «شرح معاني الآثار» ومشكل الآثار (16) -ولنا معهما وفقة فيما بعده- وألف بعده أبو بكر بن الحسن بن فورك (ت 406 هـ) كتابا سماه «مشكل الحديث وبيانه» (17) وقد أورد فيه الأحاديث الموهمة للتشبيه والتي اعترض عليها بعض أهل الكلام، ثم بين معناها والمراد منها انطلاقا من وجهة نظر الأشاعرة، وقد غلب عليه أثناء معالجته للأحاديث المشكلة أسلوب أهل الكلام عوض المحدثين، إذ قلما يهتم بنقد الأسانيد والمتون بل يذكر الأحاديث بدون سند أصلا.

«أبكار الأفكار في مشكل الأخبار» اسم مؤلفه مجهول ويغلب على لظن أنه عاش في القرن السادس الهجري تقريبا (18) وألف فيه كذلك عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت 597 هـ)كتابه «التحقيق في أحاديث الخلاف (19)

وألف السيوطي «تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه » (20) وألف بعده محمد بن علي بن طولون الحنفي ت 953 هـ) (21) ثم ألف عبد الله بن علي النجدي القصيمي كتابه «مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها » (22)

هذه أشهر الكتب التي ألفت في موضوع مختلف الحديث، بعضها يقارب هذا الموضوع ويلامسه بشكل واضح، والبعض الآخر كان أقرب إلى مشكل الحديث منه إلى مختلفه، لتنوع مناهج مؤلفيها واختلاف دواعي التأليف .

إن موضوع «مختلف الحديث» يلامس جانبا مهما من نصوص الوحي في شقه النبوي - أعني السنة النبوية المشرفة- لهذا الاعتبار كانت مقاربة إشكال الاختلاف والتعارض ومعرفة مدى إمكانه قضية أساسية في هذه الورقة .

3) تعارض النصوص الشرعية بين الاستحالة والإمكان :

إن نصوص الشريعة الإسلامية لا يوجد بينها تعارض، ويستحيل تحققه إلا من بعض الجوانب التي تظهر للناظر غير المتفحص، فالنظر الفاحص المتمعن يثبت ويقرر حقيقة عدم إمكان التعارض بين النصوص الشرعية- الحديثية منها وكذا القرآنية، وفيما بين نصوص الحديث ونصوص القرآن من جهة أخرى لأن ذلك يؤدي إلى تعارض الأحكام الواردة فيهما،

فما يبيحه نص قد يحرمه آخر والعكس صحيح، إذ لتحقيق معنى المعارضة لا بد من وجود حكمين متضادين، يقول الإمام النسفي : «المعارضة تقابل الحجتين على السواء لامزية لإحداهما في حكمين متضادين وشرطهما اتحاد المحل والوقت مع تضاد الحكم» (23) فمتى وجد نص يحرم ونص آخر يبيح فلا بد وأن لهذا التعارض مخرجا، وإلا فإن ذلك سيصير عين العبث، والشارع منزه عن العبث- تعالى الله عن ذلك علوا عظيما -ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام إنما يتكلم بالوحي من الله سبحانه فيستحيل أن يكون التناقض والتعارض من صفات حديثه .

ولقد قرر جمهور الأحناف وأئمة المذاهب الثلاثة الأخرى وابن حزم والشاطبي وغيرهم منع وقوع التعارض بين الأدلة في الواقع ونفس الأمر، وإنما يقع التعارض عندهم في ذهن المجتهد لجهل أو وهم أو خطإ في فهم مراد الشارع، يقول الإمام السرخسي : «إعلم بأن الحجج الشرعية من الكتاب والسنة لا يقع بينهما التعارض والتناقض وضعا، لأن ذلك من أمارات العجز، والله يتعالى عن أن يوصف به، وإنما يقع التعارض لجهلنا بالتاريخ، فإنه يتعذر به علينا التمييز بين الناسخ والمنسوخ، ألا ترى أن عند العلم بالتاريخ لا تقع المعارضة بوجه، ولكن المتأخر ناسخ للمتقدم. فعرفنا أن الواجب في الأصل طلب التاريخ ليعلم به الناسخ من المنسوخ، وإذا لم يوجد ذلك يقع التعارض بينهما في حقنا من غير أن يتمكن التعارض فيما هو حكم الله تعالى في الحادثة» (24) فالعلم بالتاريخ يعتبر مسلكا قويا لإزالة التعارض الظاهر، والجهل به يودي إلى عدم معرفة الناسخ والمنسوخ مما يكون ذلك سببا في اعتقاد التناقض بين نصوص الشريعة «إذ لا تناقض بين أدلة الشرع لأنه دليل الجهل، واعلم أن في الكتاب والسنة حقيقة التعارض غير متحققة ، لأنه إنما يتحقق التعارض إذا اتحد زمان ورودهما ولا شك أن الشارع تعالى وتقدس منزه عن تنزيل دليلين متناقضين في زمان واحد... لكنا لما جهلنا المتقدم والمتأخر توهمنا التعارض لكن في الواقع لا تعارض (25)» لأن اعتبار التعارض حقيقة وواقعا هذا معناه إبطال التكليف، إذ ما أثبته نص من القرآن أو الحديث سيلغيه النص الآخر المعارض له وهذا سيؤدي حتما إلى إسقاط الأحكام المتضمنة للتكاليف التي قصد إليها الشارع بدءا.

والمحدثون هم كذلك لا يقرون بهذا التعارض، يقول الخطيب البغدادي (ت 463 هـ) «وكل خبرين علم أن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم بهما فلا يصح دخول التعارض فيهما على وجه وإن كان ظاهر هما متعارضين لأن معنى التعارض بين الخبرين والقرآن من أمر

ونهي وغير ذلك أن يكون موجب أحدهما منافيا لموجب الآخر، وذلك يبطل التكليف إن كان أمرا ونهيا وإباحة وحظرا أو يوجب كون أحدهما صدقا والآخر كذبا إن كانا خبرين، والنبي صلى الله عليه وسلم منزه عن ذلك أجمع ومعصوم منه باتفاق الأمة وكل مثبت للنبوة » (26)، إذ لا يعقل أن يُحدِّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديثين إسنادهما صحيح وبينهما تعارض، وهذا ما قرره إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة (ت 311 هـ) كما روى ذلك عنه الخطيب البغدادي بسنده، يقول ابن خزيمة: «لا أعرف أنه روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثان بإسنادين صحيحين متضادان فمن كان عنده فليأت به حتى أؤلف بينهما » (27) فهذا إمام الأئمة يؤكد على إمكانية حل التعارض متحديا من يزعم عدم هذا الإمكان خاصة إذا توفرت شروط الجمع، والتأليف بصحة سندهما، إذ أن ضعف سند (28) أحدهما مقابل صحة الآخر ليس من شروط الجمع فيعمل بالصحيح حينئذ ويطرح الضعيف دون تكلف عناء الجمع . وهذا الإمام ابن حزم الظاهري (ت 456 هـ) يعتبر التعارض بين نصوص الشريعة مجرد ادعاء وظن يعتقده من لا علم له، فعقد فصلا في كتابه الإحكام سماه : (فصل فيما ادعاه قوم من تعارض النصوص) قال فيه :«إذا تعارض الحديثان أو الايتان أو الاية والحديث فيما يظن من لا يعلم ففرض على كل مسلم استعمال كل ذلك، لأنه ليس بعض ذلك أولى بالاستعمال من بعض» (29) ويضيف قائلا «ويبين صحة ما قلنا- من أنه لا تعارض بين شيء من نصوص القرآن ونصوص كلام النبي صلى الله عليه وسلم وما نقل من أفعاله -قول الله عز وجل مخبرا عن رسوله عليه السلام (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) (30)... وقال تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (31) فأخبر-عز وجل أن كلام نبيه صلى الله عليه وسلم وحي من عنده كالقرآن في أنه وحي وفي أنه كل من عند الله عز وجل... فلما صح أن كل ذلك من عند الله تعالى، ووجدناه تعالى قد أخبر أنه لا اختلاف فيما كان من عنده تعالى صح أنه لا تعارض ولا اختلاف في شيء من القرآن والحديث الصحيح، وأنه كله متفق كما قلنا ضرورة وبطل مذهب من أراد ضرب الحديث بعضه ببعض أو ضرب الحديث بالقرآن، وصح أن ليس شيء من كل ذلك مخالفا لسائره، علمه من علمه وجهله من جهله» (32) ولا يخفى ما في هذا النص من كلام قوي متماسك يدعمه النظر العقلي والحجج النقلية.

فإذا كان مصدر الشريعة واحدا، وكان التعارض منفيا عن القرآن الكريم، انتفى كذلك بالضرورة عن السنة النبوية، وكان هذا الاختلاف المتوهم فيما بين نصوص الشريعة لا

أصل له، وإذا ما وجد فهذا يعني أنه تكليف بما لا يطاق الذي لم يقصد إليه الشارع أصلا، وهذا ما يقرره الإمام الشاطبي (ت 790 هـ) يقول : «الشريعة كلها ترجع إلى قول واحد في فروعها وإن كثر الخلاف كما أنها في أصولها كذلك، ولا يصلح فيها غير ذلك والدليل عليه أمور : أحدها أدلة القرآن، من ذلك قوله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) (33) فننفى أن يقع فيه الاختلاف البتة... والآيات في ذم الاختلاف والأمربالرجوع إلى الشريعة كثير، كله قاطع في أنها لااختلاف فيها... والثاني أن عامة أهل الشريعة أثبتوا في القرآن والسنة الناسخ والمنسوخ على الجملة وحذروا من الجهل به والخطإ فيه، ومعلوم أن الناسخ والمنسوخ إنما هو فيما بين دليلين يتعارضان بحيث لا يصح اجتماعهما بحال وإلا لما كان أحدهما ناسخا والآخر منسوخا والفرض خلافه... والثالث أنه لو كان في الشريعة مساغ للخلاف لأدى إلى تكليف ما لا يطاق» (34) ويقرر نفس المعنى أيضا في معرض كلامه عن دخول البدع في الشرع، يقول : «... والثاني أن يوقن أنه لا تضاد بين آيات القرآن ولا بين الاخبار النبوية ولا بين أحدهما مع الآخر، بل الجميع جار على مهيع واحد ومنتظم إلى معنى واحد، فإذا أداه بادي الرأي إلى ظاهر اختلاف فواجب عليه أن يعتقد انتفاء الاختلاف، لأن الله قد شهد له أن لا اختلاف فيه فليقف وقوف المضطر السائل عن وجه الجمع أو المسلم من غير اعتراض، فإن كان الموضع مما يتعلق به حكم عملي فليلتمس المخرج حتى يقف على الحق اليقين أو ليَبْقَ باحثا إلى الموت ولا عليه من ذلك، فإذا اتضح له المغزى وتبينت له الواضحة، فلا بد له من أن يجعلها حاكمة في كل ما يعرض له من النظر فيها، ويضعها نصب عينيه في كل مطلب ديني كما فعل من تقدمنا ممن أثنى الله عليهم» (35).

فهذه الشواهد كلها تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن التعارض منفي عن نصوص الشريعة، وأنه لا تعارض فيها إلا ما يظهر للناظر أول الأمر، وهو ليس في الحقيقة كذلك إذ المخارج من هذا التعارض المتوهم كثيرة جدا يدركها الفقهاء الجهابذة ببعد نظرهم وغوصهم على معاني الأحاديث لفهم مقاصدها.

4- منهج الإمام الطحاوي في علم مختلف الحديث :

ومن العلماء الذين كان لهم إسهام وافر في علم مختلف الحديث الإمام أبو جعفر الطحاوي (ت 321 هـ) الذي قدم خدمات جليلة للسنة النبوية بكشفه عن أوجه الحلول الممكنة لحل التعارض المدعى بين نصوصها، وتوجيهه لمعاني النصوص المشكلة فيها، يقول

رحمه الله :«وسبيل الآثار أن تحمل على الاتفاق ما وجد السبيل إلى ذلك ولا تحمل على التنافي والتضاد » (36)، وعنده أن الآثار لا تحمل على التضاد والتعارض إلا إذا تعذر وجود وجه تحمل عليه فيحل تعارضها، يقول :«وهكذا ينبغي أن يخرج عليه الآثار ويحمل على الاتفاق ما قدر على ذلك ولا يحمل على التضاد إلا أن لا يوجد لها وجه غيره» (37).

والواقع أن علم مختلف الحديث قد شهد نهضة لا مثيل لها مع الإمام أبي جعفر الطحاوي فقيه الحنفية، حيث صنف فيه كتابيه الشهيرين شرح معاني الآثار ومشكل الآثار- كما ألمحنا إلى ذلك- ضمنهما جملة كثيرة من قواعد التعامل مع علم مختلف الحديث بعضها يخص حل المتعارض وبعضها المشكل.

أ- أهم القواعد التي اعتمدها في حل المتعارض :

1- اعتماده على علم الناسخ والمنسوخ في حل المتعارض (38)

2- اعتماده على اللغة في حل المتعارض (39)

3- حل التعارض بتبيين أن أحد الحديثين دل على معنى غير الذي دل عليه الحديث الآخر، أو أن المعنى المراد من أحدهما ليس هو المعنى المراد من الأخر(40) ويدخل في هذا المسلك ما يلي:

- التفريق بين معنى الفضل والفرض (41)
- التفريق بين معنى الخاص والعام (42)
- حمل المجمل على المبين (43)

4 - حل التعارض بتبيين أن بعض الرواة قد قصروا في حفظ ما حفظه غيرهم (44).

5 - حل التعارض باعتبار أن الحالتين معا وردتا عن الرسول صلى الله عليه وسلم (45)

6 - حل التعارض اعتمادا على الاحتمال (46)

7 - حل التعارض بالقياس (47)

8 - حل التعارض بالقرآن (48)

ب- أما بالنسبة للأحاديث المشكلة فقد سلك فيها منهجا نجمله فيما يلي:

1- حل المشكل برواية أحاديث أخرى في نفس الباب (49)

2- حل المشكل بالتفريق بين الوجوب والاختيار أو ما يدخل في معناهما (50)

3- حل المشكل بالاحتمال (51)

4- حل المشكل بالنظر في معنى الحديث وتبيين مراده (52) ومما يدخل في هذا المعنى أيضا:

* حل المشكل بحمل النص على معنى مستقبلي- أي باعتبار ما سيكون (53)

* حل المشكل بتبيين أن النص جاء على سبيل المثل (54)

5- حل المشكل بالقرآن الكريم (55)

هذه أبرز الطرق التي سلكها الإمام الطحاوي في علم مختلف الحديث تمكن بواسطتها من تحقيق التوافق والتصادق بين أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، فكان هذا العلم الذي أبدعه رجال الحديث ورواته شاهد آخر على مدى تفانيهم في خدمة سنته صلى الله عليه وسلم والدفاع عنها فهما لمعانيها وحفاظا عليها تحقيقا لوعده سبحانه وتعالى بحفظ وحيه «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» (56).

الهوامش :

1 - وتوجد بطبيعة الحال أنواع أخرى تشمل كلا من الرجال والألفاظ -أي المتون - مثل علم مصطلح الحديث وعلل الحديث وغيرها .

2 -المختلف في الاصطلاح اللغوي مصدر الفعل : اختلف والمختلف اسم فاعل والمختلَف اسم مفعول، والخلاف والمخالفة... وتخالف الأمران واختلافا لم يتفقا ، وكل ما لم يتساو فقد تخالف واختلف... والاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله... وليس كل مختلفين ضدين لأن الخلاف أعم من الضد، ولكن كل ضدين مختلفان، انظر لسان العرب مادة (خلف) ج 1240/2 طبعة دار صادر -بيروت وانظر تاج العروس مادة (خلف) ج 101/6-103 مطبعة حكومة الكويت (1385هـ -1965) ، وللفظ الاختلاف ألفاظ مرادفة تؤدي نفس المعنى كالتعارض والنقض، انظر لسان العرب مادة (عرض) ج 2889/4 ومادة (نقض) ج 4524/6.

3 - مع ملاحظة أن في تعريف هذا العلم إشارة واضحة إلى صعوبة مسلكه ودقته.

4 - انظر مقدمة ابن الصلاح مع التقييد والإيضاح ص 244 طبعة دار الحديث بيروت -لبنان- ط II (1405 هـ-1984م)

5 - انظر تقريب النووي مع التدريب ج 175/2
تحقيق أحمد عمر هاشم دار الكتاب العربي، بيروت -لبنان (1409هـ 1989م)

6 - انظر منهج النقد في علوم الحديث ص 337 طبعة دار الفكر -دمشق -سوريا ط III (1401 هـ، 1981 م)

7 - وانظر التفريق بينهما في «أبو جعفر الطحاوي وأثره في الحديث» لعبد المجيد محمود ص 260 الهيئة المصرية العامة للكتاب -القاهرة (1395هـ - 1975م)

8 - انظر الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة ص 158 دار البشائر الاسلامية، الطبعة الرابعة (1406هـ / 1986م)

9 - انظر اختلاف الحديث ص 41 تحقيق محمد أحمد عبد العزيز دار الكتب العلمية - بيروت- ط I (1406 هـ / 1986م)

10 - نفس المصدر ص 266

11 - انظر الرسالة ص 342 دار الفكر تحقيق أحمد محمد شاكر (1309هـ) وانظر نماذج أخرى من كلامه في المختلف ص 213 و 216 من نفس المصدر

12 - انظر الأم ج 180/7 طبعة دار الشعب 1388هـ، وانظر كذلك ج 2 / 148

13 - انظر تأويل مختلف الحديث ص 86-87 صححه وضبطه محمد زهري النجار ، دار الجيل بيروت لبنان- وقد تعرض ابن قتيبة في كتابه لكثير من مشكل الحديث أكثر مما عالج مختلف الحديث، حتى حق له أن يسمى تأويل مشكل الحديث عوض مختلف الحديث .

14 -انظر الرسالة المستطرفة ص 158

15 -نفس المصدر والصفحة

16 - نفس المصدر والصفحة لكنه لم يذكر شرح معاني الآثار

17 - بتحقيق وتعليق موسى محمد علي، طبعة عالم الكتب ط II (1405هـ 1985/)

18 - انظر أبو جعفر الطحاوي وأثره في الحديث ص 276

19 -انظر الأعلام للزركلي ج 90/4 الطبعة الثالثة

20 - والكتاب مطبوع

21 - انظر أبو جعفر الطحاوي وأثره في الحديث ص 276

22 - والكتاب مطبوع بتحقيق الشيخ خليل الميس، دار القلم بيروت -لبنان - الطبعة الأولى (1405هـ1985/م)

23 - انظر كشف الأسرار وبهامشه شرح نور الأنوار على المنار ج 87/2 طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط I (1406هـ 1986/م)

24 - انظر أصول السرخسي ج 12/2 بتحقيق أبي الوفا الأفغاني، دار المعرفة بيروت -لبنان - لكن إذا أمكن التوفيق بين ما يختلف يحمل على النسخ كما قرر ذلك الإمام أبو سليمان الخطابي، انظر معالم السنن ج 80/3 طبعة المكتبة العلمية، بيروت -لبنان ط III (1401هـ 1981م) وانظر في هذا السياق كذلك كشف الأسرار للنسفي ج 88/2 والتقرير والتحبير على التحرير وبهامشه نهاية السول في شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول ج 2/3 طبعة دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ط II (1403هـ / 1983م)

25 - انظر شرح التوضيح للتنقيح بهامش التلويح ج 104/2 للإمام صدر الشريعة عبيد الله بن مسعود البخاري دار الكتب العلمية بيروت -لبنان -(1377هـ 1957م)

26 - انظر الكفاية في علم الرواية ص 473 بتحقيق وتعليق د أحمد عمر هاشم دار الكتاب العربي- بيروت -لبنان ط II(1406هـ 1986م).

27 - نفس المصدر والصفحة، وهذا ما قرره الإمام الشافعي قبله في الرسالة حيث قال : «ولم نجد عنه حديثين مختلفين إلا ولهما مخرج أو على أحدهما دلالة بأحد ما وصفت : إما بموافقة كتاب أو غيره من سنته أو بعض الدلائل» (انظر الرسالة ص 216.

28 -وكذلك بطبيعة الحال إذا حصل ذلك في المتن، بصحة متن أحدهما وضعف الآخر ولو صح سندهما جميعا فإن شروط الجمع أيضا غير متوفرة.

29 - انظر الإحكام في أصول الأحكام ج 21/2 مطبعة السعادة مصر الطبعة الأولى (1346هـ) وانظر حجة الله البالغة لشاه ولي الله الدهلوي ج 397/1 بتعليق

الشيخ محمد شريف سكر دار إحياء العلوم بيروت لبنان ط I (1410هـ 1990م)، حيث أورد الإمام الدهلوي وجوها كثيرة للتعارض مع تبيين مخارجها في باب (القضاء في الأحاديث المختلفة).

30 - سورة النجم، الآية : 3-4

31 - سورة : النساء الآية : 81

32 - انظر الإحكام في أصول الأحكام ج 35/2

33 -سورة : النساء الآية : 81

34 - انظر الموافقات ج 4 /من المجلد 2 / 63-64 بتعليق محمد الخضر حسين طبعة دار الفكر، وانظر أيضا ما ذكره في نفس المعنى في ص 174من نفس الجزء.

35 - انظر الاعتصام ج 310/2 دار المعرفة -بيروت لبنان (1402هـ / 1982)

36 - انظر شرح معاني الآثار ج 392/4 بتحقيق محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية -بيروت- لبنان ط II (1407هـ / 1987م)

37 - نفس المصدر ج 434/1

38 - نفس المصدر ج 62/1-67

39 -انظر مشكل الآثار ج 223/4-227 مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة بالهند -حير أباد الدكن ط I (1333 هـ) دار صادر بيروت .

40 - انظر شرح معاني الآثار ج 320/4-322

41 - انظر شرح معاني الآثار ج 42/2-44

42 - انظر شرح معاني الآثار ج 358/4-360

43 -انظر شرح معاني الآثار 329/4-330

44 -انظر مشكل الآثار ج 10/1-13

45 - انظر شرح معاني الآثار ج 139/2-143

46 - انظر شرح معاني الآثار ج 88/1-91

47 - انظر شرح معاني الآثار ج 142/1-143

48 - انظر مشكل الآثار ج 236/1-241

49 - انظر مشكل الآثار ج 92/1-94

50 - انظر مشكل الآثار ج 126/1-128

51 - انظر مشكل الآثار ج 109/1-110

52 - انظر مشكل الآثار ج 168/1-169

53 - انظر مشكل الآثار ج 393/2-394

54 - انظر مشكلالآثار ج 95/3-97

55 - انظر شرح معاني الآثار ج 150/3-153

56 - سورة الحجر ، آية : 9

مفهوم الظاهر عند الأصوليين

محمد علوي بنصر
كلية الآداب - مكناس

مدخل :

اللغة أداة تواصل : تنقل المشاعر والمعاني والقيم من شخص لآخر، فتحدث من التفاهم والتآلف بين الناس ما يظهر فضيلة اللغة وفضيلة الاجتماع في آن واحد، وإذا كان الانسان اجتماعيا بطبعه فهو لغوي أيضا بطبعه، على اللغة يقوم وجوده، وفيها يسجل تاريخه وهمومه وطموحاته، باللغة، كان وباللغة سيكون، وبين الماضي والمستقبل تستمر عملية حفر جذري في اللغة لتستوعب كل معارفه وقيمه القابلة للامتداد عبر الزمان والمكان، تعبير الانسان عن ذلك في أي مستوى وفي أي اتجاه يتسم بالظهور والوضوح، لأنه تعبير عما يحس ويعقل، وما يحس ويعقل يأخذ باهتمامنا، ويشدنا إليه بقدر ما هو ظاهر وواضح، لأن ذلك الوصف دليل على وضوح الرؤيا، والوضوح يولد الفهم، وبالفهم يقرب البعيد، وحيث أن الظاهر بهذه المكانة فإن الحديث عنه سيكون وفق الخطوات التالية:

الظاهرة والخطاب الشرعي

الأصل في كل خطاب (1) توخي البيان، وكشف الخفاء، وإزالة الابهام، حتى يدرك المتلقي القصد منه، والغرض الذي ورد له، لأجل ذلك، فالمخاطب يتوخى الدقة والوضوح فيما يقصد، فكان وصف "الظاهر" من أخص أوصاف الخطاب، لأنه يحقق شرعية الافهام، وحسن التبليغ، وجودة التواصل، وهذا لا يخرج عن مقصود الشارع في خطابه الوارد على المكلفين، وقد حصر العلماء وظيفته في أمرين (2) :

- تفهيم المخاطب ماله
- تفهيم المخاطب ما عليه

وحصر وظيفة الخطاب في التفهيم، يستلزم كونه بينا واضحا لا اجمال فيه ولا اشتباه (3) ولو كان فيه بحسب قصده اجمال أو اشتباه لناقض أصل الخطاب فلم تقع به فائدة، إذ لا يعقل خطاب مقصود من غير تفهيم مقصود والحال أنه خطاب تكليف.

فالتعلق بظاهر الخطاب هو تعلق بمقصوده أصلا، ولو حمل على غير ظاهره لحط ذلك من قدره، ولحل المتكلم به محل الحصر العيي، الذي يعمم -مثلا - من غير غرض، ويبتغي التخصيص من غير اشعار، فينتج عن ذلك، أن كل ما يتضمن الحاق الخطاب بالمستهجن فهو مردود على قائله.

ومراعاة المقصود من الخطاب لا تمنع المخاطب من أن يتصرف في اللغة من حيث اختيار الالفاظ والمعاني كما لا تمنع من أن يتوسع فيهما ويستعمل من اللسان ما يفي بغرضه، ملائما لتوجيهه، وهذا ما اصطلح عليه بالاستعمال.

والاستعمال : إطلاق اللفظ وإرادة مسماه بالحكم وهو الحقيقة، وعلى المخاطب أن يعتقد أن الخطاب يدل على معنى في ذاته، وهذا ما اصطلح عليه بالحمل .

والحمل اعتقاد السامع مراد المتكلم من لفظه، أو ما اشتمل عليه مراده.

فالمراد كاعتقاد المالكي أن الله تبارك وتعالى أراد بلفظ : "القرء" الطهر واعتقاد الحنفي أن الله أراد به الحيض .

والمشتمل نحو حمل الشافعي اللفظ المشترك على جملة معانيه عند تجرده من القرائن -لاشتماله على مراد المتكلم احتياطا.

ولما كان الخطاب الشرعي خطابا لغويا توقف ادراكه على فهم اللغة فهما يطابق مراميه، وكل لغة تخضع لقواعد معينة تتناول أسس التفاهم بين مستعملها من جهة، والمخاطب بها من تجهة ثانية، ولهذا فالمخاطب حين لا يحمل الخطاب على ظاهره يستعين بكل الأدوات الممكنة لفهم الغائب منه، أو ما يحتاج إلى اجراء بياني ولما كان الخطاب الشرعي خطابا لغويا كان بذلك خطابا مفتوحا، ولا يتعلق انفتاحهت بطبيعته اللغوية فقط، بل وشرعيته أيضا ". (المنهجية الأصولية 30)

أنواع الظاهر

تحصل مما تقدم أن الحديث عن الظاهر يشمل مستويين :

- المستوى اللغوي، أو المعجمي
- المستوى الشرعي، أو الإصطلاحي

المستوى الأول : الظاهر اللغوي:

لا شك أن تقدم المعرفة بوضع اللغة التي تمت بها المخاطبة تسهل العبور إلى معرفة المراد من الخطاب، لأن الواضع انما وضع الالفاظ لمعانيها مجتمعة أو متفرقة، فتكون ظاهرة فيما وضعت له، مشعرة باوجه الترابط بين الدال والمدلول، ويكفي في ادراك المعاني في هذا المقام ما يدل عليه الوضع، ويمكن تصنيف معاني فعل "ظهر" الثلاثي اللازم المتصرف لتحاشي التداخل الدلالي الذي ورد به في المعاجم ، إلى أربع مجموعات (5)

م 1 : ظهر يظهر ظهورا بمعنى : برز ووضح بعد خفاء

م 2 : ظهر يظهر ظهرا وظهورا البيت : علاه

ومنه : ظهر على عدوه، واستظهر عليه .

م 3 : ظهر يظهر ظهارة كان قوي الظهر

و مثله يظهر ظهرا.

ومن معانيه كل ما له صلة بالظهر سواء كان راحلة أو بشرا مثل اشتكى ظهره، ومنه الظهار والظهير .

م 4 : ظهر يظهر ظهرا وظهورا بمعنى أعانه

ومنه : المظاهرة، التظاهر، الظهر، الظهير.

ولكل مجموعة مشتقاتها التي تحمل سماتها الدلالية زيادة على ما قد تنفرد به مما أثر عن العرب استعماله.

وبناء على هذا التصنيف الذي لا يخلو من مأخذ، فالظاهر ينتمي للمجموعة الأولى حيث أنه يفيد البروز والعلانية والوضوح والبيان والقوة.

فالظاهر إذن، ما ظهر الظهور اللغوي فلا يكون فيه تعريف الشيء بنفسه.

وهو ليس اسم ذات وانما هو صفة لشيء يحس ويدرك قال الفراء: العرب تقول : هذا ظهر السماء.... لظاهرها الذي تراه .

والظاهر من الاسماء الحسنى إذ ليس هناك شيء اسمه الظاهر إلا هو والظاهر أيضا معدود في الاضداد (الأضداد لابن القاسم : 56)

يقال هذا ظاهر عنك : أي زائل.

ويقال : النعمة ظاهرة عليك: أي لازمة لك.

ومأتى التضاد من حروف المعاني.

ونستخلص من هذا التحليل الغوي عناصر يمكن اعتمادها ضوابط لهذا المستوى.

1/ ان الدلالة اللغوية أسبق من غيرها في الاعتبار

2/ ان حمل اللفظ على جهة اللغة ليس بمانع من حمله على جهة أخرى إذا تعدت الدلالة.

3/ إذا منع من العلم بدلالة اللفظ من جهة اللغة مانع، فإن اللفظ ينصرف إلى جهة المانع ويكون ظاهرا في تلك الجهة ولو كان مجازا.

4/ إذا استعمل اللفظ فيما وضع له ابتداء سمي حقيقة.

والحقيقة اللغوية تعرف بكونها اللفظ المستعمل فيما وضع له. والأصوليون مطبقون على وجود الفاظ سموها بالحقيقة، وهي الاسماء التي وضعت ابتداء لذات معينة أو معنى معين غير أنهم لم يلبثوا أن لاحظوا تطور الالفاظ الموصوفة بانها من قبيل الحقيقة اللغوية إلى حقائق أخرى اطلقوا عليها اسم الحقيقة العرفية... أو الحقيقة الشرعية (6) .

وحيث إن لغة النص لغة تواصل، فالمسلم به أن تكون حقيقية فيما تحمل عليه، ظاهرة فيما ترمي إليه، واضحة باعتبار وضعها مسلمة باعتبار دلالتها، ولعل هذا هو ما حدا بالشريف التلمساني إلى اعتبار أن الاصل في الدلالة الظهور (6)

المستوى الثاني : الظاهر الشرعي:

ويقال له أيضا العرف الشرعي باعتبار أنه متلقى من الشارع فيكون ظاهرا فيما استعمله فيه، لان الشارع :

- أما أن يستعمل اللفظ باعتبار ما هو حقيقة فيه وضعا، وذلك كلفظ الدابة، والشاة، واسماء الاعداد....
- وإما أن يستعير اللفظ استعارة لا تبعد به عن معناه الوضعي، كالفاظ الزكاة، والحج، والصلاة، والربا والبيع.

فمن حمل الظاهر الشرعي على هذين المحملين فقد أصاب اذ "لا تخلو الالفاظ الشرعية عن هذين الوجهين، وهما متلقيان من عرف الشارع.

فمن قال ان الشرع زاد في مقتضاها وأراد هذا فقد أصاب الحق/ وإن أراد غيره فالحق ما ذكرناه.

ومن قال إنها نقلت نقلا كليا فقد زل» (البرهان 177/1)

وقال الباقلاني "لم يضع صاحب الشرع شيئا وانما استعمل الالفاظ في مسمياتها اللغوية، ودلت الدلالة على أن تلك المسميات اللغوية لابد معها من قيود زائدة حتى تصير شرعية» (شرح التنقيح: 43)

لأن الشارع راعى التوافق غالبا فيما استعار من الفاظ فالصلاة مثلا يدل معناها اللغوي على القصد والدعاء ثم اطلقت علي العبارة المخصوصة، فصارت حقيقة شرعية فيها إلا أن هذا الاطلاق لا يبعد عن المعنى الأول .

والحقيقة الشرعية من قبيل الظاهر الشرعي أي الظاهر بحكم الاستعمال ومراعاة هذا الحكم قضى بحمل اللفظ الظاهر على عمومه وافراده، واستقلاله ، وتباينه، وتأسيسه، وترتيبه، وتباته...الخ بدل حمله على غير ذلك، وقد عد الشريف التلمساني ت 771 هـ هذه المحامل من أسباب الظهور (7) ويرجع ذلك :

- لا تضاح الدلالة من جهة الوضع
- تزكية الشارع لها بتقديم الظاهر على غيره ما دام مفيدا في بابه ولا يفتقر إلى غيره، ومراعاة الوضع والاستعمال من مراعاة الاصل.

وقد أحسن الشريف التلمساني صنعا حين عدد أسباب الظهور كما عدد أسباب التاويل وبذلك حصر النزاع وحسم الخلاف.

والظاهر الشرعي دليل يجب اتباعه، والعمل به، والاعتماد عليه، والاحتجاج به، والترجيح بأسبابه بدليل اجتماع الصحابة على العمل بظواهر الالفاظ، فانا نعلم أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا وجدوا ما يظهر قصد رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتفوا به، ولم يميلوا إلى غيره، ولو تتبع المتتبع الاخبار التي رويت لهم فعملوا بها لوجدوها ظواهر، وما كانوا يقصرون استدلالاتهم على النصوص، ومن استراب في تعلقهم بالقياس لم يسترب في استدلالهم بالظواهر "ولم يؤثر منع التعلق بالظواهر عمن بخلافه ووفاقه مبالاة (8) " ورأوا أن من يركن إلى القياس لازالة ظاهر ما صح

عندهم في حكم الراد لخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم" (9) فتحصل : أن الأخذ بالظاهر هو ما جرى عليه الصحابة فمن دونهم ، وانه أصل يستمد منه الحكم ولو كان خبر أحاد ، فإن خبر الاحاد أغلب ما في الشريعة، والمتواتر منه قليل، مثله في ذلك مثل النصوص.

- والمكلف محمول على الجريان الظواهر (البرهان 514/1)

الظاهر والنص :

يرد النص بمعنى الظاهر، وهو صحيح في أصل اللغة (10) فإن النص معناه الظهور .

يقال : نصت الظبية إذا عنت وظهرت.

ومنه منصة العروس التي تظهرها .

وباعتبار هذا الوضع يسمى الشافعي الظواهر نصوصا في مجاري كلامه (11) وجاراه على ذلك القاضي أبو بكر الباقلاني فيما حكاه الجويني (12).

والنص اسم مشترك يطلق في تعاريف العلماء على أربعة أوجه منها : تسمية الظاهر نصا ، وعليه فيكون حد النص هو حد الظاهر فيما ذهب إليه الغزالي حيث قال : وهو اللفظ الذي يغلب على الظن فهم معنى منه من غير قطع، فهو بالاضافة إلى ذلك المعنى الغالب ظاهر ونص (13)

فالظاهر والنص بمعنى ما ، لا يختلفان وليس بينهما معارضة وتناقض لان كلا منهما يشترط فيه : أن يكون واضحا بينا ، يفتقر إليه، ينبني عليه غيره، يثبت حكمه بنفسه.

هذه المعاني المشتركة لا تسمح بالقول انهما شيء واحد. فعند الاحناف : النص ما ازداد وضوحا بقرينة تقترن باللفظ من المتكلم، وليس في اللفظ ما يوجب ذلك ظاهرا بدون تلك القرينة (14). فيكون اللفظ ظاهرا بصيغة الخطاب، نصا باعتبار القرينة التي كان السياق لاجلها ، وبيان ذلك في قوله تعالى" واحل الله البيع وحرم الربا" فانه ظاهر في اطلاق البيع، نص في الفرق بين الربا والبيع، لان السياق كان لاحله إذ الآية نزلت ردا على من زعموا المساواة بينهما :

الظاهر والأصل :

يقال: (15) قعد في أصل الجبل، واصل الحائط، وخلع أصل الشجرة، ثم كثر حتى قيل : أصل كل شيء ما يستند وجود ذلك الشيء إليه والأصل أيضا : عبارة عما يفتقر إليه، ولا يفتقر هو إلى غيره. والأصل شرعا ما يثبت حكمه بنفسه وينبني عليه غيره (16).

وهو في هذا المعنى قريب من الظاهر، لأن الظاهر ينبني عليه غيره، ويثبت حكمه بنفيه، يشهد لذلك قولهم :

- انه دليل شرعي يجب اتباعه والعمل به (17)
- إن حكمه لزوم موجبه قطعا (18)

وما كان شأنه ما ذكر كان في معنى الاصل

إلا أن الأصل عند الأصوليين له تقدير آخر، فهو عندهم يفيد معنى: الدليل أو: الرجحان، أو : القاعدة المستمرة... (19) فهل يحمل الظاهر هذه الدلالات التي يحملها الأصل؟

الذي يتبين من النظر أن لفظ الظاهر لا يتسع لهذه المعاني إلا على وجه التضمين الذي يكشف عنه الاستعمال و فقد يرد الظاهر بمعنى الراجح وذلك كقولهم :

- الأصل في الكلام الحقيقة، واعتبار الحقيقة أصلا في الكلام أيضا هو باعتبار الظاهر، وما كان اللفظ ظاهرا فيه فهو الراجح، فيفيد الظاهر معنى الراجح، ومعنى الرجحان عند السامع، قال الفارابي:

الأصل في الكلام الحقيقة أي الراجح (20)

- ومنه أيضا قولهم والظاهر صريح في إفادة المطلوب بمعنى أنه راجح أو بمعنى أنه حجة.
- الظاهر بمعنى القاعدة المستمرة ما لم يرد ما يخالفها ،وذلك كقولهم هذا خلاف الظاهر:

أي أن الحكم يقضي بالاستمرار ولا يحيل علي جهة أخرى.

فهل يثبت للظاهر باعتباره دليلا شرعيا ما يثبت له باعتباره في معنى الأصل؟

الظاهر بحسب أقسام الكلام

ينقسم الظاهر بحسب موارد الكلام إلى ثلاثة أقسام (21) لانه يقع في: الاسماء، والأفعال، والحروف

ووقوع الظاهر فيها قد يكون بسيطا، وقد يكون مركبا.

فالبسيط ما يقع في اللفظة وحدها والمركب ما يقع في الجملة فتتداخل فيه العناصر وتتشابك، ويمكن أن يلحظ هذا فيما سنأتي على ذكره من أمثلة لكل قسم وجانب التركيب هو الغالب على النصوص الظاهرة وما سقته من أمثلة يفي ببعض المطلوب.

الظاهر في الاسم :

الإسم ما دل على معنى في النفس يعرض للذات ويراعى فيه:

أن يكون مستعملا فيما وضع له :

لغة : مثل الشمس، والقمر، والخمر والنعل.

شرعا : الزكاة، الظهار، الشغار ، الساعة

- أن تكون افادته فيما يفيد ظاهرة

- أن لا يحمل على معنى زائد.

فلا يجوز ترك دلالاته الظاهرة إلا بدليل في هذه الحال

قال الابياري"واللفظ بظاهره دال فلا معنى لترك دلالاته بالوهم الصرف" (22)

مثال الظاهر في الاسم :

قوله صلى الله عليه وسلم "ايما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل" (23)

ذهب أصحاب أبي حنيفة إلى حمل لفظ "امرأة" في الحديث على: الصغيرة، والامة، والمكاتبة (24)

ورد الجمهور عليهم بأن الصغيرة ليست امرأة في حكم اللسان، كما أن الصبي ليس رجلا، ولان المرأة في الحقيقة اللغوية والشرعية لا تطلق على الصغيرة أو الامة أو المكاتبة ما دام لكل واحدة من الثلاثة حكم يخصها.

لا يقال السياق يعمها أي أنه يفيد العموم فيشمل تلك الاقسام،لان اللفظ ظاهر في معناه، "وارادة الاقل الاخص باللفظ الاعم الاشمل مردود." (25)

مثال آخر :

قال تعالى "وثيابك فطهر" (المدثر 4)

تدل الاية على وجود تطهير الثياب والامر ظاهر في ذلك وحملت الثياب على محامل شتى منها: القلب (26)، اصلاح العمل (27)، النفس (28). الاهل (29). التزكية (30).

وإذا كان لفظ "الثياب" يتسع لهذه المعاني فتصرف إليها من غير رد ، فإن صرف اللفظ إلى ظاهره أولى، لان الاية عطف على قوله تعالى" وربك فكبر "لانه لما أمر صلى الله عليه وسلم بالصلاة، امر بالتطهير لها، لان الطهارة مشروطة في الصلاة.

الظاهر في الفعل :

الفعل صيغة دالة على أحداث مرتبطة بزمن ، وتفيد معناه بشروط:

- أن يكون ظاهرا وواضحا في المعنى الذي وضع له.
- أن لا يكون متضمنا لمعنى فعل آخر محمولا عليه.
- أن لا يكون معناه مخالفا للسياق الذي وضع فيه.
- أن يراعى في ظهوره أيضا ما يراعى في ظهور الاسم

مثال الظاهر في الفعل :

قوله صلى الله عليه وسلم لغيلان وقد اسلم على عشر نسوة "امسك أربعا، وفارق سائرهن" (31).

حمل الجمهور لفظ (امسك) على ظاهره الذي دل عليه دون أن يلجأ"إلى تأويل أو توجيه، لانه ظاهر قوي وصريح .

وقال الاحناف : انه صلى الله عليه وسلم اراد بقوله "امسك أربعا" أن -يمسكهن ويحدد عليهن الانكحة على موجب الشرع، وهذا الكلام عند المحققين سرف ومجاوزة حد، وقلة احتفال بكلام الشارع فإن الرسول ذكر لفظ الامساك أولا، وموجبه الاستدامة واستصحاب الحال، والثاني أن الثقة لم ينقلوا عنه تجديد العقود بل روا الحكايات، رواية من لا يستريب -انهم استمروا في عهد الاسلام على مناكحهم فيهن، وكان المخاطبون على قرب عهد بالرسول، والرسول صلى الله عليه وسلام لا يخاطبهم إلا بما يقرب من أفهامهم، والتعبير عن ابتداء النكاح بالامساك بعيد جدا، ناء عن المحامل الظاهرة (32).

مثال آخر :

قال تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم"وثيابك فطهر"قال اصحاب أبي حنيفية: ان كل ماء يقع به التطهير مندرج تحت مقتضى الامر .

قال الشافعي : الغرض من الاية التعرض لاصل التطهير وليس التعرض لاصل التخصيص والذي يحقق ذلك ان الباحث عن آلة التطهير عند اتصال هذا الخطاب به سائل عن الشيء على وجهه، والذي يحقق ذلك قوله تعالى "إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا "المائدة (6) استاق الاية لبيان كيفية الوضوء، ولم يخصص الغسل بالة مخصوصة مع اختصاصها بالماء وفاقا فيحمل لفظ الامر على ظاهر العموم (احكام الشافعي 30/1 و 80

احكام الالجصاص : 430/3 احكام ابن العربي : 1988/4)-

الظاهر في الحرف :

الحروف صلات وروابط بين الاسماء والافعال ولها معان تعرف بها، ودلالات تحدد باستعمالها، فتكون ظاهرة في معناها حقيقة فيه مؤولة في غيره، ويشترط فيه :

- ان يكون الحرف ظاهرا في معناه الذي وضع له أصلا
- أن لا يقبل التوجيه الذي يصرفه عن ظاهر معناه فان قبله دل على انه ليس بظاهر فيه .

ويمكن اعتبار ما جاء في كتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة ص 565-578 من باب صرف ظاهر معاني الحروف إلى معاني أخرى يتسع لها الاستعمال، مما يفيد ان الحروف قد لا تستعمل في ظواهرها.

مثال الظاهر في الحرف :

قوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحن بن سمره "يا عبد الرحمن إذا حلفت على يمين قرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمنك ثم ات الذي هو خير"

اشتمل الحديث على احرف وادوات : إذا ، الفاء، ثم

اذا : أداة شرط يقتضي السبيب

والتسبيب يقتضي الترتيب والتعقيب

والفاء مقتضاها التعقيب والتسبيب ولذلك تستعمل رابطة بين الشرط والجواب : إذا حلفت: فرأيت فكفر.. وحرف الفاء صريح في افادة هذه المعاني بظاهره.

وأما ثم : فمن حروف العطف التي تفيد الترتيب مع التراخي وقد جاءت في الحديث بهذه المعاني فلا يمكن أن يقع فيه تقديم أو تأخير كما فهم الاحناف.

ومما يستعمل ظاهرا ومؤوا : حرف "إلى"

"إلى" حرف جر، وهو ظاهر في التحديد مؤول في غيره، قال سيبويه ان اقترن به " من" اقتضى تحديدا ولم يدخل الحد في المحدود، فتقول : بعتك من هذه الشجرة إلى تلك الشجرة. فلا يدخلان في البيع، وإذا لم يقترن بالبيع فيجوز أن يكون تحديدا .

ويجوزان -تكون "إلى" بمعنى"مع" قال تعالى :

"ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم " معناه : مع اموالكم

"وايـديـكـم إلـــى المـرافـــق " معناه : مع المرافق
"مـــن أنـصـاري إلـــى اللـه " معناه : مـع اللـه .

دلالة الظاهر :

لقد سعينا من خلال ما بسطنا القول فيه إلى كشف مكانة الظاهر داخل المنظومة الاصولية، فدل الكشف على انه يحتاج إلى ترتيب في معانيه، وحسم في توجهاته، رفعا لكل اشكال وتجنب لكل خلط، وحلا لكل تعارض، والحال انه لاخلاف بين الاصوليين على ان حكم الظاهر وجوب العمل بالذي ظهر منه، وانما الخلاف واقع بينهم في موجب الحكم: اهو على سبيل القطع؟ أو على سبيل الظن؟ أو علي سبيل آخر ؟ ثلاث توجهات ينبغي أن ننظر فيها .

التوجه الأول : ان موجب الحكم على سبيل القطع، لانه قطع باصل دلالة اللفظ، فالقول بأن الظاهر :

لفظة معقولة المعنى (53)

أو - لا يفتقر في افادة ما هو ظاهر فيه إلى غيره (54)

او - ما سبق إلى فهم سامعه معناه الذي وضع له (55)

ولا يمنع من العلم به من جهة اللغة مانع

هذه التعاريف واسباهها راعات الوضع والحمل :

الوضع باعتبار أن اللفظ يدل على معنى صريح وضع له فهو ظاهر فيه حتما، يدل عليه بنفسه ولا يمنع من العلم به شيء. واما الحمل فباعتبار انه ظاهر وحمل اللفظ عليه أولى، لانه مقدم على غيره وقد سبق إلى فهم سامعه معناه ولم يمنع من الحمل عليه مانع.

فيكون الاخذ بالقطيعة قائما على اتحاد عنصرين : الوضع والحمل ويكون "حكمه لزوم موجبه قطعا" (56)

ولعل الذين ذهبوا إلى اعتبار الظاهر والنص شيئا واحدا، ولم يفرقوا بينهما، راعوا ما يدل عليه الظاهر بحكم وضعه، وأنه لا يحتمل معنى زائدا يقدح في قطيعته فيحكم عليه بالتأويل والظن... فتحصل ان كل ظاهر بالضرورة لا بد فيه من جهة مقطوع بها (57) وهي الجهة التي لا يتوصل إلى أزالتها بوجه، والحال انه لفظ معقول المعنى.

التوجه الثاني : ان موجب الحكم على سبيل الظن، ولعل مأتاه مما زاد على أصل المعنى ولعل هذه الزيادة هي مستند الذين عرفوا الظاهر بانه اللفظ : الذي يحتمل التأويل (58)

أو - الذي يدل دلالة ظنية (56)

أو - المترددين احتمالين فاكثر هو في أحدهما أرجح (60)

أو - اللفظ المتشابه (61)

ومستندهم هذا :

- لا يلغي كون الظاهر ظاهرا في جهة مقطوع بها (62)
- لا يحجب ان يكون المعنى المستفاذ من الدليل على التأويل المرجوح أقوى من المعنى الظاهر
- لا يمنع ان يكتفي في المظنون بالسبق إلى الفهم.

وإذا كان الظاهر هوالغالب على النصوص الشرعية فهل يسمح هذا بالقول ان افادتها للاحكام من قبيل الظن ؟

ان القول بأن احكام الشرائع لا تستفاد إلا من القواطع لم يقله الا بعض الناس من مثل : بشر المريسي (63) ابراهيم بن عليه (64) ابو بكر الصم (65)

الشيعة الامامية قالوا : لا مجال للظن في الاحكام. والعقل قاض بالنفي الاصلي في جميع الاحكام إلا ما ايتثناه دليل قاطع سمعي فهو ثابت، وما لا يثبته فهو باق على النفي الاصلي (66)

وكما أن الادلة قطعية الثبوت والدلالة فكذلك الاحكام ينبغي ان تكون قطيعة الدلالة ، لان الظن لا يغني من الحق شيئا .

وهذا سرف في القول ومجانبة للصواب، والواقع ان أغلب الاحكام الشرعية تقوم على الظن لان المشكوت عنه شرعا اكثر من المتكلم به، وليتكلم المسكوت عنه استعان الاصوليون بالقياس واخبار الاحاد وغيرها وهما معا دليل ظني قال السمعاني (67) الاقيسة لا تفيد العلم بوجوب العمل باعيانها، وانما يقع العلم بوجود العلم بالأدلة القطيعة التي اقمناها عند وجود الاقيسة (68) وقول السمعاني في الاقيسة يجرى على اخبار الاحاد وغيرها، ان الشرع قد ورد باتباع كثير من الظنيات والظنيات مصدرها الظاهر، وعليه فالظاهر حاضر في مجال استفادة الاحكام من النصوص وليس هناك ما يمنع ذلك، فالادوات الاجرائية من مثل اسباب الظهور وأسباب التأويل لا تفيد القطع الذي لا ظن فيه، وانما

تفيد الظن الراجح، بقول الرازي: "والعمل بالظن واجب (69) لان الدال والمدلول لا يسلمان منه.

واعتماد القرائن الظنية ليس يقادم في قطعية النصوص لانه "لما قام الدليل على وجود العمل بالظن الراجح، كنا متبعين للعلم، فنحن نعمل بالعلم الموجب للاحكام، ولا نعمل بالظن فالحكم معلوم قطعا، والظن واقع في طريقه (70) "لان مرجعه الظاهر ، وان كان الظن لا يلغي الظاهر فهو يحتاج إلى كثرة الاستقراء لموارد الادلة التي تسقط وجه الظن فيه.

التوجه الثالث جهة التأويل :

التأويل حمل اللفظ على غير مدلوله الظاهر منه مع احتماله له، أي لغير المدلول به، فيصير اللفظ المؤول متضح الدلالة في المعنى الذي تؤول فيه، لانه راجح فيه، إلا أن رجحانه لما كان بدليل منفصل كان في اتضاح دلالته كالظاهر، وهو أنواع وأقسام :

- الظهور والخفاء أو القرب والبعد :

ليس كل احتمال يعضده دليل هو تأويل مقبول، بل تختلف درجته باختلاف ظهور المؤول وخفائه.

فان كانت دلالة المؤول عليه ما تزيد دلالته على ماهو ظاهر فيه.قبل التأويل، وعد رجها يصح حمل اللفظ عليه، وهو يتسع له.

وان كانت دلالة المؤول عليه لا تزيد على دلالته على ما هو عليه اللفظ الظاهر بل جاء التأويل دون ذلك يحكم على هذا التأويل بالخفاء والبعد لان من شرط المؤول أن يكون متضح الدلالة في المعنى الذي تؤول فيه "وكلما كان التأويل أبعد وأخفى بحاجة إلى دليل أقوى" (71) "لأن التأويل يقوى بدليله، كما أنه يضعف بدليله

التأويل بحسب الاستعمال

وهو نوعان : مقبول -ومردود

فالنوع الأول : يجب فيه حمل اللفظ المؤول على دليل يصير به المرجوح في نفسه راجحا وهو تأويل صحيح، لان تقديم آرجح الظنين عند التقابل "هو الصواب (72)" و "هو واجب (73) وبه تتبث الصحة التي تتحقق غالبا بالحمل على الوضع أو الاستعمال الموافق، والدليل في هذه الحال غالبا ما يكون قويا، كأن يكون المراد باللفظ ما حمل

عليه كحمل الامر على الوجوب بدل الندب في قوله تعالى في سورة النور: (33) " وأتوهم من مال الله الذي آتاكم" فيكون التأويل الصحيح المقبول هو حمل اللفظ على مدلوله الظاهر منه مع احتماله له بدليل يعضده.

النوع الثاني : حمل اللفظ على معنى لا يحتمله أصلا، فلا يصح أن يكون دليل التأويل أضعف من دليل الظاهر، وهذا تأويل فاسد، لأنه من باب حمل اللفظ على ما يظن انه دليل وليس كذلك والاحكام الشرعية لا تنبني على مجرد الظن ولا على المعنى المهجور غير المستعمل، فيكون التأويل الفاسد هو صرف اللفظ عن مدلوله الظاهر إلى ما لا يحتمل أصلا يغير دليل.

فيضعف التأويل لقوة ظهور اللفظ أو لضعف دليله" (74)

شروط التأويل :

حرصا على أن تبقى ظاهرية اللفظ متمتعة بحضورها -في الجهتين- ولنحصل على تأويل موسوم بالقوة والصحة والقبول تجب مراعاة الشروط الاتية :

1 - أن يكون المتأول أهلا لذلك (75)

2 - أن يكون اللفظ المؤول قابلا لذلك (76)

3 - أن يكون اللفظ ظاهرا فيما صرف عنه محتملا لما صرف إليه (77)

4 - أن يصير اللفظ المؤول ظاهرا فيما أول فيه (78)

5 - أن يكون الظن المستفاد من ذلك الدليل على التأويل المرجوع أقوى من الظاهر (79)

6 - أن يكون الدليل الصارف للفظ عن مدلوله الظاهر راجحا ليتحقق صرفه إلى غيره، وإلا فبتقديرات يكون مرجوحا ولا يكون صرفا للفظ عن ظاهرة اتفاقا (80)

7- أن يكون المعنى المتناول فيه مساويا للظاهر في دلالته من غير ترجيح لان التسوية لا تعد تأويلا "فإن استويا فقد قيل بالوقف" (81)

8- أن لا يكون اللفظ المؤول نصا أو مجملا (82)

أ- لان النص يفيد القطع ولا يحتمل

ب- ولان المجمل غير ظاهر في معنى بعينه، وإنما توفرت فيه معاني غير ظاهرة في جهة من الجهات إذ اختلط فيه المراد بغير المراد .

الخلاصة :

ما سعى إليه الاصوليون من تعميق البحث في الدلالات يهدف إلى الوصول - أو الحصول على معنى ظاهر، موسوم بالعلانية والانكشاف والقوة، ولذلك احاطوا مصطلحاتهم بضوابط دقيقة حتي لا تختلط بغيرها، فالمجمل والمشترك، والمتواطل والمشكك والمترادف والخفي والمشكل والمتشابه، كلها أوصاف لالفاظ لم تتضح معانيها في جهة ما، فإذا اتضحت بدليل أو قرينة أو سياق كانت لها مزية الظاهر واكتسبت خواصه لانه أول المراتب، ان الظاهر هو مقصد البحث الدلالي فالمتأول مثلا ينبغي أن يكون ظاهرا فيما تؤول فيه، ومثله باقي الالفاظ، إذ الحكم الشرعي لا ينبني الاعلى ما هو ظاهر بين لان هدف الارسال هو البيان والتبين.

ورغم تباين جهود الاصوليين في رصد الظاهر في النصوص الشرعية واختلاف انساقهم فانه لم يثبت ان أغفل واحد منهم امره أو اعرض عن ذكره لانهم اجمعوا على أن اللفظ اما : ظاهر أو نص ...

وما يلحق الظاهر من اعراض لا يخرجه عن كونه ظاهرا، له حصانة من الوضع، وحماية من الحمل ، وشوكة من الاستعمال. والظاهر يخالف النص في كونه يحمل دلالة ظنية احيانا .

ويخال المجمل والمؤول لكون دلالتهما مساوية أو مرجوحة.

ويخالف المبين لعدم التردد في معناه لان معاني الظاهر غير مستقرة ولا تترجح إلا بدليل، الظاهر يقبل المجاز، والتخصيص والتأويل والاحتمال ، إلا انه ليس من قبيل المشترك .

الظاهر مقارب للمنطوق لانه لا يحمل على مفهوم بل على ما يظهر منه، ولا جل ذلك كان هناك ظاهر في الجملة والكلمة والحرف.

وبعد

فلعل هذا العرض-بتوفيق من الله- قد اصاب في توضيح ما غاب عن الأذهان من امر الظاهر وانه وان لم يكن قد أبدى جديدا تطمح إليه النفوس فلعله جمع منه ما تفرق، وحقق ما اختلف فيه.

الهوامش :

1 - الخطاب لغة توجيه الكلام المفيد إلى آخر بأداة من الأدوات، فلا يكون إلا بين اثنين، والمقصود منه معرفة المخاطب، فوجب أو يكون لمعرفة ذلك طريق تفضي إليه وإلا كان تعميما وتلبيسا وعدولا عن البيان.

ن أصول الفقه للعربي اللوه: 46 اشكالية اللغة والفكر. د الكتاني م المناهل 20/30

2 - ن الموافقات 344/3

3 - البرهان 425/1

4 - ن البرهان 521/1

5 - اللسان، المعجم الوسيط، معجم ابن فارس تاج العروس : ظهر

6 - ن البرهان 417/1 المستصفى 322/1 وما بعدها

7 - ن مفتاح الوصول : 59 وما بعدها

8 - ن البرهان 514/1

9 - البرهان 534/1 ومن معارضة الظاهر للقياس اختلاف الفقهاء في الاشهاد على الرجعة هل هي شرط في صحتها أم لا؟ مذهب مالك انه مستحب، ومذهب الشافعي انه واجب، وسبب الخلاف : هل ظاهر قوله تعالى: "واشهدوا ذوي عدل منكم "يقتضي الوجوب، أو يقتضي الندب تشبيها له بسائر الحقوق التي يقبضها الانسان وتقتضى أن لا يجب الاشهاد فيها.ن البداية 85/2

10 - ن : معجم ابن فارس، اللسان. المعجم الوسيط، تاج العروس: (نص)

11 - ن الرسالة : 669

12 - ن البرهان 416/1

13 - ن المستصفى 384/1

14 - ن أصول السرخسي 164/1

15 - ن المعجم الوسيط، لسان العرب تاج العروس (أصل)

16 - ن التعريفات : 28 والقاموس الفقهي (20)

17 - ن ارشاد الفحول : 176

18 - ن أصول السرخسي 164/1

19 - ن نفائس الاصول 37/1 ونهاية السول 18/1

20 - شرح التنقيح : 120

21 -ن البرهان 418/1-419

22 - شرح البرهان للابياري 193/1

23 - سنن الترمذي، وابن ماجة، وأبي داود : كتاب النكاح

24 - ن البرهان 518/1-517

25 - ن البرهان 524/1

26 - احكام الشافعي 81/1
27 - ن احكام الجصاص 470/3
28 - احكام ابن العربي 1886/4
29 - احكام ابن العربي 1886/4
30 - ن التحرير والتنوير 297/29
31 - ن سنن الترمذي حديث 1138 وسبيل السلام 255/3
32 - ن البرهان 532/1
33 - ن احكام الفصول : 190
31 -الاشارات بهامش حاشية الهدة : 8
32 - ن البرهان 160/1
33 - المستصفى 5/1
34 - ن المستصفى 21/1
35 - ن المستصفى 384/1
36 - ن المستضفى 345/1
37 - ن المستضفى 345/1 و 348
38 - ن المستصفى 384/1
39 - وإذا كان الظاهر في معنى النص فالغزالي يقول عنه : هو اللفظ الذي يغلب على الظن فهم معنى منه من غير قطع ن المستصفى 385/1
40 - ن المحصول لابن العربي : 94 وكان جهميا يقول بخلق القرآن له مع الشافعي مناظرات ن تاريخ بغداد 20/6 لسان الميزان 34/1
41 - هو أبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الاحمر ت 201 فقيه معتزلي مفسر وله مقالات في الأصول، ومناظرات مع العلاف، ن سير اعلام النبلاء 402/9، لسان الميزان 427/3
42 - ن رسالة السجلماسي عن مقال للأستاذ المنوني بحوليات كلية اللغة بمراكش 68/1
67 - هو أبو المظفر السمعاني منصور بن التميمي ت 489 هـ مفسر محدث، وأصولي فقيه، كان شديدا على المخالفين ومن أهل الورع ن سير اعلام النبلاء 111/19 طبقت المفسرين للداودي : 39/2
43 - عن المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين : 28
44 - ن المحصول 494/2/2
45 - ن المسائل المشتركة : 27
46 -ن البحر المحيط للزركشي 438/3
47 - م س

48 - م س
49 - البحر المحيط 443/3
50 -ن الاحكام للإمدي 50/2
51 -ن الاحكام للامدي 50/2
52 - وقال الزركشي : وشرطه أن يكون موافقا لوضع اللغة أو عرف الاستعمال أو عادة صاحب الشرع . ن البحر المحيط 443/3
53 - ن الاحكام للامدي 50/2
54 - ن مفتاح الوصول 74 وفيه "اعلم أن المؤول متضح الدلالة في المعنى الذي تؤول فيه".
55 - ن البحر المحيط 438/3
56 - المصدر السابق
57 - المصدر السابق
58 - ن الاحكام للامدي 50/2 والبحر المحيط 438/3

فهرس المصادر والمراجع

-احكام الفصول في إحكام الاصول لأبي الوليد البجي، ت 474 هـ
تحقيق د .عبد المجيد تركي دار الغرب الاسلامي بيروت ط 1 - 1407-1987
- الاحكام في أصول الأحكام لسيف الدين أبي الحسن علي الأمدي ت 631 هـ هوامش : الشيخ ابراهيم العجوز دار الكتب العلمية بيروت ط 1 1405-1985
- أحكام الشافعي ـ أحكام القرآن لابي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي ت 204 هـ جمعه أحمد ابن الحسين البهقي توفي 458هـ
هوامش : عبد الغني عب الخالق دار الكتب العلمية بيروت 1400-1980
- أحكام الجصاص = أحكام القرآن لأبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص ت 307 هـ دار الفكر بيروت .
- أحكام بن العربي = أحكام القرآن لأبي محمد بن عبد الله بن العربي تـ 543 هـ ت : علي محمد البجاوي دار الفكر بيروت ط1 11394-1974
- ارشاد الفحول إلى تحقيق الكف في علم الاصول محمد بن علي الشوكاني تـ 1255 هـ دار الفكر بيروت
- اشكالية اللغة والفكر الدكتور محمد الكتاني مجلة المناهل وزارة الثقافة الرباط عدد 30 سنة 11ص 9
- أصول السرخسي للامام أبي بكر محمد بن أحمد السرخسي تـ 490هـ حقق أصوله : أبو الوفا الافغاني نشر لجنة احياء المعارف النعمانية حيدر اباد الدكن -الهند .

- البحر المحيط في أصول الفقه للزركشي ت : 794 هـ تحرير د : عمر الاشقر مراجعة : د . محمد سليمان الاشقر
د . عبد الستار أبو غدة و وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ط 2 ، 1414-1993 الكويت
- أصول الفقه للعلامة العربي محمد اللوه، مطابع الشويخ، تطوان 1404- 1984
- البرهان في أصول الفقه، امام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني، ت 478 ت : د. عبد العظيم الديب دار الانصار القاهرة.
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد، لأبي الوليد أحمد بن رشد القرطبي ت : 595 هـ، دار المعرفة بيروت ، ط 5-1981
- تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن ملم بن قتيبة ت 275 هـ شرحه : السيد أحمد صقر 275، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة، ط : 3 1401-1981
-تاج العروس، للامام مرتضى الواسطي الزبيدي، ت : 1205 المطبعة الخيرية، مصر، ط : 1 ، 1306
- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، للحافظ أبي أحمد بن علي الخطيب البغدادي ت : 463، المكتبة السلفية المدينة المنورة.
- التعريفات، علي بن محمد الجرجاني ت 816 هـ دار الكتب العلمية بيروت، ط : 1 ، 1983
- تفسير أسماء الله الحسنى، لأبي اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج، ت : 311هـ ت :أحمد بن يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث دمشق ، ط : 2 1979
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للطبع تونس، ط : 2/ 1984
- الرسالة، للامام محمد بن اريس الشافعي ت : 204 هـ ، ت : أحمد محمد شاكر، دار المعارف مصر ط : 1
- رسالة السجلماسي للاستاذ محمد المنوني، حوليات كلية اللغة العربية مراكش، عدد : 86/1
- سبل السلام، شرح بلوغ المرام من أدلة الاحكام للامام محمد بن اسماعيل الصنعاني ت ، 1182، هـ ت : محمد عبد القادر عطا ، دار الفكر ، بيروت
-السنن، لابي داوود سليمان بن الاشعت السجستاني الأزدبي ت 275 هـ اعداد وتعليق : عزت الوعاس، دار الكتب العلمية بيروت 1971.
- السنن لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني بن ماجة ت : 275هـ ت : محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء التراث العربي بيروت د.ت .
- السنن أو : الجامع الصغير، محمد بن عيسى الترميذي ت 279هـ ت : عبد الرحمن بن عمان، دار الفكر بيروت ، ط : 2-1983

- سير اعلام النبلاء، محمد بن محمد بن عصمان الذهبي ت : 748ط 4، 1406 - 1986 مؤسسة الرسالة ، بيروت
- شرح البرهان في أصول الفقه، لعلي بن اسماعيل بن علي الصنهاجي الابياري ت، : 616 هـ مخطوط بمكتبة الجامع الكبير، مكناس رقم : 95
- شرح تنقيح الفصول، شهاب الدين القرافي، ت طه عبد الرؤوف دار الفكر بيروت :مكتبة الكليات ط : 1 -1973-1993
- طبقات المفسرين ، لمحمد بن علي بن أحمد الداودي ، ت : 945 ط : 1 ، 1983، دار الكتب العلمية بيروت .
- القاموس الفقهي، لغة واصطلاحا، سعدي أبو حبيب، دار الفكر بيروت ، ط : 1 1982
-كتاب الحدود في الاصول، أبو الوليد الباجي ت : 474 : هـ ت : د : نزيد حماد، مؤسسة الزعبي، بيروت ، ط : 1 / 1392-1973
- كشف الأسرار، عن أصول فخر الاسلام البزدوي، الامام عبد العزيز أحمد البخاري ت : 720 هـ دار الكتاب العربي، بيروت . 1394-1974
- لسان العرب ، لابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ت : 711هـ، دار الفكر ، دار صادر، -بيروت ، د.ت
- لسان الميزان ، للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت : 852 ، نسخة مصورة، دار الفكر بيروت.
- المحصول في علم الاصول، لابي بكر بن العربي، ت 543هـ مخطوط.
-بخزانة علال الفاسي ، الرباط
-المحصول في علم أصول الفقه، فخر الدين محمد بن عمر الرازي بـ 606 هـ، ت : د طه جابر فياض العلوان، مطبوعات جامعة للامام محمد بن سعود - الرياض ، ط: 1 / 1400- 1980
المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين، د. محمد العروسي
عبد القادر ، دار حافظ للنشر والتوزيع، جدة ط : 1 ، 1410. 1990
- المستصفى، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، ت : 505 هـ دار الفكر بيروت ، د . ت
- المعتمد في أصول الفقه، لأبي الحسين محمد بن علي البصري ت: 436 هـ : ت محمد حميد الله ، منشورات المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق ط: 1 ، 1364 - 1464
- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكرياء ت 395 ت : عبد السلام هارون ، دار الفكر بيروت
- مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الاصول، لأبي عبد الله محمد بن أحمد المالكي

التلمساني ت : 771، ت عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، بيروت 1403-1983

-منتهى الوصول والامل في علمي الاصول والجدل، للامام جمال الدين أبي عمر وعثمان بن عمرو المعروف بابن الحاجب ت : 571 هـ و دار الكتب العلمية بيروت، ط : 1، 1405 - 1985

- المنهجية الاصولية والمنطق اليوناني في خلال أبي حامد الغزالي وتقي الدين ابن تيمية، تأليف حمو النقاري نشر ولادة ط 1 ، 1411 - 1991 البيضاء

- الموافقات في أصول الشريعة، لأبي اسحاق الشاطبي، ت : 790هـ تعليق عبد الله دراز، دار المعرفة بيروت، د.ت .

- نفائس الاصول في شرح المحصول. ج : 1، شهاب الدين القرافي ت : 686 هـ مخطوط بمكتبة الجامع الكبير، مكناس، رقم : 156

- نهاية السول في شرح منهاج الأصول للبيضاوي، جمال الدين عبد الرحمان لاسنوي، ت : 772 هـ، عالم الكتب بيروت د.ت .

آخر خطاب لمجلس الخامس ٢٠٠٧

[illegible]	—	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

[illegible]	[illegible]	[illegible]	—	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

[illegible]			[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

[illegible]	معتبرة لكنه لم يذكر	[illegible]	—	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	—	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	—	[illegible]
[illegible]	[illegible]	[illegible]	—	[illegible]

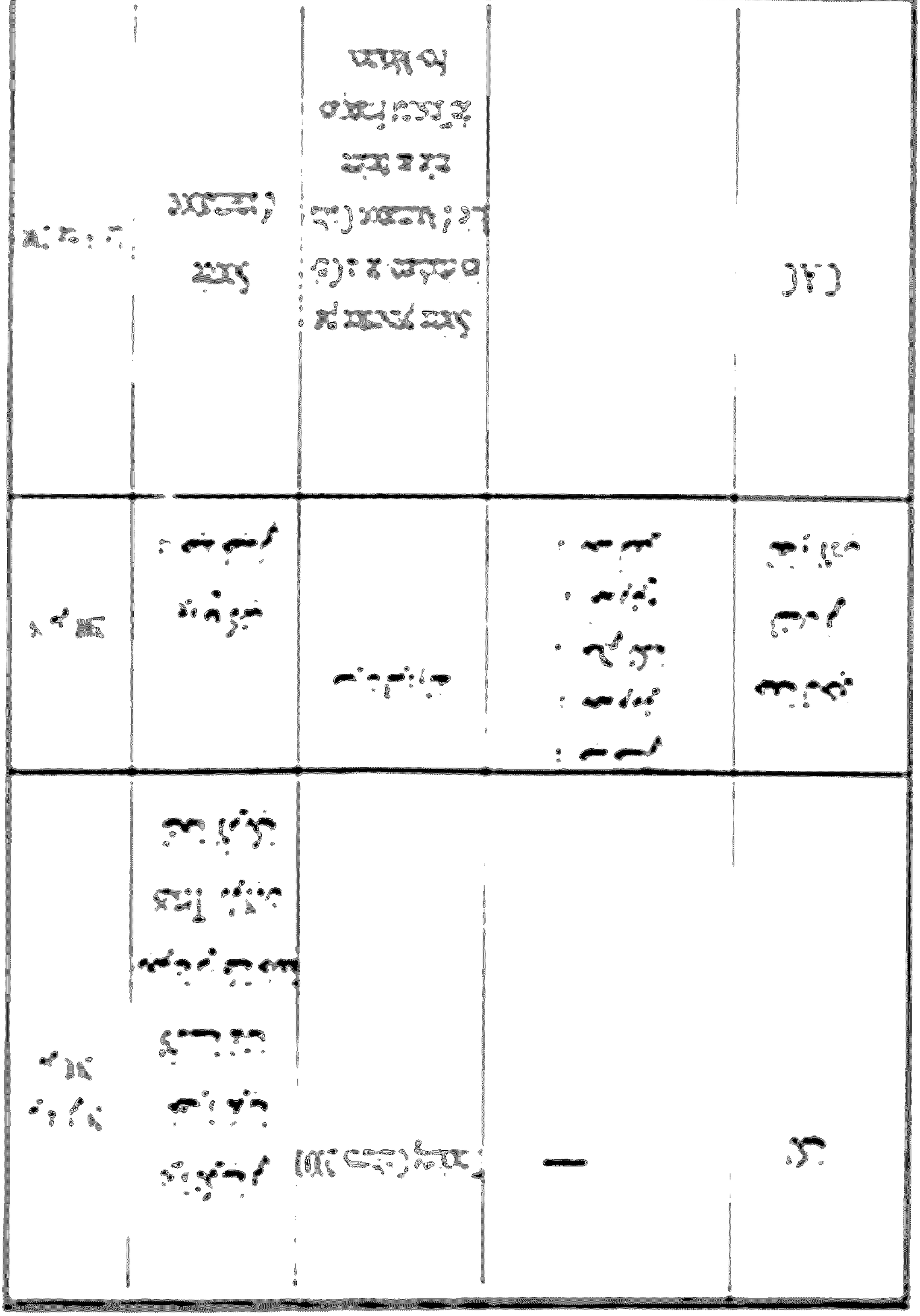

Université Moulay Ismail

MAKNASAT

REVUE DE LA FACULTÉ DES LETTRES ET DES SCIENCES HUMAINES DE MEKNÈS